رايسبيلدر

هاينريش هاينه

رحلات هاينه في أوروبا



المجلد الثاني

ترجمة : عبد المعين الملّوحي





رايسبيلدر

رحلات هاينه في أوروبا

دار **التنوير** للطباعة والنشر . ص . ب **٦٤٩٩ - ١١٣**

بيروت - لبنان . الصنوبرة - أول نزلة اللّبان - بناية عساف .

* **الناشر :**
دار **المثلث** للتصميم والطباعة والنشر . ص . ب **٥٨٠٣ - ١١٣**

بيروت - لبنان . هاتف **٣٤٥٥٧١** تلكس : دِلتا **٢٠٦٣٩** .

* **التنفيذ الفني :** دار المثلث ش . م . م .

هاينريش هاينه

رايسبيلدر

رحلات هاينه في أوروبا

المجلد الثاني

ترجمة

عبد المعين الملّوحي



يضم هـذا الكتاب الترجمة الكـاملة للنص الفرنسي: الجزء الثاني

Heinrih Heine: Reisebilder, Tableaux de Voyages

رحلة من مونيخ إلى جنوا

(١)

أنا أحسن الناس تهذيباً في العالم، وأفتخر بأني لم أكن قط غليظاً على ظهر هذه الأرض، وفيها ما فيها من السخفاء الذين لايحتملون، والذين يتشبثون بالناس ويقصون عليهم آلامهم أو ينشدونهم أشعارهم. لقد أصغيت دائماً إلى أمثال هؤلاء الناس في صبر مسيحي حقاً دون أن تخونني تكشيرة واحدة تُنبىء عما في روحي من ارتباك عميق. وكما يسخّر البرهماني التقي جسده للحشرات كي تصبح هذه الحشرات ذات نصيب في الطعام، فكذلك أنا قضيت شطراً من أيام كاملة منصرفاً إلى هذه الحشرات الانسانية العنيدة الشرسة أصغي إليهم في هدوء، وتنهداتي الداخلية لايسمعها إلا الله، وهو الذي يجزي الإحسان بالاحسان.

ثم إن الحذر العملي يأمرنا بأن نكون لبقين، فلا نلزم الصمت المهاجم، ولانردّ رداً مزعجاً، عندما نقع في مغامرة فيتشبث بنا مستشار تجاري هش أو مبتدىء ناشف ويبدأ على العموم حواراً أوروبياً يستهله بهذه الكلمات:

ـ الطقس جميل، هذا اليوم.

إنك عندئذ لاتعرف كيف تجد نفسك مع مثل هذا الفرّيسي، ويمكن أن تدفع الثمن غالياً إذا لم تجبه في تهذيب: ـ حقاً، الطقس جميل جداً. ويمكن أن يحدث لك يا قارئي العزيز أن تجلس إلى مائدة ضيافة، إلى يسار هذا الفرّيسي وأمامه صحن السمك. وهو يقوم بتقديمه في لطف ساحر، ويحدث أن يكون ممن لايحبك وهكذا يدور الصحن حول المائدة دون أن يصل إليك حتى البقية الباقية من ذنب السمكة، لأنك تماماً في المقعد الثالث عشر من المائدة، وذلك ما يُقلق حقاً إذا

كنت على يسار الذي يقطع السمكة ويبدأ تقديم الطعام من اليمين.. إن عدم حصولك على السمك تعاسة كبيرة ربما كانت أكبر تعاسة بعد تعاستك في أن يحكم عليك بضياع الشارة البروسية. ثم إن الفرّيسي الذي يعبث بك هذا العبث يسخر منك علاوة على ذلك ببعض الأوراق التي بقيت سابحة في المرق الأسود: وا أسفاه! ماذا تنفع أوراق الغار هذه عندما لاتكون مرتبطة بالسمك. هذا الفرّيسي يغمز بعينيه ويكشر ويدمدم بين أسنانه: الطقس جميل هذا اليوم.

وا أسفاه. أيتها الروح المسكينة. يمكن أن يحدث لك أيضاً أن ترقدي في المقبرة قرب الفريسي نفسه، فإذا قامت القيامة وسمعت النفخ في الصور قلت لجارك هذا: يا صديقي العزيز، مُدّ لي يدك، أرجوك لكي أستطيع النهوض لأن ساقي اليسرى تورمت بعد هذا الوضع اللعين الذي حافظنا عليه منذ عهد بعيد. وإذا أنت ترى فجأة هذه التكشيرة المشهورة للسيد الفرّيسي، وتسمع صوته الساخر يقول لك: الطقس جميل هذا اليوم.

(٢)

ـ الطقس جميل هذا اليوم.

أنت لم تسمع يا قارئي العزيز النبرة، وهي جهورية عميقة لاتُضارع، التي نُطقت بها هذه الكلمات. وأنت لم ترَ الذي نطق بها، هذا الوجه المزخرف المهندس، وتلك العيون الغبية إلى حد بعيد، وهذا الأنف الافطس، المتقصى، ولو سمعت ذلك ورأيته لعرفت فوراً أن هذه الزهرة ليست نتاج رمل عادي ، وأن هذه النبرات من لغة (شارلوتنبرغ) التي يتحدث فيها الناس باللهجة البرلينية أفضل بكثير مما يتكلم بها أهل (برلين) نفسها.

أنا أكثر الناس تهذيباً في العالم كله. وأحب السمك، وأومن أحياناً بالبعث، وأجيب: حقاً الطقس جد جميل.

عندما نطق ابن (سابري) بهذه الكلمات وعلى هذا الشكل استبد بي تماماً ولم أستطع الخلاص من أسئلته ومن الأجوبة التي يرد بها أول ما يرد على أسئلة، وخاصة في مقارناته بين (برلين) و (ميونخ)، (أثينا) الجديدة، التي لم يترك فيها شعرة واحدة على الرأس....

لاشك أنهم يسمون (ميونخ) (أثينا) الجديدة، وهذا، في ما بيننا ، فيه شيء

غير قليل من السخرية، ولقد عانيت كثيراً وأنا أدافع عنها تحت هذا الموضوع. إن كل ما قاسيته في هذا الحوار مع الفرّيسي البرليني، وكان غير مهذب إلى حد كافٍ، رغم أنه امتد حواره معي منذ زمن طويل، لم أجد فيه أي ظرف وتهذيب أثيني في (أثينا الجديدة).

وصرخ في صوت عال إلى حد كاف: ــ هذا الظرف لانجده إلاّ في (برلين). هناك تجد الروح الخفيفة والسخرية. هنا نجد الجعة البيضاء ولكن لا أثر فيها لأية فكاهة.

وصرخت بنا (نانيرل) الخمارة الشقراء؛ وهي تمر راكضة: ليست عندنا فكاهة، ولكنك تستطيع هنا أن تطلب كل أنواع الجعة.

أسفت كثيراً لأن (نانيرل) ظنت الفكاهة نوعاً خاصاً من الجعة. ولكني من أجل أحلى مَنْ في (ستيتين) ولكي لاتتعرض مرة أخرى إلى مثل هذا الاحتقار بدأت في إيضاح الأمر على النحو التالي:

ــ يا جميلتي (نانيرل) الفكاهة ليست جعة، ولكنها شيء من اختراع أهل (برلين) وهم أكثر الناس إدراكاً في العالم. والذين تنسحق قلوبهم ندماً لأنهم ولدوا متأخرين جداً فلم يستطيعوا اختراع البارود: وهم لذلك يجدون في البحث عن اختراع شيء مثله في الأهمية. ينفع كثيراً أولئك الذين لم يخترعوا البارود. في الزمن السابق، يا ابنتي العزيزة عندما يقوم أحد الناس بعمل أحمق أو يقول كلمة حمقاء فماذا يفعل الناس به؟. كانوا يقولون ما حدث حدث، ويقولون: هذا الرجل حيوان أحمق، وفي هذا الكلام ما فيه من سوء وإزعاج. أمّا في برلين التي يتمتع أهلها بحسّ مرهف، ويقومون مع ذلك بأشد الحماقات حماقة، فيحسّ الناس بهذه المضايقات. وأراد وزير المعارف أن يداويها باصدار عدد من الإجراءات الجادة: فأمر ألا تطبع إلا الحماقات الكبرى. ولايسمح بالحماقات الصغرى إلاّ في الأحاديث، وهو سماح لم يشمل أساتذة الجامعات ولا الموظفين الكبار. ولايجوز لصغار الناس أن ينشروا حماقاتهم إلا سراً. ولكن كل هذه الاحتياطات ويا للأسف لم تجدِ نفعاً. ولقد انتشرت الحماقات المعلبة في (برشامات) في قوة أشد في المناسبات الخارقة، بل إنها تمتعت سراً بحماية الطبقات العليا وانبثقت جهراً في الطبقات السفلى. وعمت الفوضى والارتباك وأخيراً وجدوا طريقة ناجعة يمكن فيها إلغاء كل

حماقة بل يمكن تحويلها إلى أمر عاقل. وهذه الطريقة سهلة جداً وتقوم على الاعلان بأن هذا العمل الأحمق أو أن ذلك القول الأحمق لم يُفعل أولم يُقل إلا للسخرية والمزاح. وهكذا يا ابنتي العزيزة نرى كل شيء يتقدم في العالم: الحماقة أصبحت سخرية ونكتة. والتزلف هجاء ضمنياً. وثقل الدم الطبيعي تهكمًا لبقاً، والجنون الحقيقي نشاطاً وحمية ساخرة، والجهالة فكراً لامعاً، وأنت نفسك سوف تصلين إلى مرحلة تصبحين فيها (أسبازي) (أثينا) الجديدة.

لقد كان من الممكن أن أتحدث أكثر مما تحدثت عن الجميلة (نانيرل) التي كنت أمسك بتنورتها لولا أنها تخلصت مني بعنف حين سمعت عاصفة من الأصوات تطلب الجعة من كل جانب. أما البرليني فقد كانت سحنته فيها سيمياء السخرية، حتى وهو يلاحظ كيف يتلقى الشاربون دنان الجعة المزبدة في حماسة ظاهرة. وهو يشير إلى مجموعة من الشاربين الذين يتذوقون بكل قلوبهم عطر الشراب ويتنازعون حول مزاياها، فيقول وهو يغمز: هاهم هؤلاء أصحابك الأثينيون!

إن الملاحظات التي أبداها هذا الرجل دفعة واحدة أزعجتني ما دمت كثير الإعجاب والحماسة لمدينتنا (أثينا) الجديدة، ولذلك فقد اجتهدت في أن أجعل هذا المراقب النزق يفهم أن فكرة سكناها في (أثينا) الجديدة لم تخطر لنا إلا منذ عهد قريب، وأننا لسنا إلا شباباً مبتدئين، وأن أفكارنا العظيمة، بل وجمهورنا المهذب، لم يتح له حتى الآن أن يتكشّف للناس من قريب. كل شيء ما يزال في مهده، ونحن أبعد من أن نصل إلى حد الكمال، وأضفت إننا يا صديقي العزيز لانشغل إلا مهمات عادية واطئة، ولايغيب عنك أنّا لاينقصنا الغربان. وهم مثلاً النمامون والـ(فرينس). ولكن يُقال إن الأدوار الأولى، يُجبر فيها الفرد على أداء أدوار كثيرة في آن واحد. وهكذا فإن شاعرنا الذي يتغنى بحب الشباب الرقيق اليوناني وجد نفسه مجبراً على تحمل كلام (ارسطوفان) الفظ، ولكنه يستطيع القيام بكل شيء، فهو يمتلك كل ما يلزم لشاعر كبير ما عدا الخيال والروح، ولو كان له مال كثير لأصبح رجلاً ثرياً. إن ما ينقصُنا من حيث الكمية نعوضه من حيث النوع. نحن نملك نحاتاً عظيمًا وهو السيد (لوليون)، وعندنا خطيب مصقع واحد، ولكني مقتنع تماماً أن (دوموستين) لايستطيع أن يلقي خيراً منه خطاباً يدور حول ضريبة حثالة الشعير في (أتيكا) وإذا كنا لم نشرب سمّ سقراط فذلك فقط لأن السمّ ينقصنا. وإذا لم يكن بيننا (ديموس) وجمهرة واسعة من الجدليين، فنحن نستطيع أن نقدم

نموذجاً رائعاً من هذا النوع، وهو جدلـي يعـدل وحده (ديموس) مجموعة كاملة من الثرثارين الكبار ومن البلهاء ومن الأوغاد وغيرهم من الحفاة، انظر ها أنت ذا تراهم شخصياً.

لا أستطيع أن أقاوم الرغبة في عرض ملامح أكثر تفصيلاً لهذه الشخصية التي تبدو لنا الآن. أنا أترك للآخرين أن يقدروا إذا كان لرأس هذا الانسان شيء من الانسان، وبالتالي هل هم على حق إذا وصفوه بأنه إنسان. أمّا أنا فأتمسك بأن هذا الرأس رأس قرد، وعندما أنظر إليه نظرتي إلى إنسان أفعل ذلك مجاملة. أما زيّه فيقوم على طاقية من القماش شكلها يشبه خوذة (ميمبران) تقبع فوق حبال من الشعر الأسود تتدلى من خلف، وتتفرق في المفرق كالصبيان من أمام. على صفحة هذا الرأس، الذي يفترض أن يكون وجهاً، طبعت إلهة الابتذال طابعها، وفي شكل عنيف حتى كأن الأنف الذي فيه مسحوق تقريباً، والعينان الخفيفتان يبدو أنهما مرهقتان في البحث عن هذا الأنف. ولباسه على الزي (التوتوني) الذي أصابه التعديل حسب مطالب حضارة أوروبا الحديثة الملحة، ولكن تفصيله يذكرنا دائمًا بزي (آرمينيوس) الذي ارتداه في غابة (توتوبرج) والذي احتفظت بشكله الأصيل جمعية الخياطين الوطنية، حفاظاً على تراث سري مثلما احتفظ البناؤون بطراز العمارة الغوطية في جمعية صوفية من البنائين المعماريين. وهناك خرقة بيضاء تحيط بعنق عارية باهتة تغطي ياقة هذا اللباس الوطني. وهناك يدان طـويلتان تتدليان من أكمام هذا اللباس، وفي وسط الزي يسقط جسد طويل تترنح تحته ساقان صغيرتان. إن هذا الشخص يبعث حتى الموت صورة ساخرة لـ(أبولون بلفيدير).

ــ هنا تبدو لنا مغالطة أثينا الجديدة؟ كان ذلك سؤال البرليني في ضحكة تشنجية. ثم إنه، ياللرحمة مواطن لي. لم أكد أصدق عيني الجسديتين.. إنه تماماً ذلك الذي.... كلا.. أممكن هذا؟

واستأنفت في شيء من الحماسة.

ــ أجل، أنتم أيها البرلينيون العميان، أنتم لاتعرفون عبقرياتكم المحلية وترجمون أنبياءكم. أمّا نحن فعلى عكسكم، فنعرف الاستفادة من كل شيء.

ــ وأي استخدام تستخدمون هذه الحشرة المسكينة؟

ــ يمكن أن نستخدمها في كل مكان يجب أن يخصص للقفز، والجري، والإحساس وللنهم والشهية الطيبة وللتقوى، فيه كثير من الألمانية القديمة وقليل من

اللاتينية ولاشيء من اليونانية. إنه يقفز قفزاً جيداً على حاجز، ويقوم بعروض لكل القفزات الخيالية. ولثبت لجيمع ألوان القصائد باللهجات الجرمانية العتيقة. ثم إنه يمثل حب الوطن دون أن يكون خطراً على الإطلاق. ذلك أننا نعرف تماماً أنه عندما وجد مصادفة في وسط المجادلين التوتونيين، انسحب في الوقت المناسب عندما كانت قضيتهم تتعرض لبعض المخاطر، وكفّ عن الانسجام مع العواطف المسيحية في قلبه الرقيق. ولكن عندما زال الخطر، وكابد الشهداء العناء في الدفاع عن آرائهم. وعندما ترك أكثرهم عفواً آراءهم، وحتى عندما كفّ الحلاقون عندنا عن أخذ جعلهم التوتوني، عندئذ وفي اللحظة نفسها بدأ العهد الزاهر لصاحبنا الحذر منقذ الوطن، لقد احتفظ وحده بزي المجادلين التوتونيين، وكل الخطب التي هي جزء منهم، وأثنى على (آرمينيوس) الشيروسك وعلى السيدة (توسنيلدا) زوجته، كأنما كان واحداً من سلالتهم الشقراء. وهو يغذي في نفسه دائمًا كرها وطنياً جرمانياً ضد (بابل) الفرنسية، وضد اختراع الصابون وضد قواعد النحو اليوناني الوثني الذي وضعه (تيرش) وضد (كانتيليوس فاروس)، وضد القفازات، وضد كل الرجال الذين لهم أنوف محتشمة لائقة. وهكذا فهو يمثل أمامك أثراً خالداً لزمن غابر، ثم إنه مثل آخر (موهيكان) بقي وحده من كل تلك السلالة الوحشية الدموية، وهو نفسه آخر جدلي (توتوني) . أرأيتم، إذن أننا نستطيع في أثينا الجديدة التي ينقصها الجدليون يمكن أن نستخدم هذا الإنسان، إننا نجد فيه جدليا حسناً، هو في الوقت نفسه جد حلو المعشر حتى إنه يلعق كل ما يدفع إليه، وبما أنه فريد في نوعه فإننا، عندما يفطس بعد أجل، نملك هذه المزية الخاصة في أن نحشوه بالتبن وأن نحتفظ به للأجيال القادمة على أنه آخر جدلي بجلده وشعره، ومع ذلك أرجو أن تحترزوا من إخبار الأستاذ (ليشتنشتاين) من برلين بأمره، لأن هذا الاستاذ سيطالب به لمتحف الحيوانات في تلك المدينة، وربما أدى هذا إلى حرب بين (بروسيا) و(بافاريا) مع العلم أننا لانريد أن تنشب على كل حال. ومع ذلك فإن الانكليز قدروه حق قدره ودفعوا له ثمناً يبلغ ٧٧٧ جنيهاً انكليزياً، بل إن النمسويين أرادوا مبادلته بزرافة، ولكن وزارتنا ردت بأن المجادل الأخير لايُقدر بثمن، وأنه في يوم من الأيام سيصبح فقراً لقاعة التاريخ الطبيعي وكنزاً لمدينتنا.

يبدو أن (البرليني) استمع إلى حديثي في كثير من التسلية. ولفتت انتباهه أشياء أكثر جمالاً فقطع علي حديثي فجأة وقال: عفوك ألف مرة إذا قاطعتك، ولكن قل لي إذن على الأقل ما هذا الكلب الذي يجري هناك؟

ـ إنه كلب آخر.

ـ آه . أنت لاتفهم، أنا أتحدث عن ذلك الكلب الكبير في الحرير الأبيض والذي ليس له ذنب.

ـ يا عزيزي، إنه كلب (السبياد) الجديد.

وأستأنف البرليني كلامه:

ـ ولكن هل تستطيع أن تقول لي أين (آلسبياد) الجديد هذا؟

وأجبت:

ـ أقول لك فيما بيننا. إن المكان لايزال شاغراً في (أثينا) الجديدة، وليس لدينا حتى الآن إلا الكلب.

(٣)

المكان الذي دار فيه هذا الحوار يسمى (بوجنهوزن) أو (نويبر جهوزن) أو دارة (هومبش) أو حديقة (مونتجيلا) أو (شلوسيل). بل إننا لسنا في حاجة إلى تسمية عندما نريد أن نزوره من (مونيخ): إن صاحب العجلة يفهمك رأساً بغمزة من العيـــن أو بحركة من رأسك، أو بغير ذلك من التكشيرات ذات الدلالة.

إن هناك ألف كلمة تحت تصرف العربي للدلالة على السيف وتحت تصرف الفرنسي للدلالة على الحب، وتحت تصرف الانكليزي للدلالة على الشنق، وتحت تصرف الألماني للدلالة على العطش، وللاتيني الجديد للدلالة على الأمكنة التي يشرب فيها. الجعة طيبة حقاً في هذه المنطقة، بل نحن لانشرب أطيب منها حتى في مساكن القضاة التي تسميها العامة (بوكيّلر). مذاق تلك الجعة كامل الطيبة وخاصة على ذلك السطح ذي الدرج الـــذي يطلّ على جبال الألب في التيرول. طالما جلست هناك في الشتاء الماضي أتأمل تلك الجبال التي تكسوها الثلوج وتلتهب تحت أشعة الشمس فيخيل إليك أنها تجري في فضة صافية.

كان الشتاء يسود روحي أيضاً: كانت الأفكار والعواطف كأنها تختنق تحت تلك الثلوج. وحياة الإلهام يابسة ميتـة في نفسي. أضف إلى ذلك تلك السياسة المأساوية. والأسف الذي انتزعه موت مخلوقة رائعة، وبقايا حزن عتيق والزكام. ثم إني شربت كؤوساً كثيرة من الجعة. ومع ذلك فإن أحسن أنواع الجعة الأتيكية لم تستطع إثارة نشوتي أنا الذي كنت معتاداً على الجعة الانكليزية الثقيلة.

وأخيراً جـــاء اليوم الذي تبدل فيه كل شيء. الشمس اخترقت غيوم السماء

وغمرت الأرض. ولدها القديم، بلبن أشعتها. واهتزت الجبال طرباً وجرت دموع ثلجها غزيرة، وقمم الجليد في البحيرات جعلت تطقطق وتنهار وهي تذوب، وفتحت الأرض عيونها الزرقاء وانطلقت من صدرها الأزهار الولهى والغابات الرنانة والقصور المخضرة بالعنادل والبلابل. كل الطبيعة تبتسم، وهذه الابتسامة تسمى الربيع. ويبدأ أيضاً في نفسي ربيع جديد، وانبثقت من قلبي أزهار جديدة وعواطف للحرية كأنها الورود، ثم رغبات ناعمة كأنهار زنابق غضة، ولاشك أن بينها عدداً غير قليل من أشواك القريص المؤذي. لقد مد الأمل من جديد خضرته الضاحكة على قبور رغباتي الهامدة، لقد قضت نغمات شعري، مثل الطيور الرحالة الشتاء في مناطق خط الاستواء الحارة، وها هي ذي تعود لزيارة أعشاشها المهجورة في بلاد الشمال، وبدأ قلب بلاد الشمال الجامد يرن ويتحرك ويتفتح كما كان من قبل، ولكني أجهل كيف حدث ذلك. هل هي شمس شقراء أو سمراء هي التي أيقظت الربيع في قلبي وهل هي التي أدفأت بقبلاتها الأزهار المسترخية في هذا القلب، وأعادت الصوت إلى البلابل. أهي الطبيعة نفسها التي جاءت تبحث عن أصدائها في صدري وتتراءى فيه بضيائها الربيعي الجديد؟ لست أدري ولكني أعتقد أن قلبي قد استحوذ عليه هذا السحر الجديد وأنا جالس على السطح في (بوجنهوزن) أمام جبال الألب التيرولية.

هنالك عندما كنت أجلس مع افكاري كان يخيل إلي في كثير من الأحيان أنني أرى وجهاً جميلاً فتياً ينظر إلي من قمم جبال الألب. وكنت أتمنى أن تكون لي أجنحة لكي أطير إليه وألقاه في موطن إقامته، في ايطاليا. كنت أشعر في كثير من الأحيان أني تداعبني أنفاس الليمون والبرتقال التي تهبط وكأنها غيوم من الجبال، بكل ما فيها من غواية ووعود. لكي تغريني بالعودة إلى إيطاليا، بل إني ذات مساء وفي ذهب الغروب رأيت ذلك الوجه جلياً على قمة جبل ورأيت وجه إله الربيع الغني. كانت الازهار والغار تكلل رأسه الأغرّ وقال لي، وعينه تضحك وفمه متفتح: ــ أحبك تعال إلّي في ايطاليا.

(٤)

تستطيع عيناي إذن أن تبرقا برقاً خائراً في اليأس الذي ألقاني فيه حواري الذي لاينتهي مع البرليني، لقد اندفعت نظراتي نحو جبال (التيرول) الجميلة وجعلت أتنهد في عمق. ولكن البرليني الفرّيسي لم يرَ في هذه النظرات ولا في هذه

التنهدات إلّا مصدراً جديداً للحوار، وعندئذ ابتسم ترحيباً بصحبتي وقال لي: آه. نعم. أريد أن أكون أنا أيضاً في القسطنطينية. لقد كانت رؤية القسطنطينية دائماً أمل حياتي الوحيد! ولكن القسطنطينية الآن، واأسفاه قد دخلها الروس... هل رأيت سان بطرسبرج؟ وأجبته كلا ورجوته أن يحدثني بشيء عنها، ولكنه هو لم يذهب إليها في الصيف المنصرم، بل ذهب إليها أخو زوجته، المستشار القضائي، ويبدو أنها مدينة فريدة —

— هل رأيت (كوبنهاغن)؟ وأجبته بالنفي وطلبت وصفاً للمدينة فجعل يبتسم في نعومة، ويرجح — راضياً — رأسه هنا وهناك ويؤكد لي بشرفه، أني لا أستطيع أن أكوّن عنها فكرة إذا لم أزرها بنفسي، واستأنفت قائلاً: لايمكنني أن أقوم الآن بمثل هذه الزيارة، أريد أن أشرع في رحلة أخرى وضعت مشروعها هذا الربيع. أريد أن أسافر إلى ايطاليا. عندما سمع هذه الكلمات قفز فجأة على كرسيه واستدار ثلاث دورات على رجله ودمدم:

— تريلي.. تريلي... تريلي! كان ذلك آخر سهم في جعبة صبري. وقلت له: سأسافر غداً فوراً. لا أريد أن أتأخر. كان علي أن أرى في أسرع ما يمكن ذلك البلد الذي يستطيع أن يقذف أكثر الفرّيسيين غلظة في مثل ذلك الغضب والهياج، هذا الذي لم يكد يسمع اسم ايطاليا حتى جعل يدندن كأنه سمانّي أو دجاجة. وظلت نغمة هذه تريلي تريلي ترن دون انقطاع في أذني، وأنا منشغل في بيتي بإعداد حقائبي. وظل أخي مكسيميليان هاينه، الذي رافقني إلى الحدود لايستطيع أن يفهم لماذا لم أستطع طوال النهار أن أنطق بكلمة واحدة معقولة بينما أنا لا أكف عن الدندنة.

(٥)

تريلي! تريلي، أنا أعيش، أنا أحسّ بألم الوجود العذب، أستشعر كل الأفراح، كل أفراح العالم، أتألم من أجل سلام الجنس البشري. أكفّر عن خطاياه ولكني مع ذلك أتمتع بها.

وليس هذا الفرح بالناس فحسب بل هو كذلك بالنباتات التي أعطف عليها، هذه الفئة من النباتات تقصّ علي بألف لسان أخضر من ألسنتها حكايا ساحرة رائعة. تعرف أني لست إنساناً متعجرفاً، وأني أُسرّ بالحديث مع هذه الأزهار المتواضعة في البراري مثلما أُسرّ بالحديث إلى أشجار السرو والصنوبر الباسقة.

واأسفاه أنا لا أعرف كثيراً عن هذه السروات الباسقات! إنها تنطلق من أعماق الوادي لتبلغ الغيوم، وتتجاوز القمم الهوائية الجزئية، ولكن ما أقسى هذه العظمة؟! كل ذلك لايمتد إلاّ قروناً معدودة، ثم تهوي بعدها وقد أرهقتها الشيخوخة، فإذا هي تتفسخ فوق التراب. ثم إن الغربان والبوم في الليل تخرج منها من جحورها وتضيف بذلك إهانة إلى مصيبتها:

ـ أنظري أنتِ أيتها السروة التي كنتِ فخورة متكبرة، كنت تتصورين أن تنافسي الجبال، وها أنت ذي مطروحة متحطمة في الوادي. وتظل الجبال دائمًا واقفة راسخة.

كان هنالك نسر يتسلق صخرته العزيزة الوحيدة فسمع هذه السخرية القاسية فكان عليه أن يغرق في تأملات لاذعة واخزة. إنه يفكر في المصير الذي ينتظره هو نفسه. إنه لايعرف كذلك في أية حفرة سوف يُلقى في يوم من الأيام. ولكن النجوم ترسل إليه اشعاعات مطمئنة، ومياه الغابات تجري وتبعث إليه بدمدمات فيها عزاء، وانسجام روحه الفخور يغطي بأجنحته وفي قوة صوت هذه الأفكار السوداوية فلا يلبث أن ينساها. وما تكاد الشمس تشرق حتى يجد نفسه قوياً كما كان دائمًا، فإذا هو يحلق نحو نجمته، فإذا بلغ حاجته من السمو والتعالي جعل يغنيها أفراحه وآلامه. إن رفاقه من الحيوانات. ولاسيما الناس، يعتقدون أن النسر لايستطيع الغناء، ولايعلمون أنه لايغني إلاّ إذا كان بعيداً عن متناول أيديهم، وأنه يملك من الكبرياء ما لا يريد معه أن يسمعه أحد من الكائنات إلاّ الشمس. وهو على حق فيما يفعل. فقد يخطر في بال واحد من العرق المنتوف الريش أن يحكم على غنائه. أنا نفسي، أعرف بالتجربة ما يقوله أمثال هؤلاء النقاد: الدجاجة تقف على قدم وتقوقن بأن المغني ليست له روح، الطاووس يصيء بأن الجدية الأصيلة تنقصه، الحمامة تهدل أنه لايعرف الحب الصميمي. الوزة تصيح أنه ليس عالماً بما فيه الكفاية، الطير الخصي يعلن بصوته الحاد أنه عارم الشهوة، الصعوة تتهمه بفقدان العقيدة فقداناً تاماً، الطيور الجاثمة تصفر بأنه ليس خصباً خصوبة كافية، الهداهد والعقائق والطيور التي تزق كل هذه الأنواع من المخلوقات تزقزق وتئن وتلثغ... العندليب وحده لا يشترك صوته في هذه الانتقادات؛ لايبالي بسائر العالم، فكرته الوحيدة اغنيته الوحيدة منصرفة إلى تلك الوردة الأرجوانة، يحيطها برفرفته الولهى، ويهرع ملتهباً خلال الأشواك العزيزة وينزف دماً ويغني

(٦)

. . . .

عند الظهر تماماً دخلت مدينة (اينسبرغ). (اينسبرغ) ذاتها مدينة غير صالحة للسكن وكئيبة إلى حد ما. وربما كان منظرها أكثر روحاً وأطيب في الشتاءعندما تكون الجبال التي تحيط بها مكللة بالثلج. وعندما تكون الشلالات مدوية، والجليد يفرقع ويشع في كل ناحية.

وجدت هذه الجبال رأساً يضم الغيوم كأنه لها عمامة شهباء. هناك نرى صخرة القديس (مارتان) وهي مسرح أحلى أسطورة ملكية. كما أن ذكرى الفارس (ماكسيميليان) تزدهر وترن في أوج حياتها في أرجاء (التيرول). وفي الكنيسة في الساحة تقوم التماثيل المشهورة لأمراء وأميرات البيت المالك النمسوي ولأسلافهم. وبينهم عدد ما نزال في حاجة إلى أن نفهم كيف بلغوا هذا المجد. كانت التماثيل أضخم حجمًا من الحجم الطبيعي، مصنوعة من الحديد ومصفوفة حول قبر (مكسيمليان) ولكن، بما أن الكنيسة صغيرة وسقفها قليل الارتفاع فأنت تظن أنك ترى وجوهاً سوداً من الشمع في ردهة معرض. وتقرأ عند أقدام هذه التماثيل أسماء الشخصيات الحكيمة التي تمثلها. بينما كنت أتأمل هذه التماثيل جاء بعض الأنكليز: رجل نحيل ذو وجه ذاهل، أصابعه تتشبث بأطراف صداره الأبيض ويمسك بين أسنانه بدليل السياحة. ووراءه زوجته الطويلة وهي امرأة في زهرة انحطاطها، ولكن فيها من الضخامة ما يكفيها، ووراءها وجه أحمر لحمال على ياقة بيضاء من المساحيق، يمشي قدماً في لباس مثله، وذراعاه من الخشب محملتان بقفازات للسيدات الانكليزيات الكريمات المحتد وبأزهار جبال الألب، وبكلبها الصغير.

هذا الركب صعد بعضه وراء بعض حتى القسم الأعلى من الكنيسة، وشرح ابن (البيون) لرفيقته هذه التماثيل، يعني أنه قرأ في دليل السياحة ما يلي: التمثال الأول للملك (كلوفيس) ملك فرنسا. والتمثال الثاني للملك (أرثور) ملك انكلترا، والتمثال الثالث للملك (رودلف) ملك آل (هابسبرغ) إلخ. . . . ولكن الانكليزي المسكين، وقد بدأ قراءة الدليل من أعلى لا من أسفل كما يعرض الدليل فقد وقع في مغالطات مضحكة أصبحت أكثر إثارة للضحك عندما وصل إلى تمثال امرأة جعلها رجلاً، وعكس ذلك كان، حتى إنه لم يفهم لماذا كان (رودلف) من آل (هابسبرغ) يمثل وهو لابساً جبة؛ بينما كانت الامبراطورة (ماري) تلبس لباساً من

سراويل حديدية، ولها لحية طويلة إلى حد ما. وأنا الذي أقدّم طائعاً معلوماتي لاحظت أن ذلك قد يكون من متطلبات الزي في ذلك العصر أو أن الشخصيات الحكيمة قد طلبت أن تلبس هذه الألبسة، لاغير وهكذا يمكن أن نحسد الامبراطور الحالي إذا مثل وهو يحمل سلة أو يلبس سروال سباحة... وإذن فمن يستطيع الاعتراض؟

كان الكلب ينبح نباحاً مستنكراً، وفتح الخادم عينيه الواسعتين، وحك السيد أنفه، وقالت السيدة: يا له من معرض فخم، عرض فخم حقاً.

(٧)

كانت مدينة (بريكسان) المدينة الثانية من حيث الكبر في (التيرول) هي المدينة التي دخلتها. تقوم المدينة في وادٍ وعندما وصلت إليها كان يغطيها البخـار وظلال المساء. وفي هدوء الغروب هذا يهتز رنين الأجراس الكئيب، وتعود قطعان الأغنام إلى زرائبها، ويذهب الناس إلى الكنائس، وفي كل مكان تفوح رائحة كـريهة للقديسين البشعين، وللقش اليابس. قال لي سلفاً (هيسبروس): ــ الجـزويت يقطنون (بريكسان)، وقد بحثت عنهم حولي في الشوارع ولكني لم أجد واحداً يشبه الجزويتي. إلاّ إذا كان هذا الرجل الضخم الذي يلبس قبعة كنسية مثلثة الزوايا، وحلة سوداء من لباس الكهان، عتيقة مرقعة تناقض كثيراً سراويله السوداء ا لجديدة اللامعة. وقلت لنفسي: لايمكن أن يكون هذا الرجل جزويتياً، لأني تصورت أن الجزويت ضامرون نحيلون إلى حد ما، ثم ألا يزال هنالك جزويت حقاً؟ لقد اعتقدت غالباً أن وجودهم لم يكن إلاّ كابوساً، وأن الخوف الذي نضمره في قلوبنا منهم هو الذي يعود إلى أدمغتنا، حتى بعد أن انقضى خطرهم، وكل هذا الكره للجزويت يذكرني بأولئك الناس الذين يسيرون في الشوارع ويحملون المظلات حتى بعد انقطاع المطر منذ أمد بعيد. نعم إنه يخيل لي أحياناً أن الشيطان، وطبقة النبلاء، والجزويت لايوجدون إلاّ إذا اعتقدنا بوجودهم. أما الشيطان فأمر مؤكد لأن المؤمنين هم الوحيدون الذين رأوه حتى الآن. وأما ما يتعلق بطبقة النبلاء فنحن نؤكد خلال فترة ما أن المجتمع الطيب لن يكون مجتمعاً طيباً منذ كفت البرجوازية الباسلة عن طيبتها في أن تعتبره مجتمعاً طيباً. أما الجزويت فنحن على أقل تقدير حصلنا على كسب كبير حين كفوا عن لبس سراويلهم العتيقة. إن الجزويت القدماء يرقدون في قبورهم مع سراويلهم العتيقة ونزواتهم وخططهم العالمية ومناقشاتهم وامتيازاتهم،

وممنوعاتهم وسمومهم، وما نراه يجري في العالم مع سراويل جديدة مرقشة أدنى إلى أن يكون شبحهم لا فكرهم، وهو شبح هزيل غبي، اتخذ مهمته كل يوم في أن يبرهن لنا بالكلام وبالافعال كم هو يستدعي عدم الخوف منه أو قلة الخوف منه. ثم إنه في الواقع يذكرنا بقصة أحد العائدين من هذا النوع إلى غابة (تورينغ) التي تنقذ الناس الذين يخافون منه من كل خوف، والتي، وهي تقطع رأسه من فوق كتفيه في تهذيب شديد، تثبت لهم أنه فارغ أجوف في داخله.

لا أستطيع أن أمتنع عن الحديث عن كيف وجدت المناسبة لمراقبة الرجل الضخم ذي السراويل الجديدة اللامعة، مراقبة عن قرب، وعن الاقتناع بأنه لم يكن من الجزويت، ولكنه رأس عادي من بهائم الله. كان ذلك في قاعة الطعام في الفندق. صادفته يذهب إلى العشاء يرافقه رجل طويل نحيل يدعونه «صاحب العطوفة» ويشبه ذلك الرجل المهذب الأعزب الذي صوره (شكسبير) والذي قيل لنا إن الطبيعة قد ارتكبت فيه سرقة من سرقاتها. لقد دبر الاثنان عشاءهما بارهاق الخادمة، وهي في الحق بنت فاتنة بمداعباتهم التي يظهر أنها لم ترق لها كثيراً، حتى إنها كانت تتخلص في جهد عندما كان أحدهما يربت على عجيزتها وكان الآخر يريد عناقها. وعندئذ أفرغوا كل جرابهم في أشد الوقاحات فظاظة وهما يعرفان أن الفتاة المسكينة لاتستطيع الخلاص منها لأنها مجبرة على البقاء في القاعة لخدمتي وخدمة بقية الزبائن. ومع ذلك فقد أصبحت هذه الوقاحة لاتطاق، فتركت كل شيء، ونجت بنفسها، وعادت بعد دقائق وهي تحمل على ذراعها طفلاً صغيراً احتفظت به طول الوقت رغم أنه كان يعوقها في خدمتها. وعندئذ لم يسمح الرفيقان لأنفسهما بالاعتداء على عفاف الصبية التي كانت تخدمهما دون كراهية ولكن في جدية صارمة نادرة. وعاد الاثنان إلى ذلك الجدل الخالد حول المؤامرة الكبرى على العرش والتاج واتفقا على ضرورة القيام بتدابير قاسية، وصافح أحدهما الآخر مرات دليلاً على الحلف المقدس بينهما.

(٨)

مؤلفات (جوزيف دو هورمير) لايستغنى عنها في دراسة تاريخ الـ (تيرول). بل إنها حتى في أيامنا هذه أحسن المصادر بل لعلها المصدر الوحيد.

إن كتاب (حرب فلاحي التيرول عام ١٨٠٩) لكاتبه (بارتولدي) كتاب جيد كتب في رصافة وتعقل، وإذا كنا نجد فيه بعض النواقص فهي ناتجة بالضرورة من أن

هذا المؤلف، نتيجة للضعف النبيل القائم في الأشخاص ذوي القلوب. يؤثر إيثاراً خاصاً الجانب المغلوب، ولأن دخان البارود كان ما يزال يغطي الحوادث حين كان يصفها ويؤلف كتابه. كثير من الوقائع العظيمة في ذلك العهد لم يجرِ التقاطها وبقيت تعيش في ذاكرة الشعب الذي لايتحدث عنها الآن في سرور لأنها تذكره بكثير من الآمال الخائبة. ثم إن التيروليين الفقراء عانوا كل ألوان التجـــارب، وعندما تسألهم ماذا جنوا على إخلاصهم من مكافأة ومن كل ما وعدوهم به في أيام الخطر، هزوا في بساطة أكتافهم وقالوا في براءة إنهم لايعيرونهم الاهتمام الكافي وأن الامبراطور مشاغله وأفكاره كثيرة وأنه تفوته كثير من الأمور.

تعزوا إذن أيها الشياطين المساكين. فلستم وحدكم الذين تلقوا الوعود. طالما حدث في المراكب الكبيرة النقالة للعبيد. وخلال العواصف المدمرة وعندما يكون المركب في خطر الهلاك، يلجأ أصحابه إلى الاستغاثة والاستنجاد بالرجال السود الذين يتكومون في قعر السفينة، وأن يعدوهم بردّ حريتهم إليهم إذا نجحوا بحماستهم ونجدتهم في إنقاذ المركب. ويهرع السود الفقراء البسطاء، وقد أفعمتهم الحماسة والنشاط تحت نور الشمس ويمسكون بالمضخات ويزيحون الماء بقواهم ويساعدون حيثما تقتضي الأمور المساعدة، ويقفـزون وينطون ويلفـون الأشرعـة ويكسرون السواري ويظلون يعملون حتى يزول الخطر. وعندئذ يقودهم أصحاب المركب، دون نقاش، مرة أخرى إلى قعر المركب ويربطونهم من جديد ربطاً محكماً ويتركونهم في سجنهم المظلم يستسلمون إلى تأملاتهم الجدلية الفارغة حول الوعود التي قطعها لهم تجار الأرواح، الذين تظل غايتهم الوحيدة، بعد زوال الخطر أن يحتكروا أكثر مما احتكروا من أرواح الناس.

عندما كان أستاذي يشرح هذه المقطوعة من (هوميروس) ويشبه فيها الدولة بمركب، كان دائماً يبدي بعض الملاحظات السياسية التي قطعها عندما نشبت معركة (ليبزيغ) وعندما تفرق كل الصف في المدرسة. لقد عانى أستاذي العجوز كل شيء. عندما تلقينا أول نبأ عن هذه المعركة، هز رأسه الأشيب وعرفت الآن ماذا كان يريد أن يقول. وبعد ذلك جاءت التقارير المفصلة، وكانت الصور الملونة التي تمثل في جفاء كبير رؤساء الجيوش العادلين وهم يركعون في ساحة المعركة ويحمدون الله، كانت هذه الصور تتداول في شكل سري.

قال أستاذي: نعم إنهم يحمدون الله، ثم يضحك كما كان يضحك عندما يشرح (سالوست) طالما غلبهم نابليون حتى استطاعوا أخيراً أن يتعلموا المهنة.

وجاء بعد ذلك الحلفاء والأشعار الرديئة الخاصة بالإنقاذ، هيرمان وتوسنيلدا، مرحى! وجمعية السيدات الوطنيات وعقد الأغلال الوطنية والعجرفات التي لاتنتهي عن معركة (ليبزيغ)، ثم عن معركة (ليبزيغ) دون راحة ودون انقطاع.

قال أستاذي: ـ: يحدث لهؤلاء الناس، ما حدث لأهل طيبة عندما غلبوا في (لوكترس) أبناء (اسبرطة) الذين لايغلبون، فكانوا لايكفون عن تبجحاتهم حول هذه المعركة، وعما يدور حولهم في (آنتيستين) حتى لقد كانوا مثل الأطفال الذين يشعرون بالسرور عندما يشبعون معلمهم ضرباً مصادفة. وا أسفاه يا أولادي المساكين. لقد كان خير لنا لو تلقينا نحن الضربات!ـ

مات الرجل الطيب العجوز بعد أمد يسير. ونمت على قبره أعشاب بروسية، ترعاها الخيول النبيلة للفرسان الذين بُعثوا للحياة من جديد.

(٩)

في سكان التيرول جمال ومرح ونزاهة وشرف وفكر محدود فيها وراء كل فكرة. إنهم من عرق وافر الصحة وربما كان ذلك لأنهم أكثر حمقاً من أن يقعوا مرضى. وأنا أسميهم مختاراً بأنهم عرق نبيل، لأنهم يبدون رهافة كبيرة في اختيار غذائهم. ونظافة شديدة في عاداتهم. ولكن شيئاً واحداً ينقصهم هو الشعور بالكرامة. التيرولي ذو نزعة إلى استخدام نفسه في ضحك ومزاج طيب ربما كان يحوي أثاره من السخرية، ولكنه مع ذلك واقعي كثير الجد. والنساء التيروليات يحيينك في صداقة وترحاب، والرجال يشدون يدك في قوة ويدمدمون في مودة ريفية خالصة حتى إنك يمكن أن تتصور أنهم يعاملونك وكأنك قريب قريب، أو أنك على أقل تقدير، مساوٍ لهم، ولكنهم لا ينسون أبداً، رغم ذلك أنهم رجال بسطاء صغار وأنك سيد كما يجب أن يكون السيد. يرى دون شك، وفي غير رضى أن الناس الصغار يضعون أنفسهم دون خجل في الموضع الذي هم فيه. وهم يفعلون ذلك مدفوعين بغريزة طبيعية جد صحيحة. إن أكبر الارستقراطيين تكبراً يشعرون أنهم مفتونون إذا وجدوا فرصة يخفضون فيها من كبريائهم ويتنازلون عن مستواهم، لأن ذلك نفسه يشعرهم بمدى ما هم عليه من رفعة. وفي بلدهم يمارس التيروليون هذه العبودية مجاناً، ولكنهم يبحثون عن أن تكون مصدراً للربح عند الاجنبي. إنهم يتعاملون بشخصيتهم وبوطنيتهم. إن هؤلاء الباعة للأغطية الذين يقبعون في زيهم الوطني، وأولئك الغلمان التيروليين، يتيحون لك مختارين أن تتمتع بنكتة، ولكن شريطة أن تشتري منهم شيئاً. وأسرة

(رينر) التي ذهبت إلى انكلترا تفهم أكثر من غيرها هذا النوع من الاختصاص والاحتكار، ثم إنهم علاوة على ذلك يملكون مستشاراً نصيحاً يعرف تماماً عقلية الطبقة النبيلة الانكليزية. وهذا هو الذي يمهد لهم لقاء طيباً واستقبالاً حسناً في منازل الارستقراطية الأوروبية in the West end of the town. عندما رأيت في الصيف الماضي، وفي قاعات الموسيقى اللامعة في عالم لندن المسحور، عندما رأيت هؤلاء المغنين التيروليين، وهم يلبسون زيهم القومي، يمتطون الزحافات، ويجأرون بأغانيهم التي ترن نغمتها في كثير من البساطة والودّ في جبال الألب التيرولية، والتي تجد صداها المحبوب في نفوسنا نحن ألمان الشمال، شعرت أن قلبي يكاد يختنق بغيظ مرّ. كانت ابتسامة كل هذه الشفاه المتميزة تقرضني كأنها الأفاعي: وكأني سمعت إهانة البراءة في الكلمة الألمانية في غلاظة كأن أعذب أسرار إحساسنا القومي قد ذبلت ودُنّست أمام جمهور أجنبي. لم أستطع أن أصفق كالآخرين لهذه التشويهات الوقحة لكل ما لدينا من طهر وبراءة. ورأيت رجلاً من سويسرا، وكأنما استُفزّت مشاعره كذلك يغادر القاعة في الوقت الذي أغادرها فيه ويقول لي في كثير من الصواب: نحن أهل سويسرا نعطي دون شك كثيراً من الأشياء لقاء المال، أصفى ما فينا من دماء وأحسن ما عندنا من أجبان، ولكننا لانطيق إلا في صعوبة أن نسمع رنين أغاني الأبقار خارج بلادنا، ولانطيق أكثر من ذلك أن نرن بها نحن لقاء المال.

(١٠)

التيرول جميلة جداً ولكن أجمل المناظر لاتستطيع سحرنا عندما يكون الطقس والروح كئيبين. ومزاج هذا نتيجة لمزاج ذاك، وإذا كان الطقس ماطراً في الخارج كان طقس القلب سيئاً. ومع ذلك كنت أمدّ رأسي من حين إلى حين خارج البوابة وأتأمل الجبال الشامخة التي كانت ترمقني من جديد وكانت تتمنى لي رحلة سعيدة وهي تنحني نحوي بذقونها الطويلة من الغيوم. كنت أرى هنا وهناك جبلاً صغيراً أزرق من بعيد كأنه يقف على أخمص قدميه وينظر في فضول من فوق أكتاف الجبال الأخرى لكي يراني دون شك. وفي كل الجهات تجري سواقي الغابات متدفقة في جنون من المرتفعات وتسرع لتختلط بسيول الأودية القاتمة. والناس يقفون في نجدة خلف بيوتهم النظيفة الجميلة، المتشبثة هنا وهنالك بسفوح التلال والمرتفعات الصعبة حتى تصل إلى القمة، إنها بيوت نظيفة طليقة تحيط بها عادة ردهة طويلة كأنها شرفة تزينها ثياب مغسولة على امتدادها وصور للقديس وأصص للأزهار وابتسامات الصبايا، وهذه البيوت مدهونة دهاناً جميلاً يغلب عليها اللون الأخضر والأبيض، كأنها تحمل

هي أيضاً الطابع القومي: حمالات خضراء على قمصان بيضاء. كانت أفكاري وأنا أرى هذه المنازل في وسط هذه الوحدة الماطرة تجذبني نحوها وأريد أن ألقى هؤلاء الناس الذين يجلسون هناك تحت السقوف في راحة لايصيبهم المطر. وأقول لنفسي: ـ آه. ينبغي أن تكون الحياة هنالك جدّ عذبة وجدّ حميمة، هنالك تقص الجدة العجوز أعجب الحكايات. كنت، والعجلة تمر غير عابئة أعود بنظري إلى الوراء لأرى أعمدة الدخان الأزرق تمتد من المدافىء الصغيرة والمطر يزداد كثافة في الجو وفي نفسي حتى كادت قطرات الماء تهطل من عيني.

طالما سما قلبي أيضاً ورغم الطقس السيء وتسلق نحو الناس الذين يسكنون هناك عالياً في الجبال والذين لايهبطون منها إلا مرة واحدة طوال حياتهم، ولايعرفون ما يجري هنا على هذه الأرض. وهم مع ذلك ليسوا أقل تقوى ولا أقل سعادة. أما في السياسة فهم لايعرفون منها شيئاً إلا أن لهم إمبراطوراً يلبس ثياباً بيضاء وسراويل حمراء. ذلك ما قصه عليهم ذات يوم العم العجوز الذي سمعه بدوره في (انسبرغ) من (سيبرل الأسود) الذي زار (فيينا) وعندما كان الوطنيون يصعدون إليهم ويخبرونهم في بلاغة واضحة أنهم أعطوهم الآن أميراً يلبس ثياباً زرقاء وسراويل بيضاء، كانوا يمسكون ببنادقهم ويقبلون نساءهم وأطفالهم ويهبطون من جبالهم ويحاربون حتى الموت من أجل الثياب البيض والسراويل الحمراء العتيقة العزيزة. الحقيقة أن الإنسان حين يموت لايهمه لون الشيء الذي يموت من أجله، ما دام يموت في سبيل ما يحبه. ومثل هذه الميتة الساخنة المخلصة خير من حياة باردة دون إيمان. الأغاني التي تمجد مثل هذه الميتة، الأنغام الحلوة والكلمات اللاهبة تكفي لبعث الدفء في قلوبنا حين يكون الهواء رطباً بالغيوم وحين يريد القلق أن يفرض عليه القتام.

كان كثير من هذه الأغاني تهتز في قلبي وأنا أجول خلال جبال التيرول. وغابات الصنوبر تعيد إلّي بتمتماتها عدداً كبيراً من كلمات الحب التي ضاعت في زاوية النسيان. وكنت أحياناً عندما تنظر إلّي البحيرات الزرقاء، وكأنها عيون كبيرة مفعمة بآمال لايسبر لها غور، أفكر في الطفلين اللذين يحب أحدهما الآخر حباً عميقاً ويموتان معاً. إنها قصة جدّ قديمة لا يؤمن بصحتها اليوم أحد، ولكني أنا نفسي لا أحفظ منها إلا أبياتاً متفرقة:

كان هنالك ولدان لملكين
يحب أحدهما الآخر حباً رقيقاً
وكانا لايستطيعان التلاقي

لأن الماء بينهما عميق جداً

بدأت هذه الكلمات تدندن في نفسي عفواً وأنا أمر بهذه البحيرات الكبيرة وأرى على ضفة إحدى هذه البحيرات غلاماً صغيراً وعلى الضفة الأخرى صبية صغيرة، وكلاهما يلبس لباساً أنيقاً وزياً وطنياً مخططاً، وقبعتاهما خضراوان محددتان لهما ذوائب: كانا يتبادلان ويعودان يتبادلان التحيات...

كانا لا يستطيعان التلاقي
لأن الماء بينهما عميق جداً

(١١)

صحّ الطقس في التيرول الأوسط، وبدأت شمس إيطاليا تشعرنا باقترابها، وأصبحت الجبال أكثر دفئاً وأشد لمعاناً وصوتاً، ورأيت أشجار الكرمة تندفع وتنمو وأصبحت أكثر ظهوراً عند البوابة. وعندما كان رأسي يطل من العجلة كان قلبي يتبع رأسي، ويتبع قلبي كل ما فيه من حب وكآبات منطلقة ومن جنون، ما أكثر ما حدث لي أن يترك قلبي نفسه ليتمزق بالأشواك وهو يدنو من أجمات الورد على طول الطريق، وورد التيرول ليس قبيحاً. عندما كنت أمرّ بـ(ستيناش) وأرى السوق التي ذكرها (اميرمان) في قصته عن صاحب الفندق (اندره هوفر) وأصدقائه رأيت أن هذه السوق كانت صغيرة جداً لتضم اجتماعاً للثوار. ولكنها كانت مع ذلك كبيرة إلى حد يجعلني محباً لها. لم تكن هناك إلا بعض البيوت الصغيرة البيضاء. وفي نافذة صغيرة تقف ثائرة صغيرة تترقب، وترسل من عينيها الكبيرتين ناراً لاهبة، لو لم تكن العجلة مسرعة، ولو أنها وجدت من الوقت ما يتيح لها أن تسدد إلي نظرتها لوقعت في الفخ وأصابتني. يجب أن أعترف هنا، بصفتي مسافراً ذا وجدان، أن السيدة صاحبة فندق (ستيرزينك) هي في نفسها امرأة عجوز، ولكن لها مقابل ذلك بنتين صبيتين تدفئان لك قلبك دفئاً طيباً عندما تكون نزيل فندقها. ولكني لا يجوز لي أن أنساك، أنت يا جميلة الجميلات أيتها الحائكة على حدود ايطاليا. أوه ألستِ أنت التي أعطيتني، مثلما أعطت (آريان) لـ(تيزي) خيط مغزلك لكي ترمي بي، من ثمّ، في متاهات هذه الحياة. لقد انتصر (المينوتور) الآن، وأنا أغمرك بالقبل كيلا أفارقك أبداً.

قال أحد الكتاب الصينيين: علامة طيبة أن تبتسم السيدات. ويوافق كاتب ألماني تماماً على هذا الرأي عندما مر في التيرول الأوسط الذي تبدأ به أيطاليا أمام جبل ووجد عند سفحه على تل قليل الارتفاع بيتاً من هذه البيوت الصغيرة التي تحدق فيك

في شكل محبوب بباحته العزيزة وألوانه البهيجة، وفي نهايته يرتفع صليب من الخشب يدعم دالية. وإنه لأمر عذب إلى درجة مخيفة أن ترى كيف تعانق الحياة الموت، وكيف أن حضرة هذه الدالية الزاهية تضم الجسد الدامي والأعضاء المصلوبة للسيد المخلّص. وفي الزاوية الثانية يقوم ركن للحمام تملؤه يمامات وطيور تطير وترفرف هنا وهنالك. كانت هنالك حمامة بيضاء بياضاً عجيباً تنحني على طرف سقف البيت الجميل، تتقدم وكأنها مفتاح قبة يقوم في شباكها قديس، نحو رأس الحائكة الجميلة. كانت هذه الصبية جالسة في الردهة الصغيرة وتغزل، على حسب الطريقة الألمانية ذات الدولاب، ولكن حسب تلك الطريقة العتيقة التي تكون فيها الكبة، وقد أثقلها الغزل، تحت الذراع، ويكون فيها الخيط يجري حراً في مكوك معلق.. هكذا كانت تغزل بنات الملوك في اليونان، وهكذا تغزل فتيات (بارك) وكل الايطاليات. كانت تغزل وتبتسم، وفوق البيت ترتفع الجبال العالية التي تلهب أشعة الشمس قممها الثلجية، فكأن هذه الجبال حراس قائمون من العمالقة على رؤوسهم خوذ من الفولاذ. كانت تغزل وتبتسم وخيل إليّ أنها تغزل بخيطها قلبي بينما كانت العجلة تسير في بطء بسبب عرض سيل (ايزاش) الذي يفيض على الجهة الثانية من الطريق. ظلت ملامحها الفاتنة تلازم فكري في عناد طول اليوم، وكنت أرى في كل مكان وجهها اللطيف وكأنما صاغه مثّال يوناني من عطر وردة بيضاء وكأنما نسمة هواء خفيفة، رؤيا نبل إلهي، كما لو أنه حلم بها في ريعان شبابه في ليلة ناعمة من ليالي الربيع. أما عيناها فما كان يمكن ليوناني أن يحلم بها فكيف يفهمها. لقد رأيتها أنا وفهمت هاتين النجمتين الرومانطيقيتين اللتين تنير النيران السحرية هذا الجمال القديم. ظللت طوال النهار أرى هاتين العينين وحلمت بهما في الليلة التالية. كانت ما تزال تجلس وتبتسم، والحمامات ترفرف هنا وهناك. كأنها ملائكة الحب، والحمامة البيضاء تغرد جناحيها على رأسها في شكل غريب؛ ووراءها يرتفع في وقار أولئك الحراس مع خوذهم الثلجية، وأمامها تندَفع الساقية أكثر غضباً وحنقاً، وأغصان الدوالي تعانق في شوق غريب صورة الصليب الخشبي، والمصلوب يفتح عينيه الموجعتين وينزف دمه من كل جراحه... ولكنها ظلت تغزل وتبتسم، وفي طرف خيطها يتعلق قلبي ويقفز كأنه مكوك.

(١٢)

كلما كانت الشمس يزداد نورها جمالاً، وتصبح أكثر قدرة في رحاب السماء وتغلف بستائرها الذهبية القصور والجبال كان قلبي يصبح أكثر دفئاً وأكثر تفتحاً، وامتلأ

صدري مرة أخرى بأريج الأزهار التي بدأت براعمها القوية تشق طريقها خارج البيت وترتفع أغصانها فوق رأسي، وفي وسط أزهار خيالي ترتفع تلك الغزّالة الجميلة بابتسامتها السماوية. وصلت إلى ايطاليا تهدهدني مثل هذه الأحلام، وأنا مثلها حلم، وخلال الطريق طالما نسيت أني ذاهب إلى ايطاليا، ولذلك كنت خائفاً تقريباً عندما وجدت نفسي فجأة وجهاً لوجه أمام هاتين العينين الايطاليتين الواسعتين، وعندما هرعت نحوي تلك الحياة الايطالية شخصياً بألف لون من ألوانها وألف لون، ملتهبة مرتعشة.

وهذا ما حدث لي في مدينة (ترانت) التي دخلتها بعد ظهر يوم أحد جميل حين خفت الحرارة، وحين هبّ الايطاليون ليتسكعوا في الشوارع. هذه المدينة العجوز المتكسرة تقوم وسط حلقة عريضة من الجبال الخضراء الندية، كأنها، مثل الآلهة الشباب إلى الأبد تلقي نظرات رحمة وشفقة على العمل الانساني المتهدم. وقبع إلى جانب المدينة ذلك القصر الفخور الذي كان يطل على المدينة متكسراً متهدماً، كأنه بنيان أسطوري من زمن أسطوري مع مراتبه ورفوفه وشرفاته ومع برج عظيم مستدير، لايسكنه الآن إلا الغربان والبوم والعجزة النمسويون. والمدينة نفسها بنيت بطريقة أسطورية، وتدهشك عند اللمحة الأولى هذه البيوت اللمباردية العتيقة بزخارفها الخامدة وصور القديسين المشوهة، ومراقبها ونوافذها ذات القضبان. وجبهاتها المتقدمة كأنها في معرض تمسك بها أعمدة لونها عمرها بلون رمادي أنهك قواها، فكأنها هي نفسها في حاجة إلى من يدعمها. مثل هذا المنظر أقرب إلى إثارة الوجع لو لم تكن الطبيعة تغطي هذه الأحجار الميتة بحياة جديدة ولو لم تكن الدوالي الرشيقة تضم بأذرعتها الرشيقة المداعبة هذه الأعمدة المترنحة، كما يدعم الشباب الشيخوخة، ولو لم تكن على الخصوص وجوه الفتيات الصبيحات التي هي أكثر رقة وحدباً تتراءى مترصدة وراء أقواس تلك النوافذ القاتمة وتضحك من هذا الألماني الجديد المسافر الذي يمضي مثل حالم يسير وهو نائم ويتخبط خلال هذه الخرائب المزدهرة.

كنت حقاً كأني في حلم. في حلم أبحث فيه عن تذكـر ما كنت أحلم به ذات مرة. كنت أحدق في المنازل مرة بعد مرة وفي الناس وخيل إليّ أني رأيت هذه المنازل في أيام أخرى كانت خيراً من هذه الايام، عندما كانت ألوانها الجميلة تشع غضاضة وعندما كانت زخارفها المذهبة في إطارات النوافذ لم تسدّدها الأيام، وعندما كانت العذراء الرخامية، وطفلها على ذراعيها، ماتزال تحتفظ برأسها المدهش الذي حطمه

الزمان القاسي بشكل عنيف. وأوجه السيدات العجائز بدت لي أيضاً وكأني أعرفها جيداً، وجعلتني أشعر وكأني قطعتها عن أقمشة الصور القديمة الايطالية التي رأيتها وأنا طفل في معرض (دوسيلدروف). وبدا لي الرجال الكهول وكأنهم معارف قديمة نسيتها من زمن بعيد، تنظر إلي في عيون جادة وكأنها تنظر من أعماق القرون. بل إن الفتيات الرشيقات الأنيقات بدون لي وكأن فيهن شيئاً من الملامح العتيقة، من موت قديم، وفي الوقت نفسه وجدت فيهن شيئاً يُبعث من جديد حتى إني شعرت برجفة تهزني، ولكنها رجفة حلوة مثل تلك التي شعرت بها سابقاً عندما كنت أقبّل في ساعة من ساعات نصف الليل شفتي (ماريا) المرأة الجميلة إلى حد مدهش والتي لم ترتكب إثمًا غير أنها ماتت. ولكني لم ألبث رغم أنفي أن ضحكت من نفسي وخيل إلي أن المدينة كلها ليست إلا قصة جميلة كنت قد قرأتها أو كنت أنا الذي كتبتها، وأنا مسحور بخلقي ذاته، وأني أخاف أمام وجوه خلقها خيالي ووهمي. وفكرت في نفسي قائلاً: أليس ذلك كله حلمًا من الأحلام وأني مستعد طوعاً إلى أن أهب (تاليرا) من أجل نفس امرأة، وذلك فقط لكي أعرف هـل أنا مستيقظ أو نائم.

كان يلزمني قليل من الوقت لكي أجعل من هذا البحث بحثاً أكثر جودة لو لم أصطدم ببائعة الفواكه السمينة في زاوية السوق، ولكنها اكتفت برشقي بشتائم بذيئة، وعندئذ عرفت أني في حقيقة هي أوضح الحقائق، وأني في الساحة العامة في (ترانت) عند النبع الكبير الذي تقذف تماثيله النحاسية من الأسماك والدلافين مياهها الصافية كالفضة في شكل مثير للشهية. وإلى يسار الساحة كان يقوم قصر قديم حيطانه ترتسم عليها وجوه متقطعة ذات رموز، وعلى سطحه بعض الجنود النمسويين يمارسون مظاهر البطولة. وإلى اليمين يقوم بيت غوطي-لمباردي ذو ذوق مرهف وفي داخله يرن صوت ندي خفيف هو صوت فتاة تدندن في لطف ومرح وجرأة حتى أن الحيطان المشققة جعلت تهتز طرباً أو شيخوخة. وهناك يتبدى شعر أسود مجدول وكأنه زخرفة عمود يوناني أو شعر ممثلة كوميدية من قوس نافذة، ويلمح بين جدائل هذا الشعر وجه نحيل، تقاطيعه قاسية لم يزين إلا خده الأيسر ويشبه عجة قليت من جانب واحد. وأمامي ترتفع قبة الكنيسة العتيقة، غير كبيرة ولا قاتمة وكأنها عجوز ضاحكة هرمة هرماً حقيقياً، ومع ذلك فهي ذات ودّ وجاذبية.

(١٣)

عندما أزحت الستارة الحريرية الخضراء التي كانت باباً للكنيسة ودخلت بيت السيد شعرت بنضارة في الجسد والقلب أحدثه الهواء الطيب الذي يهب فيها،

والضوء السحري المخملي الذي يهبط خلال ألواح الزجاج الملونة على مجموعة المصلين. لم تكنْ هنالك إلا نساء مستلقيات في صفوف على مقاعد الصلوات القليلة الارتفاع. كن يصلين بحركة خفيفة في الشفاه ويروحن عن أنفسهن دون هوادة بمراوح كبيرة خضراء حتى ما كنت أسمع إلا دندنة مستمرة غريبة، ولا أرى إلا المراوح والبراقع المتحركة. صرير حذائي جعل أكثر من امرأة تقية تضطرب، ونظرت إليّ عيون كثيرة كبيرة كاثوليكية نظرات نصفها فضول، ونصفها انزعاج وكأنها تنصحني بأن أركع على ركبتي، وأن أقوم بصلاة تنعش روحي.

الحق أن مثل هذه القبة بما فيها من نور مخنوق ورطوبة مرفرفة تصلح لإقامة لذيذة. عندما تكون الشمس في خارجها تعمي العيون، وعندما يكون الحر مرهقاً، لايمكن في ألمانيا البروتستانتية في الشمال أن نكوّن فكرة عن هذه الكنيسة، فالكنائس عندنا لم تبنَ قط في مثل هذه الرفاهية، ثم إن النور يتدفق في وقاحة من ألواح زجاجها الخالية من الصور والعقلية. ثم إن التجريد البارد للمواعظ لايحمينا حماية كافية من الحر. ليقل الناس ما شاؤ وا، فالكاثوليكية دين حسن للصيف. تتمدد تمدداً مريحاً على مقاعد هذه الكنائس القديمة وتتذوق طعم تقوى ندية، و Saint dalce for niente، وتصلي وتحلم وتفكر بالآثام عقلياً: وتماثيل القديسات في مكامنها تلقي علينا نظرات رحيمة؛ إن قلوبها النسائية تغفر لك حتى حين تخلط ملامحها الالهية بأحلام الاثم والشهوة، وهنالك، علاوة على ذلك، وعند الضرورة ركن من الخشب الأسمر في خدمة الضمير يمكن فيه أن تتخلص من خطاياك.

كاهن شاب ذو ملامح قاسية كان جالساً في مثل هذه الدكان. كان وجه المرأة التي تعترف له بخطاياها منحرفاً عني، قسم منه بالنقاب الأبيض الذي تلبسه، وقسم منه باللوحة الجانبية لمكان الاعتراف، ولكن اليد التي تبدو خارج المكان جلبت انتباهي. لم أستطع الكف عن النظر إلى تلك اليد، شبكه العروق اللازوردية ولمعان الأصابع البيضاء اللطيف كنت أعرفها معرفة خاصة. وتحركت كل طاقتي الروحية لكي تتخيل الوجه الذي يمكن أن يكون لصاحبة هذه اليد.

كانت حقاً يداً جميلة، لا كاليد التي نجدها عند الصبايا نصفها يد حمل ونصفها ورقة وردة، إنهن يملكن أيدياً لا أفكار لها، أيدياً نباتية أو حيوانية كلها، أما هذه اليد فهي على عكس ذلك فيها شيء من العقلي من التاريخي مثل أيدي الشخصيات الجميلات المتربيات تربية طيبة أو اللواتي قاسين كثيراً من الآلام. ثم إن هذه اليد تحمل هيئة براءة مثيرة، كأنها ليست في حاجة إلى أن تعترف بشيء، بل وكأنها لاتريد

أن تسمع ما تعترف به صاحبتها، وكأنما هي تنتظر خارج حجرة الاعتراف أن تنتهي السيدة من الاعتراف، ولكنه كان طويلاً لعل السيدة ارتكبت كثيراً من الآثام فهي تبوح بها.

لم أستطع الانتظار أكثر مما انتظرت وطبعت روحي على تلك اليد الجميلة قبلة وداع غير منظورة وارتجفت هذه اليد في اللحظة نفسها تماماً كما فعلت يد (ماريا) الميتة عندما لمستها. وفكرت في نفسي قائلاً: ــ باسم الله، ماذا تفعل ماريا الميتة في (ترانت)، ثم أسرعت في الخروج من الكنيسة.

(١٤)

عندما عدت إلى المرور في ساحة السوق حيتني بائعة الفاكهة في الزاوية تحية مودة وقرابة كأننا معارف قدماء ــ وقلت في نفسي: لا يهم الشكل الذي تتعرف به على صديق جديد شريطة أن تتوصلا إلى معرفة أحدكما لصاحبه. إن بعض الشتائم التي ترفع الرأس ليست، حقاً، أحسن مدخل إلى التعارف. ولكننا أنا وبائعة الفاكهة تبادلنا مع ذلك نظرات فيها من المودة ما فيها، كأننا تبادلنا أحسن رسائل التوصية. ثم إن السيدة الطيبة ليست سيئة الهيئة. إنها دون شك في تلك السن التي تنطبع فيها سنوات الخدمة على جبينها بأرقام مشؤومة، ولكنها في الوقت نفسه فيها كثير من السمنة، وما أضاعته من شبابها تعوضه بوزنها. أضف إلى ذلك أن وجهها ما يزال يحتفظ بآثار جمال رائع غابر، وأنت تقرأ في هذا الوجه كما تقرأ على إناء صيني قديم: أن تحب أنت وأن تكون محبوباً تلك هي أعظم سعادة على الأرض. ولكن أدعى ما فيها من المفاتن طريقتها في تصفيف شعرها، جدائلها المضفورة، المرشوشة ببعض البياض والمدهونة بالمراهم والتي تتناثر فيها أزهار طبيعية. لقد لاحظت هذه المرأة في انتباه يعدل انتباه بائع تحف قديمة ينظر إلى جذوع تماثيل اكتشفت حديثاً، واستطعت أيضاً دراسة كثير من الأمور في هذه الخرابة الإنسانية الحية وأن أتبين فيها الطبقات المختلفة للحضارات الايطالية: الحضارة الاتروسكية والرومانية والغوطية واللومباردية، حتى الحضارة الحديثة المرشوشة بالصقيع والهشة. وكان أمراً مثيراً لاهتمامي الكبير أن أرى في هذه المرأة نقيض هذا الملخص للحضارات، بمهنتها وبعاداتها العاطفية العفوية. كما أني لم أكن أقل اهتماماً بعناصر تجارتها، باللوز الطازج في قشرته الخضراء الأصلية وبالتين الناضج المعطر المكدس اكداساً كما تكدس الإجاص عندنا. وسرتني كذلك رؤية السلال الكبيرة من البرتقال والليمون، وما

أحلى ذلك المنظر إلى جانب منظر طفل رائع نائم في سلة فارغة ويمسك بيده جرساً صغيراً. كان إذا قرع جرس الكنيسة الكبير، اغتنم الفرصة بين قرعتين ليقرع جرسه قرعة واحدة ثم يضحك ضحكة متألقة صافية للشمس الزرقاء الممتدة فوق رأسه، حتى إني أنا نفسي عدت إلى نزوات طفل مضحك ووقفت أمام تلك السلة الضاحكة واصطنعت صنيع الطفل الشره وبدأ الحوار مع بائعة الفاكهة. لغتي الايطالية السيئة جعلتها تظن أني انكليزي ولكني أعلنت لها أني ألماني، وعندئذ غمرتني بمجموعة من الاسئلة الجغرافية والاقتصادية والزراعية والطقسية تتناول ألمانيا، وأدهشها عندما أعلنت لها أن الليمون لاينمو في بلادنا، وأننا مضطرون عند صنع كأس من الخمر إلى عصر قطعة من الليمون عصراً شديداً، وأن الليمون نستورده من ايطاليا وأننا مضطرون إلى استبدال (الروم) بعصير الليمون. وقلت لها: ــ وا أسفاه، يا سيدتي العزيزة، في بلادنا برد شديد ورطوبة، والشمس نفسها مضطرة في بلادنا إلى أن تلبس ثوباً من (الفانيلا) كيلا تبرد، وتحت أشعتها الصفراء لاتنضج أثمارنا إن لها شكلاً أصفر بائساً، ولنقل فيما بيننا أن الفاكهة الوحيدة الناضجة عندنا هي التفاح المسلوق. أما التين فنحن مضطرون إلى استيراده من البلاد الأجنبية مثل الليمون والبرتقال، وسفرتها الطويلة إلينا تجعلها حمقاء مرشوشة بالعطب. ونحن لانستطيع أن نحصل على فاكهة طرية مقطوفة حديثاً إلا من الأصناف الرديئة، وهي مع ذلك مرة حتى إن من تهدينه هدية مجانية يشكو إليك منها كأنها مسروقة وبكلمة واحدة إن كل الفواكه الجيدة تنقصنا، ونحن ليس لدينا إلا العنب الصغير، عنب الدب والإجاص والجوز والبرقوق الطويل وغير ذلك من الأصناف السيئة.

(١٥)

سرني حقاً أني وجدت منذ دخولي إلى ايطاليا معارف طيبة، ولو لم تدفعني مشاعر ضاغطة إلى الذهاب إلى ايطاليا لبقيت مقيمًا في (ترانت) قرب بائعة الفواكه والتين الطيب واللوز وقارع الجرس الصغير، بل يجب أن أقول قرب الصبايا الجميلات اللواتي يتدفقن كالموج أمامي. لا أعرف إذا كان السياح الآخرون يصححون لي هذا الوصف للجميلات، ولكن نساء التيرول أعجبتني جداً وعلى الخصوص. لقد كن من النوع الذي أحبه: وأنا أحب الوجوه الصفراء النادبة التي تشع فيها عيون كبيرة سوداء بحب موجع، وأحب الصبغة القاتمة في هذه الأعناق المديدة التي أحبها (فوبوس) أول من أحب. والتي سفعته قبلاتها، أحب هذا القذال الناضج وما فيه من بقع قانية كأن هناك عصافير نقرتها، وأحب، قبل كل شيء، هذه

الموسيقى الصماء في الجسد، هذه الأعضاء التي تتمايل على نغمات لذيذة، شهوانية رشيقة، ماجنة إلى حد إلهي، متماوتة في كسل، وهي مع ذلك ذات سمو هوائي، وشاعرية إلى حد الاعجاب. إنني أحبها كما أحب الشعر نفسه كما أحب هذه الوجوه الحية كأنها غناء، هذه الموسيقى النسائية العجيبة التي تحيطني بتموجاتها وتتردد أصداؤها في قلبي، وتوقظ فيها انغاماً لها مثل ما لها من إيقاع.

ولم تلبث أن تبددت قوة المفاجأة الأولى السحرية والهزة الجنية للقاء الجديد، وحل محلها فكر هادىء، كأنه فكر ناقد يقرأ قصيدة، فكر يكتنه سر هؤلاء النساء بعيون مسحورة حذرة. في مثل هذه النظرية التقديرية يمكن للإنسان أن يكتشف كثيراً من الأشياء الحزينة: غنى الماضي وفقر الحاضر والكبرياء من مخلفات ذلك الماضي. تبدو فتيات (ترانت) راضيات كما لو كن في عهد المجامع الدينية، لقد كانت المدينة تعج بالأقمشة المخملية والحريرية، ولكن عهد المجامع الدينية ترك آثاره، فالمخمل رث والحرير ممزق، ولم يبق على الأطفال المساكين إلا أسمال بالية يلبسونها في عناية قلقة طول أيام الأسبوع ليتبرجوا بها كذلك في أيام الآحاد. بل إن عدداً كبيراً منهم مضطر إلى الاستغناء عن هذه الفخامة البائدة وإلى الاستعانة بكل أنواع المنتجات الرخيصة في عصرنا. إذن فهنالك تناقض مؤلم بين الجسد وبين اللباس: الفم المخطط لسخرية لاذعة يبدو وكأنه صنع لإملاء أوامر ملكية ولكنه تظلله قبعة مضحكة من لحاء الشجر لها أزهار من الورق، وأكثر الصدور كبرياء وعنفاً ينتفخ تحت ستار من الأقمشة الحريرية المزيفة الثقيلة، وأحلى القامات رشاقة تغطيها أكثر الأقطان حماقة. يا للألم. اسمك هو القطن، وخاصة القطن ذو الدروب الرمادية، يا للأسف ليس شيء يحز في نفسي أكثر من منظر امرأة من (ترانت) ملامحها وصفاء لونها تجعلها تشابه تمثالاً إلهيا من المرمر. ثم هي تلبس على جسدها النبيل القديم ثوباً قطنياً مخططاً باللون الرمادي حتى إنه ليخيل إلينا أن (نيوبي) الحجرية قد عاد إليها مزاجها الطيب وتخفت في ثياب من ثياب عصرنا، وأنها هكذا في كبريائها وعظمتها تجول في شوارع مدينة في (التيرول) الايطالي.

(١٦)

عندما عدت إلى فندق (أوروبا) الكبير وطلبت غداء فاخراً شعرت أن روحي منقبضة حقاً حتى إني لم أستطع أن آكل، وهذا يعني شيئاً غير قليل. جلست على باب الحديقة المجاورة أكفر وأمامي الشراب، وقلت في نفسي: ــ يالك من قلب متقلب الأهواء. ها أنت ذا في ايطاليا. . . لماذا لاتكون من (التيرول) أتكون تلك الأشجان

القديمة أشجان ألمانيا، هذه الأفاعي الصغيرة الكامنة في أعماقك قد جاءت ايطاليا مرافقة لك وهي الآن تسرح وتمرح حتى أحدثت خفتها في صدرك هذا الألم المثير الواخذ الذي يعض وينفخ في شكل غريب؟ ولماذا لايكون للأشجان العجوز نصيبها من الفرح؟ كل شيء هنا في ايطاليا جميل، حتى إن الألم جميل. إن الآهات في هذه القصور المرمرية الخربة ترن رنيناً أكثر رومانطيقية من رنينها في بيوتها الصغيرة النظيفة من الآجر، ونحن فيها أكثر تمتعاً بالبكاء تحت هذه العقود من الغار من تحت الأوراق الحادة الصاخبة في أشجار الصنوبر عندنا، والأحلام الراغبة الجامحة تجد حسابها هنا أمام هذه الغيوم ذات الأشكال المثالية في سماء إيطاليا حيزاً مما تجده في السماء العادية الرمادية في ألمانيا التي لاتجعلنا الغيوم نفسها نرى فيها إلا حمولات العطارين والبقالين الشريفة والتي تفغر فاها بالقلق حتى الأرض. إذن فابقَ في قلبي أيها الحزن، فلن ترى مقراً خيراً من هذا المقر. أنت غال علي وثمين. وما من أحد يستطيع أن يصونك ويعنى بك خيراً مني، ثم إني أعترف لك أنك تسرني. وماذا نجني خيراً من السرور؟ السرور ليس إلا ألماً لذيذاً.

أظن أن الموسيقى، دون أن ألاحظ، بدأت تصدح أمام الحديقة، وأنها جذبت إليها بعض المشاهدين، وأن أنغامها كانت ترافق حوار نفسي ونجوى قلبي. إنها ثلاثية يقوم بها رجلان وفتاة تعزف على الكمان. أحد الرجلين يلبس معطفاً شتوياً له ياقة بيضاء، عريض الكتفين، وجهه وجه لص يلمع لمعان مذنب متوعد، في إطار من الشعر والجدائل السود. وبين ساقيه كمان يضربه في حنق كأنه ما يزال في جبال (ابروز) وقد طرح أرضاً أحد المسافرين وأسرع لكي يقطع عنقه. أما الرجل الثاني فكان عجوزاً طويلاً نحيفاً تترنح ساقاه في سروال أسود، ويتناقض شعره الأبيض كالثلج تناقضاً حزيناً مع غنائه الصارخ وزعقاته المبالغ فيها. إنه لشيء مزعج جداً أن تجد عجوزاً تضطره الحاجة إلى بيع الاحترام الذي يفرضه علينا شعره الأبيض، وإلى أن يكون نافخ بوق. بل إنه لشيء أكثر خزياً أن نجد هذا العجوز يذل نفسه هكذا أمام ابنته ومعها. فلقد كانت تلك الفتاة ابنة هذا المغني العجوز ترافق بأنغام كمانها أشد حركات أبيها عاراً أو تترك كمانها، وتغني معه بعض الثنائيات الساخرة أو هو يتصنع دور الحبيب العجوز المزيف وتتصنع هي دور الحبيبة الصبية الماجنة، ولنتصور علاوة على ذلك أنها ما تزال مراهقة، وأن هذه المراهقة الطفلة قد صنعوا منها امرأة بالغة راشدة قبل أوان البلوغ. ومن هنا كانت هذه الفضيحة، هذه الألوان الصفراء، هذا الحزن الذي يشبه الحمى على هذا الوجه الجميل الذي ترفض ملامح الكبرياء

على سحنته كل هذا العطف القلق، إنه حزن مكتوم في العيون يلمع لمعاناً مثيراً تحت أقواس النصر السوداء. ومن هنا جاءت هذه النبرة الحزينة جداً في صوت الفتاة التي تتناقض تناقضاً سرياً مع هذا الفم الجميل المبتسم الذي تنطلق منه وداعة مرضية في اعضائها الضامرة التي يغطيها ثوب صغير قصير من الحرير يكاد يكون قرمزياً إلى أقصى ما يستطيع. وهناك أشرطة من الحرير صارخة الألوان ترفرف على قبعة قديمة من القش. وتبدو على الصدر وكأنها رمز برعم وردة تتفتح، ويبدو أنها تفتحت في عنف ولم تتفتح في أوانها ضمن غلافها الأخضر، ومع ذلك فإن في هذه الفتاة الصغيرة الشقية، في هذا الربيع الذي أذبله لفح الموت، فتنة طاغية يعجز عنها التعبير، لطفاً يضج في كل سكناتها وحركاتها كبيرة كانت أم صغيرة، وفي كل نبرات صوتها، وهو لطف لايخفى عن العيون حتى عندما كانت تقترب وهي تقفز في شبق ودعارة مضحكة نحو أبيها، الذي كان هو أيضاً يترجح ويقدم لها هيكل بطنه الناتىء. كانت كلما تفوهت بكلمات أكثر عهراً أشعر بشفقة عليها أكثر عنفاً، وعندما كان يتصاعد غناؤها رقيقاً منسجماً، كأنما هو يستجدي العفو والرحمة كنت أشعر بالأفاعي الصغيرة في صدري وهي تهتز فرحاً وتعض ذيولها سروراً. بدا لي أن الوردة تحدق بي هي أيضاً في التماس واسترحام، بل رأيتها مرة وهي ترتجف وتصفر، ولكني وجدت في الوقت نفسه هذه الصبية وهي تردد ألحانها مجنونة حادة ورأيت العجوز يغني في صوت مرتعش. وفي لهجة أكثر صبابة وهياماً، إن وجه المذنب الأحمر اغتال غناءها الواطىء في غضب جعل الفتاة نفسها ترد عليه في نغمات أكثر عنفاً، وإذا بالمستمعين هناك يقابلون هذا المشهد بعاصفة من التصفيق وبالرضا.

(١٧)

كانت قطعة حقيقية من الموسيقى الأيطالية من (أوبرا) ذات طراز حديث من هذا النوع الذي يطلق حميا النشوة إلى أبعد مدى فتطفح إلى كل قفزات الأهواء، إلى الحساسية المجنونة، إلى الألم الضاحك، إلى إلهامات الموت التي تجعل الإنسان يتذوق إسعادة الحياة. إنها تماماً طريقة (روسيني) كما تتضح وضوحاً باهراً في اوبرا (حلاق إشبيليا). إن الذين يدينون الموسيقى الايطالية ويصدرون أحكامهم ضدها لن ينجوا يوماً في الجحيم من العذاب الذي هم أهل له، وسوف يحكم عليهم، فيما أظن، بأن لايسمعوا طوال إقامتهم الأبدية فيها إلا سلسلة موسيقى (سيباستيان باخ). لقد أثار غضبي أكثر من زميل من زملائي من أجل (رلستاب) مثلاً الذي لقي مثل الآخرين عقاب هذا الحكم، لولا أنه استغفر لذنبه عند (روسيني). (روسيني) هذا الأستاذ

الالهي،(هيليوز) ايطاليا الذي نشر أشعته الرنانة على كل الأرض، وغفر لمواطنيه المساكين الذين وجهوا إليه شتائمهم مكتوبة على ورق رمادي كأنه جلد حمار. أما أنا فقد أطلقت لنفسي العنان لتسحرني هذه الألحان الذهبية، وهذه البروق المهتزة، وهذه الأحلام الوضاءة وهذه الاختلاجات الكئيبة التي تتطاير حولي أنا أيضاً وترفرف، وتطبع على روحي قبلاتها، وكأنها شفاه رحيمة. أيها الاستاذ الالهي، اِعفُ عن مواطنيّ المساكين الذين لم يكتشفوا عمقك لأنك تغطيه بالورود. إنك لم تبدُ لهم مثقلاً بالأفكار لانك ترفرف في خفة بأجنحة الله. الحق أننا لكي نفهم الموسيقى الايطالية اليوم، ولكي نفهمها بالحب يجب أن يقع تحت أنظارنا الشعب نفسه، سماؤه وطباعه وملامحه الخَلقية وآلامه وأفراحه، وبكلمة مختصرة كل تاريخيه منذ (رومولوس) الذي أسس الامبراطورية الرومانية المقدسة حتى أيامنا الحاضرة التي انتهت فيها هذه الامبراطورية في عهد (رومولوس اوغست الثاني). إن الكلام شيء ممنوع في ايطاليا المسكينة العبدة، فليس أمامها إلا الموسيقى لتعبر بها عن مشاعر قلبها. كل حقدها على السيطرة الاجنبية وكل حماستها للحرية، وكل كراهيتها لعجزها، وحنينها إلى ذكرى فخامتها الغابرة، ثم أملها الواهي، وانتظارها القلق وتعطشها في فارغ الصبر إلى المساعدة والنجدة. إن كل ذلك يتوارى في ألحانها التي تنتقل من أعنف ألوان النشوة بالحياة إلى أقصى درجات العذوبة المؤثرة، وفي هذه الايماءات التي يعقب فيها الغاضب المهدد الدعابات المتملقة.

ذلك هو المعنى الباطن للأوبرا الساخرة. إن الشرطي الدخيل النمسوي يعجز عندما يستمع إليها عن إدراك معنى هذه الحكايات الغرامية المرحة، وهذه الارتباكات في الحب لهذه المداعبات الغرامية التي تغطي عند الايطالي أكثر أفكاره استقتالاً في طلب الخلاص، كما كان (هارموديوس) و(ارسطوجتون) يخفيان خنجرهما في باقة من الأس والريحان. قال الشرطي الدخيل: أقسم إن هذه الموسيقى إنتاج مجنون وإنه لمن أسباب السعادة عدم إدراكه للموسيقى، وإلاّ فإن المغنيين سوف يتعرضون إلى المثول على ألواحه التي تمثل سجناً، وسوف يصار إلى تأليف لجنة تحقيق، وسوف يخضع الثلاثي الخطر وكل الناطقين الثوريين لقواعد (البروتوكول)، ويعتقل عدد كبير من المهرجين المتورطين في مجمعات لاعتقال المجرمين ثم في (تارتاجيليا) و(برجيلا) حتى أن أوراق (دوتوردوبولونيا) وضعت تحت الحفظ وعد صاحبها في فئة المتهمين الأكثر خطراً، وفقدت (كولومبين) نور عينيها وهي تبكي هذه الكارثة التي حلت بالأسرة. أعتقد مع ذلك أن مثل هذه الكارثة لايمكن أن تحل سريعاً بهؤلاء الناس الشجعان

لأن أصحاب الجدل الايطاليين أكثر مكراً من الألمان المساكين. فإن هؤلاء الألمان الذين يحملون الفكرة نفسها تخفوا في لباس مهرجين سود يلبسون قبعات سوداء يلبسها المجانين، ولكنهم ذوو سحن حزينة جدّ حزينة، وهم في وثباتهم وقفزاتهم المهلكة التي يسمونها الوطنية الرياضية، يتعرضون للخطر الكبير ويكشرون تكشيرات جادة تثير انتباه الحاكمين فيسرعون إلى وضعهم في سجونهم.

(١٨)

لعل الفتاة صاحبة الكمان لاحظت خلال لعبها وغنائها أنني أحدق بالوردة فوق صدرها. وعندما ألقيت بعد ذلك في الصحن الصيني الذي تجمع بيه الجعالات، قطعة غير رقيقة من الفضة ضحكت لي في خبث وسألتني في جد، هل أنا راغب في وردتها.

إني أكثر الناس تهذيباً في العالم، ولا أريد ولو أعطيت العالم كله أن أهين وردة حتى إذا كانت وردة أضاعت قليلاً من عطرها. وقلت لنفسي: إذا لم تكن الوردة نضرة تماماً، ولا عطرة تماماً، مثل وردة (سارون) فماذا يهمني أنا الذي أصبت بالزكام في هذه اللحظة. ثم إن الرجال وحدهم هم الذين يرونها من قرب. إن الفراشة لاتسأل الزهرة: هل تلقيت قبلات فراشة أخرى؟ والزهرة لاتسألها: وأنت هل رفرفت فوق زهرة أخرى؟ وخلال ذلك هبط المساء، في المساء كما أظن، كل الأزهار رمادية، وأكثر الوردات إثماً مثل أكثر أنواع البقدونس طهراً وفضيلة. وفي اختصار ودون لف ودوران أجبت الفتاة: نعم يا سيدتي....

لاتظن شراً، يا قارئي العزيز. لقد حل الظلام وألقت النجوم في قلبي نظراتها الواضحة البريئة. ولكني في أعماق قلبي كانت تختلج ذكرى (ماريا) الميتة. فكرت من جديد في تلك الليلة التي وجدتني فيها قائماً أمام السرير الذي يتمدد عليه ذلك الجسد الأصفر الجميل بشفتيه الرقيقتين الخرساوين. وتذكرت تلك النظرة التي رمقتني فيها السيدة العجوز التي تسهر على ذلك الجسد والتي عهد إليّ بمهمتها خلال ساعات. وفكرت أيضاً بتلك السوسنة الموضوعة في كأس وتنشر رائحة عطرة غريبة... ثم جعلت أرتجف مرة أخرى إذا كانت هي هبة الريح التي أطفأت القنديل، وإذا لم يكن في غرفة الموت حقاً شخص ثالث.

(١٩)

لم أتأخر في الذهاب إلى سريري للنوم، وسرعان ما نمت وتهت في أحلام

غريبة. حلمت أني مبكر عدة ساعات، وأني أبدأ بزيارتي لـ (ترانت) وأذهلتني الأشياء الجديدة حتى لم أكنْ أرى في هذه اللحظة إلا الأزهار تجري في الشوارع بدلاً من الناس. هنا تتنزه قرنفلة رائعة وهي تتخلع، وهناك بلسميات فاتنة مغرية، وسوسنيات تميس برؤوسها الحلوة الفارغة ووراءها تهرع باقات من النرجس ذي الشوارب والشعر الدائري، وفي طرف الشارع زهرتا ربيع تتنازعان. وهناك منثور خضيب الألوان تغطيه أوراق مخططة تخطيطاً غريباً يترصد في نافذة بيت صغير ووراءه يدوي صوت بنفسجة ذات شذا طيب. وعلى شرفة (القصر الكبير) في مواجهة السوق اجتماع يضم كل الارستقراطية: الطبقة النبيلة العليا من الزنابق التي لاتعمل ولاتغزل، وتعتقد أنها مع ذلك مثل سليمان الملك بكل ماله من فخامة. أعتقد أني رأيت كذلك بائعة الفواكه السمينة ولكني عندما تفحصتها في انتباه لم تكن إلا زهرة حوزان شتوية هرمة جعلت تقول لي مدمدمة: ماذا تريد يا شوك الشمال، أيها القثاء البروسي، أيتها الزهرة العادية ذات الورقة العادية سأسقيك وأرشك بالماء فوراً!....

قلقت فهربت إلى الكنيسة، وكدت أسحق بنفسجة عجوزاً تحمل كتاب الصلوات على زهرة (مارغريت) صغيرة ولكني وجدت نفسي مرتاحاً تماماً في داخل الكنيسة. كانت هنالك رفوف طويلة من الخزامى (التوليب) من كل لون، تحني رؤوسها في تقوى شديدة. وفي حجرة الاعتراف تجلس فجلة سوداء، تركع أمامها زهرة لم أستطع أن أتبين وجهها. وكانت تنشر عبيراً طالما عرفته فارتجفت وفكرت في شكل غريب بالبنفسجة التي كانت ترقد فيها (ماريا) الميتة.

عندما خرجت من الكنيسة صادفت جنازة كلها من الورود تلبس أردية سوداء وتحمل مناديل بيضاء، وعلى النعش وا أسفاه كانت تتمدد الوردة التي مُزقت قبل الأوان والتي عرفتها على صدر صاحبة الكمان الصبية. وضعوا النعش أمام كنيسة صغيرة، ولم نكن نسمع إلا النحيب ولا نرى إلا الدموع، حتى خرجت من الجمع خشخاشة عجوز ألقت مرثية طويلة أسهبت في تعداد فضائل المرحومة. وفي وادي الأحزان الأرضي وفي حياة الآخرة وفي الرحمة وفي الأمل والإيمان، وكانت كل الخطبة في نبرة فيها خنة وتمطيط، وأخيراً عند هذه المرثية المرافقة بالدموع والطويلة والمزعجة انتبهت من نومي.

(٢٠)

الحوذي أسرج خيلَه في سرعة أكثر من سرعة (فوبوس) في إلجام خيله، ولم

تكد الظهيرة تمضي حتى وصلنا إلى (ألا) وهي مدينة تعوّد الحوذيون التوقف فيها بضع ساعات لتبادل عرباتهم.

(ألا) عش ايطالي حقيقي. موقعها ريفي شاعري على سفح جبل يجري فيه ويدمدم نهر صغير. خضرة الدوالي تنتشر هنا وهناك ضاحكة هيفاء، وقصور الفقراء تتكوم ويتكدس بعضها فوق بعض، سوقها مشوهة، سعتها مثل سعة باحة في بيت، تقرأ على زاويتها في أحرف رائعة كبيرة «سوق سان ماركو»، وعلى بقايا حجرة كانت شعاراً كبير قديماً كان يجلس صبي صغير مرتاحاً. كانت الشمس بكل ما فيهـا من نور تضيء ظهره، كان يمسك بيديه صورة قديس على ورق يقبلها في ورع عميق. وتقف إلى جانبه بنت صغيرة، جميلة كأنها ملاك. وتراقبه مراقبة دقيقة وترافقه أحياناً كأنها تصاحبه بنفخة في مزمار من خشب الفندق الذي دخلته للراحة وتغديت فيه كان كله على النمط الايطالي، في الطابق الأول شرفة في الهواء الطلق تطل على الباحة التي تتراكم فيها عربات مكسورة وأكوام من النفايات تتنزه فيها أعداد من ديوك الهند بأعرافها الحمقاء الحمراء، وطواويس كثيرة بائسة في كبرياء وتدور حول نصف اثني عشرية من الأولاد القذرين لابسي الأسمال، الذين يكافح بعضهم لبعض الحشرات التي تزعجهم على طريقة (بيل) و(لانكاستر). على هذه الشرفة، وإذا اتبعت درابزيناً من الحديد المكسور تصل إلى غرفة واسعة على شكل قاعة مفروشة بالرخام وفي وسطها سرير عريض تقيم فيه البراغيث أعراسها. وفي كل مكان قذارة لاتطاق. كان صاحب الفندق يقفز يميناً وشمالاً ليتلقى أوامري. كان يرتدي معطفاً حائل اللون أخضر، وله وجه متغير الألوان يقوم في وسطه أنف كبير أحدب، له ثؤلول أحمر أشعر يمتطي ذلك الأنف كأنه قرد ذو سترة حمراء يمتطي ظهر جمل. كان يقفز هنا وهناك كأنما ذلك القرد الأحمر الصغير يقوم بشقلبات فوق الأنف. ومع ذلك فقد مضت ساعة كاملة دون أن يحمل إليّ أقل شيء. وعندما شكوت هذا التأخير في الخدمة أكد لي أنني أتحدث بالايطالية حديثاً سليماً.

كان عليّ أن أكتفي أمداً طويلاً برائحة اللحم المشوي الطيبة، التي تصعد إليّ من مطبخ لا باب له تجلس فيه الأم والبنت جنباً إلى جنب، تغنيان وتنتفان الدجاج. كانت الأم سمينة جداً. كان صدرها الذي يبرز في شكل ناتىء جداً لايعدل شيئاً بالنسبة لكتلة عجيزتها الضخمة، كأن الصدر هو نوع من بناء معهد، وكأن الثاني شرح مسهب لمجموعة قانونية. أما البنت وهي غير كبيرة ولكنها قوية البنيان، فكانت على استعداد للسمنة، ولكن دهنها المزدهر لايمكن أن يقاس بشحم أمها الذاوي،

ليس في ملامحها نعومة الشباب وسحرها، ولكنها ملامح متناسقة نبيلة عتيقة وعيناها سوداوان كالفحم. أما الأم فكانت ملامحها رجراجة غير وثيقة: أنف أحمر مورد، عينان زرقاوان تشبهان بنفسجتين طبختا مع الحليب وشعر خطه البياض. كان صاحب الفندق يأتي واثباً قائلاً هل يأمر السيد بخدمة؟ ثم يبحث عن صحن أو ماعون بنفسه، ويلعق لسانه وينبش الدواليب. يتذوق الصحاف على النار ويحرق منقاره ثم يمضي قافزاً ومعه الأنف الجمل والقرد الأحمر الصغير. وتنفجر وراءه أحلى النكات ومساخر الأصدقاء ومداعبات الأسرة.

ولكن هذا البيت الهادىء، ذو المزاج الطيب الذي يكاد يكون نموذجياً، سرعان ما انقلب واضطرب بعاصفة هوجاء: هجم شاب ربعة، ذو وجه كأنه وجه قاتل أحمر على المطبخ وصرخ بأشياء لم أفهمها، وعندما أجابته المرأتان بإشارة سلبية بالرأس زاد هياجاً وأصابه غضب جنوني واستشاط لهباً وناراً كأنه بركان «فيزوف» صغير يثور. قلقت صاحبة الفندق وتمتمت بكلمات مجاملة وصلح فأحدثت هذه الكلمات أثراً عكسياً. فإذا الفتى الغاضب يمسك مجرفة من الحديد ويحطم بعض الصحون والقناني التعيسة. وقد كان من الممكن أن يقتل المرأة المسكينة لولا أن ابنتها تسلحت بسكين المطبخ الطويلة وهددته بطعنة إذا لم يخل المكان فوراً.

إنه لمنظر جميل: الصبية واقفة، جامدة مثل وجه من الرخام، الشفتان صفراوان، العينان ثابتتان شريرتان، الجبهة يخترقها وريد منتفخ أزرق. والشعر منساب كأنه أفاع سود، وفي يديها سكين دامية!... ارتعشت فرحاً لأني رأيت فعلاً أمامي، (ميديا) بلحمها وعظمها، وهي التي طالما حلمت بها في ليالي شبابي، وأنا أنام في حضن (ميلبومين) العزيزة الإلهة الصارمة.

خلال هذا المشهد لم يترك السيد بدر عمله ولم يخرج من عادته. ظل يلتقط في هدوء مشغول شظايا الصحون ويقفز باحثاً عن الصحون التي ظلت حية، وحمل إلي صحناً من حساء الجبن وصحناً آخر من اللحم المشوي القاسي الصلب كأنه قُدّ من الإخلاص الألماني وسرطانات حمراء كالحب، وسبانخ خضراء، كالأمل، مع البيض، أما المقبلات فكانت من البصل المسلوق انتزعت مني دموعاً سخية هائجة وأجابني عندما أشرت إليه برأسي مصعوقاً في اتجاه المطبخ: لاشيء، هذه طريقة (بيترو) المعتادة. والواقع أن صاحب الحادثة لم يكد يبتعد، حتى كأن شيئاً لم يحدث. عادت الأم والبنت إلى الجلوس في هدوء كما جلستا من قبل وعادتا تغنيان وتنتفان ريش الفراريج.

الحساب الذي قدمه إلي السيد بدر أكد لي أنه هو أيضاً يشارك في عملية نتف الريش. ومع ذلك فقد أعطيته جعلاً إضافياً فجعل ينحني في سرور كبير حتى كاد القرد الصغير يسقط من عرشه. وأرسلت إشارة صداقة إلى المطبخ، فأرسل إلي وداعاً صديقاً أيضاً، جلست في العربة الجديدة ومضيت مسرعاً في سهول (لومبارديا)، وعند المساء وصلت إلى مدينة (فيرون) الأثرية الشهيرة.

(٢١)

لم تستغرقني الرؤى الجديدة في (ترانت) إلا عند الغروب، وعن طريق الشعور السابق، وكأنها رعشة الترقب في قصة من قصص الجان، أما في (فيرون) فأحدقت بي كأنها حلم حمى شديد، مفعم بالألوان الخارقة والحواشي المونقة، وانفجارات الأبواق الأسطورية، وقعقعة السلاح من بعيد. كان هنالك أكثر من قصر خرب يحدق بي في عناد كأنه يريد أن يبوح لي بسره العتيق، الذي دعاه إلى كتمانه ذلك الصخب الفضولي الذي يثيره الناس في النهار، فهو يرجوني أن أعود إليه في النهار. ومع ذلك، ورغم ضوضاء الناس والشمس القاسية التي تصب نورها الأحمر، فقد ألقى إلّي بعض الأبراج القائمة هنا وهناك كلمة ذات دلالة. والتقطت وشوشة بعض التماثيل المكسرة. وبينما كنت أصعد درجاً صغيراً يقود إلى (قصر السيد) حدثتني الأحجار وقصت علي قصة مرعبة من قصص الدماء وقرأت في زاوية شارع صغير هذه الكلمات (سكالا أمازاتي).

(فيرون) المدينة العتيقة المشهورة، التي تجلس على ضفتي نهر (أديج) كانت دائمًا أول محطة للشعوب الجرمانية التي تهجر غابات الشمال وتجتاز جبال الألب لكي ترتمي تحت الشمس المذهبة في إيطاليا الحلوة. وكان بعضها يتقدم إلى منطقة أكثر بعداً وبعضها يعيش فيها عيشاً طيباً بادىء الأمر، فإذا قطنوا في البلدة في شكل مناسب، لبسوا ثياب الحرير وناموا بين الأزهار وأشجار السرو، حتى يأتي مغامرون جدد شعروا ببرد لباسهم الحديدي فقدموا من الشمال وأزاحوهم عن أماكنهم. تلك قصة طالما تكدرت، وسماها المؤرخون: «هجرة البرابرة». وعندما نتسكع في قلب مدينة (فيرون) تعثر في كل مكان على بقايا تلك الأزمنة العجيبة. يمثل الرومان على الخصوص في المدرج وفي قوس النصر. أما عهد (تيوديريك) و (ديتريش دو برن) فما يزال يعيش في بقايا أسطورية لمجموعة من الأبنية البيزنطية، وتذكرنا الخرائب الجبارة التي تكاد تكون مسعورة بالملك (آلبوان) وجماعته اللومبارديين الغضاب، وتعود بنا الآثار التي ترجع إلى عشرة قرون إلى عهد

(شارلمان) الذي نجد فرسانه منحوتة على باب الكنيسة بكـل ما في الضخـامة والغلظة الفرنجية التي كانوا عليها فعلاً في حياتهم. إننا نتصور المدينة وكأنها فندق كبير للشعوب. وكما يسجل الناس أسماءهم في الفنادق على الحيطان والنوافذ فقد خلف كل شعب من الشعوب آثار مروره بالمدينة، وهذه الآثار ليست دون شك دائماً آثار كتابة واضحة صالحة للقراءة، ولاسيما إذا لاحظنا أن عدداً كبيراً من القبائل الجرمانية لايعرف الكتابة في ذلك العهد، وأنها كانت تلجأ إلى التخريب لكي تبقى لها ذكرى؛ وفي هذا التخريب ما يكفيها لأن هذه الآثار المدمرة تتكلم كلاماً أكثر وضوحاً من الحروف المرسومة. إن البرابرة الذين يقطنون في أيامنا هذه، الفندق الكبير لم يمتنعوا عن ترك مثل هذه الآثار لوجودهم اللطيف، لأنهم لم يكن لديهم نحاتون ولا شعراء، يمكن أن يخلدوا ذكرياتهم في ذاكرة الأجيال القادمة بوسائل أكثر تحضراً أو مدنية.

لم أقم في (فيرون) إلا يوماً واحداً قضيته في إعجاب مستمر بهذه الأمور المقلقة التي تبدو أمام عيني. ظللت جامداً أمام هذه الآثار القديمة، أحياناً أمام هؤلاء الناس الذين يتزاحمون تزاحم النمل خلالها في شغل شاغل عجيب، وأحياناً أمام هذه السماء ذات الزرقة الإلهية التي تطوق كأنها إطار ثمين هذه المجموعة الغريبة وتجعل منها لوحة فنية. ومن العجب أنك تصبح عنصراً من عناصر هذه اللوحة التي تتأملها، وأن ترى فيها وجوهاً تبتسم لك، وخاصة وجوه النساء فيها، وهذا ما حدث لي في (بيازا دل ارب) يعني في سوق الحضار. كانت هنالك مجموعة من الوجوه الرائعة لنساء وفتيات، وجوه ذات عيون واسعة ذابلة، وأجساد ممشوقة ممتلئة، لها لون أصفر واخز، وسخة في شكل طفولي، خلقت لليل أكثر مما خلقت للنهار. الخمار الأسود أو الأبيض الذي تحمله النساء على رؤوسهن يُلقى في كثير من الفن حول الصدر، وكأنه يخون ويفضح شكله أكثر مما يخفيه ويستره. وتجعل الخادمات شعرهن جدائل تخترقها عدة سهام من الذهب وفي الرأس دبوس من الفضة. أما الفلاحات فأكثرهن يلبسن قبعات صغيرة من القش على شكل صحن. مع أزهار مغناجة تميس على جانب الرأس ولباس الرجال يختلف قليلاً عن لباسنا. ولقد أدهشني على الخصوص العدد الهائل من الناس الذين يرخون عـوارضهم الكبيرة السوداء ويخرجون زرافات، والذين أراهم اليوم أول مرة. ولكنك عندما تراقب هؤلاء الناس رجالاً ونساء من قريب تكتشف على وجوههم وفي كل وجودهم آثار حضارة قديمة تختلف عن حضارتنا في أنها لم تصـدر عن بربـرية القـرون

الوسطى، بل عن العصر الروماني، عن حضارة لم تُدمَّر قط، ولم تفعل شيئاً غير أنها تعدلت حسب طباع السادة الذين تعاقبوا على البلاد. الحضارة عند هؤلاء الناس ليس لها صبغة جديدة كما هي عندنا، حضارة هي مثل جذوع شجرة صُقلت أمس، ما تزال تشم رائحة دهانها. يظهر أن كل هذه الضوضاء في (بيازا دل ارب) لم تفعل غير أنها غيرت شيئاً فشيئاً، خلال مجرى الزمان، تفصيلة الثياب وشكل اللغة، أما روح العادات المرهفة فقد ظلت هي على حالها تقريباً. أما الآثار التي تطوق هذه الساحة فلم تستطع في سهولة أن تساير الزمن، ولكنها لم تصبح أكثر سوءاً في عدم مسايرتها للزمن، وبقي مظهرها يدهش الروح في شكل غريب. هناك في الساحة قصور عالية على الطراز الفينسي - اللومباردي، مع شرفات عديدة ورسوم ضاحكة جدارية. وفي وسطها يرتفع عمود أثري وحيد، وفيها ينبوع يتدفق بالمياه وتمثال قديسة من حجر. هنا نرى قصر (بوديستا) المخطط باللون الأبيض والأحمر العنيف، وهو ينتصب خلف باب كبير له ثنيات. وهنالك نرى قبة جرس قديمة مربعة مع ميناء ساعة منحنية وإبرة مكسورة، كأن الزمان يريد أن يدمرّ نفسه... وفي كل أرجاء الساعة ينتشر هذا السحر الروماني الذي يغمرنا في لطف في مخلوقات خيالية أبدعها (لودفيغو آريو ستو) و(لودفيغو تييك).

قرب هذه الساحة يقوم منزل يقولون إنه قصر (كابولي) لأن له قبعة منحوتة فوق الباب الداخلي. وهو الآن يستخدم قاعة ملهى لأصحاب العجلات والحوذيين، وله لافتة هي قبعة من الصفيح مدهونة باللون الأحمر، مثقوبة. وغير بعيد من هنا في كنيسة تبدو لك القلعة التي اجتمع فيها، حسب الحكايات الشعبية، الزوجان الشقيان. إن الشاعر يزور دائماً وفي رغبة أمثال هذه الأماكن، وهو أول من يضحك من سذاجته وسرعة تصديقه. وجدت في هذه القلعة امرأة وحيدة، مخلوقة بائسة نحيلة، صفراء اللون حتى الإزعاج، ظلت راكعة على ركبتيها تصلي، ثم نهضت وهي تتنهد ونظرت إليّ في دهشة بعينيها المريضتين الهادئتين، ثم ابتعدت وهي تتهاوى تحت ثقل أعضائها المكسورة.

قبور أسرة (سكاليجر) ماثلة هي أيضاً قرب(بيازادل ارب). إنها عظيمة مثل عظمة هذا العرق، ومما يدعو إلى الأسف أنها تقوم في زاوية مضغوطة في مكان ضيق. لكي تشغل أقل مساحة ممكنة حتى لايستطيع المشاهد أن يتأملها كما يريد. يمكن أن نقول إنهم أرادوا أن يمثلوا لعيوننا الحضور التاريخي لهذا العرق الذي لايشغل في الواقع إلا مكاناً صغيراً في تاريخ (ايطاليا) العام، رغم أن هذا المكان

تفعمه الفخامة والوقائع والمشاعر اللماعة والكبرياء المزهوة. ونحن نراهم هنا، كما نراهم في التاريخ، قائمين على آثارهم فرساناً أجلاء من حديد على خيول من حديد، وعلى كل أولئك وهؤلاء يرتفع سامياً مسيطراً تمثال (كان غراند) العم و(ماستينو) ابن الأخ.

(٢٢)

كتب كثير من الناس كثيراً من الكلمات عن مدرج (فيرون) ومسرحها، الحق أن فيه أمكنة تتسع لكل المشاهدين، وما من مكان لايمكن أن يدخل في نطاق هذه البناية المشهورة. إنها مبنية تماماً في هذا الطراز الجاد، طراز الواقع يقوم جماله في صلابته، على غرار كل الأبنية الرومانية العامة، وهو يعبر عن الروح التي ليست إلا روح (روما) نفسها. روما... هذه التي تجهل مكانتها فلا يخفق قلبها سراً عند ذكر اسمها، ولايعبث الخوف التقليدي بدماغها! أما أنا. فأعترف أنها أوحت إليّ بالهيجان القلق أكثر مما أوحته إليّ من السرور عندما أفكر أني عن قريب سوف أطأ بأقدامي أرض (روما) العجوز. (روما) العجوز ماتت الآن موتاً كاملاً. هذا ما كنت أقوله لنفسي لأطمئن روحي المضطربة، وسأكون مسروراً إذا تأملت جثتها الجميلة دون خطر. ولكن ما العمل إذا كانت لم تمت تماماً؟. ذلك كانت ترد به علي فكرة في (فالستاف). ماذا لو كانت تصطنع الموت؟ إن هذا الأمر لمرعب! عندما زرت المدرج كانت تقدم فيه مهزلة. شادوا في الوسط كوخاً صغيراً من الخشب تقدم فيه مهزلة ايطالية، وكان المشاهدون جميعاً يجلسون في الهواء الطلق بعضهم على مقاعد صغيرة وبعضهم على المقاعد الحجرية في المدرج العجوز. وجلست أنا في أحد هذه المقاعد. أتأمل حذلقات (بريجلا) و(تارتاجليا) في المقعد نفسه الذي كان يشهد فيه الروماني معارك المصارعين والحيوانات المفترسة. وفوق رأسي تلوح السماء ذات القبة اللازوردية، السماء نفسها التي كانت تظل الناس في الأيام الغابرة. هبط المساء دون أن نحس به وظهرت النجوم. كان (تروفالدينو) يضحك و(سميرالدينا) يكتب، وجاء أخيراً (بانتالون) ليجمع بين أيديهما. صفق الجمهور وانصرف مسروراً. إن كل هذه الألعاب لم تكلف نقطة من الدم، ولكنها ليست إلا ألعاباً، أما ألعاب الرومان فلم تكن على عكس ذلك ألعاباً. هؤلاء الناس لم يكونوا يتسلون قط بالمظاهر البسيطة، إنهم ينقصهم في ذلك طفولة الروح المرحة، ولكنهم، وهم الجادون جداً صارماً محسوباً، جداً دموياً يظهر حتى في تسلياتهم كانوا يمارسون هذا الجد. لم يكونوا رجالاً عظاماً، ولكن وضعهم جعلهم

أكثر عظمة من أبناء الأرض الآخرين، لأنهم يقفون في روما، وعندما يهبطون من التلال السبعة يعودون صغاراً. من هنا هذا الصغار الذي نكتشفه في كل مكان يمارسون فيه حياتهم الخاصة، إن (هيركولانوم) و(بومبي) هذين العملاقين من عمالقة الطبيعة واللذين يبدوان اليوم في النصوص الحجرية العتيقة يدلان المسافر على حياة الرومان الخاصة في البيوت الصغيرة والغرف الضيقة التي تناقض تناقضاً مدهشاً هذه الآثار العملاقة التي هي تعبير عن حياتهم العامة، هذه المسارح وتلك الأقنية. وهذه الينابيع، وتلك الطرق، وهذه الجسور التي ما تزال خرائبها تدخل الرعب في نفوسنا. وكما كان اليوناني عظيمًا بفكرته عن الفن والعبري بفكرة عن إلهه، فكذلك كان الرومان عظماء بفكرة (روماهم) الخالدة، عظماء في كل مكان حاربوا فيه وكتبوا تحت إلهام هذه الفكرة. وكلما زادت روما عظمة زادت هذه الفكرة عظمة حتى ضاع فيها الفرد، والعظماء الذين ما تزال ترى رؤوسهم لم يرتفعوا إلا بهذه الفكرة التي تجعل صغر الصغار أكثر وضوحاً. ولهذا كان الرومان في آن واحد أعظم الأبطال وأكبر الهجائين، أبطالاً عندما يعملون وهم يفكرون في روما وهجائين عندما يفكرون في روما وهم يحكمون على أعمال معاصريهم. إن أكبر شخصية فردية إذا قيست بفكرة روما بدت هزيلة وأصبحت سخرية. كان (تاسيت) أقسى معلم في هذا اللون من الهجاء، ومن هنا كان شعوره العميق بعظمة روما وصغر الناس. كان في وضعه المناسب تماماً عندما ينقل الأحكام التي توردها الألسنة السيئة في (فوروم) حول النقائص الامبراطورية. وكان في أوج السعادة الشرسة عندما يقص علينا بعض الخصومات والمعاكسات في مجلس الشيوخ (سيناتوريال) مثل أن تكون تملقاً يذهب هدراً ولا يلقى صدى.

ظللت أمداً طويلاً أجول حول المدرج. أستعيد على الدرجات العليا هذا الماضي البعيد في فكري. إن كل الآثار تتكشف روحها التي تسكنها في وضوح أكبر في ساعات الغروب على الخصوص. هذه الحيطان قالت لي في عبارات أسلوبها الموجز أكثر الأمور عمقاً، حدثتني عن رجال روما القديمة، وخيل إلي أني أراهم هم أنفسهم يتشردون ظلالاً بيضاء تمحي على المسرح المعتم. ظننت أني أرى (جراك) في نظرات الشهداء الطويلة وأراني أصرخ: يا تيبريوس سامبرونيوس: سأصوت معك في تأييد القانون الزراعي. ورأيت كذلك القيصر وهو يتمشى متأبطاً ذراع (ماركوس بروتوس) وسألتهما: هل تصالحتما؟ وأجاب القيصر ضاحكاً: كان كل منا يعتقد أنه على صواب، لم أكن أعرف أن هنالك رومانياً فاعتقدت عندئذ أن من حقي أن أصادر روما ولكن ابني ماركوس كان رومانياً فاعتقد أن قتلي مباح له،

ووراء هذين الشبحين بدا لي (تيبوريوس نيرون) في ساقيه الدخانيين وملامحه الشاحبة، ورأيت هنالك نساء فيمن رأيت، منهن (اجربين) بوجهها الجميل الصارم، كانت فاتنة حقاً كأنها تمثال قديم تلوح في محياه آثار ألم صاعق، وسألتها:
ـ عم تبحثين يا ابنة (جيرمانيوس)؟ ـ لقد سمعتها تشكو ـ وفجأة رن صوت جرس مشؤوم يعلن صلاة المساء وجرس انتهاء الزيارة. تبخرت أشباح الرومان المزهوة، وسقطت أنا مرة ثانية في الحاضر الكاثوليكي، البابوي، النمسوي.

(٢٣)

عندما حلت العتمة خرج عالم (فيرون) الجميل للنزهة في ساحة (لابرا) وجلس على مقاعد صغيرة يشرب ويتنشق رطوبة المساء والموسيقى. هناك يحلو الجلوس، يطلق القلب لنفسه العنان تهدهده الأحلام على أنغام الأمواج المنسجمة، وترن أصداؤه. طالما خفق وارتجف، في لحظات التهويم، إذا رنت الأبواق، وغنى مع كل الجوقة. هناك وكأن الفكر متيقظ بشعاع من الشمس تتفتح المشاعر ذات الأوراق العريضة والذكريات ذات العيون السود الكبيرة، وعلاوة على ذلك تعبر الأفكار الزاهية البطيئة الخالدة كأنها الغيوم.

انتصف الليل منذ أمد وأنا أتسكع في شوارع (فيرون) التي خلت شيئاً فشيئاً من المارة وصارت تردد أصداء غريبة. الآثار وما فيها من تماثيل جعلت تهتز كأنها الأبخرة في نصف ضوء القمر، ونظر إليّ أكثر من وجه رخامي في ألم أصفر، عبرت مسرعاً قبور آل (سكاليجر)، فقد خيل إليّ أن (كان كراند) وكان لطيفاً شأنه كما كان أبداً مع الشعراء، يريد أن يترجل عن حصانه ويكون لي دليلاً، وصرخت به: ابقَ في مكانك، فلست في حاجة إليك، قلبي خير دليل، يقص علي في كل مكان الحكايات التي مرت في هذه القصور وهو يقصها علي بصدق وإخلاص ما عدا الأسماء وتواريخ الحوادث.

عندما بلغت قوس النصر الروماني، كان كاهن أسود يمر فيها مسرعاً وبعد قليل رن صوت مبحوح بالألمانية: أين تمضي يا صديق؟ كان الصوت ندياً مرحاً. ولكن إلى من ينتمي من النساء هذا الصوت الذي تغلغل في روحي في عذوبة غريبة وأنا أصعد درجات (سكالا أمازاتي)؟ إنه أغنية كما لو أنها خرجت من صدر بلبل يموت، عذبة إلى حد أليم، تضرب جدران هذه المنازل كأنها تطلب النجدة. هنا في هذه الساحة قتل (انطونيو ديلا) أخاه (بارتوليو) عندما كان هذا ذاهباً إلى

خليلته. قال لي قلبي إنها ما تزال جالسة في الغرفة تنتظر حبيبها، وأنها لاتغني إلا لتخنق قلقها الذي تحس به سلفاً، وسرعان ما بدا لي الصوت والنغمة وكأني أعرفها. لقد سمعت من قبل هذه النغمات الحريرية المرتجفة الدامية، إنها تطوقني كذكريات ناعمة مسترحمة و.... وقلت: يا لقلبي من قلب أحمق، ألا تعرف أغنية (الملك المريض) التي غنتها (ماريا) المحتضرة مراراً، والصوت ألا تعرف فيه صوت (ماريا) الميتة؟ لاحقتني تلك النبرات في كل الطرقات حتى في فندق (دوتور) حتى في غرفتي، حتى في حلمي، عندئذ رأيت صديقتي العذبة الميتة، جميلة لاتتحرك، والخادمة العجوز تبتعد في حركة غامضة، وأزهار الخزامى تنفح بعطرها، ولثمت مرة أخرى هذه الشفاه العزيزة الغالية، ونهض الجسد الغالي في بطء ليرد على قبلاتي....

ليتني أعرف من أطفأ الشعلة!

(٢٤)

أتعرف البلد الذي يزهر فيه البرتقال؟

هل تعرف هذه الأغنية العاطفية؟ ايطاليا تمثل فيها، ولكن في ألوان تتنهد بالرغبات (غوته) هو الذي غناها أكثر كمالاً في (رحلة إلى ايطاليا) وكان حين يرسمها يرى الأصل أمام عينيه، ويمكن أن نطمئن إليه في صدق حدودها وألوانها. وأجد من المناسب أن أحيل القارىء إلى (رحلة إلى إيطاليا) التي كتبها غوته، ولاسيما أنه قام برحلته عن طريق (التيرول) إلى (فيرونا). لقد تحدثت سابقاً عن هذا الكتاب قبل أن أعرف بنفسي الموضوع الذي يعالجه ورأيت اليوم كل مشاعري السابقة في النقد مسوغة خلال الرحلة. إننا نجد في كتابه وفي كل صفحة فيه الأمور النابعة من الوقائع والهدوء الناعم في الطبيعة. إن (غوته) يقدم لها مرآة، بل لكي نكون أحسن تعبيراً نقول إنه كان هو نفسه مرآة هذه الطبيعة. إن الطبيعة خلقت (غوته) لكي تعرف شكلها. لقد أعطي موهبة التفكير في أفكارها، في مشاعرها، ولايمكن أن نطلب من نصير شديد من أنصار (غوته) ولاسيما في حمارة القيظ أن يقف طويلاً عند هوية صور المرآة في الأشياء نفسها، دون أن نصل إلى أن ننسب إلى المرآة الطاقة المبدعة، القدرة على خلق أشياء مماثلة. سيد يدعى (م. اكرمان) كتب كتاباً حول (غوته) يؤكد فيه جدياً أن الله الطيب، عندما خلق الخليقة قال لـ(غوته): «يا عزيزي (غوته) لقد أنتهيت والحمد لله. خلقت كل

شيء ما عدا العصافير والأشجار. وستقدم لي خدمة فعلية إذا خلقت هذه الأشياء الصغيرة بدلاً عني.» وخلق (غوته) في ابداع يعدل إبداع الله هذه الحيوانات وهذه النباتات تماماً في روح سائر المخلوقات، يعني العصافير بريشها، والأشجار بخضرتها وأوراقها.

إن في هذه الكلمات لحقيقة، وأظن، أنا، أن غوته قام بعمله هذا أحياناً في شكل هو خير من صنع الله الطيب، ولو أنه خلق الانسان لخلق السيد (اكرمان) أكثر كمالاً أي خلقه بالريش والخضرة معاً، إنها حقاً غلطة في الخلق لأن الريش الأخضر لاينبت فوق رأس السيد (اكرمان) وقد حاول غوته على الأقل أن يستدرك هذه الغلطة فأوصى بأن يصنعوا له قبعة دكتور في (يينا) وأن يزرعها بيده على رأسه.

(٢٥)

أتعرف البلد الذي يزهر فيه البرتقال
الثمرة الذهبية المضطربة تحت الورق الأخضر.
يهبّ هواء عليل في السماء الزرقاء
الرند ظن أنه أكثر راحة والغار أنه أكثر روعة
أوه: هل تعرف هذا البلد
هيا هيا
أريد، يا حبيبتي، أن أراه معك.

نعم، لم أسافر في أول شهر آب، حين تكوي الشمس الجلود في النهار وتأكل البراغيث في الليل، ثم إني أنصحك يا قارئي العزيز ألا تسافر إلى (ميلانو) من (فيرونا) بالعربة. سافرت في صحبة ستة أشقياء في عربة ثقيلة، كانت بسبب الغبار الكثيف مغلقة في عناية من كل الجوانب، حتى ما استطعت أن أرى جمال البلاد. فتح جاري كوة العربة الجانبية ليبصق مرتين فقط. رأيت في المرة الأولى بعض الصنوبرات التي كانت تتوجع جداً من حرارة الشمس المفترسة، في ثيابها الشتوية القاتمة، وفي المرة الثانية رأيت زاوية من بحيرة جميلة زرقاء تتلألأ عليها أشعة الشمس وتتراءى فيها شجرة رمان هزيلة، كانت هذه الشجرة (نارسيس) النمسوية تعجب وكأنها طفل فرح كم كانت مشابهتها أمينة لأصلها في هذه المرآة، عندما تقدم سلاحها أو تحمله، وعندما تضع خدها عليها.

ما عندي إلا القليل مما أتحدث به عن (بريسيا) نفسها، لأني انشغلت طوال

إقامتي فيها باعداد غداء فاخر. لايمكن أن يُلام مسافر مسكين على اهتمامه بتهدئة جوع الجسد قبل جوع الروح، ومع ذلك فقد كنت واعياً، قبل صعودي إلى العربة، لأسأل الحاجبة عن بعض المعلومات عن (بريسيا) وعلمت فيها علمت أن في المدينة أربعين ألف نسمة، ودار بلدية وواحداً وعشرين مقهى وعشرين كنيسة كاثوليكية، وداراً للمجانين، وكنيساً لليهود، وحديقة حيوان، وبيتاً للتأديب ومستشفى، ومسرحاً سيئاً إلى حد ما، ومشنقة للصوص الذين يسرقون أقل من ۱۰۰,۰۰۰ تالير.

بلغت ميلانو عند منتصف الليل ونزلت ضيفاً عند السيد(رايشمان)وهو ألماني أنشأ فندقاً على الطراز الألماني. قال لي بعض المواطنين الذين لقيتهم هناك أن هذا الفندق أفضل فندق في إيطاليا كلها ولم يتعبوا من الشكوى من البراغيث وأصحاب الفنادق الطليان. وجدت في فندق(رايشمان) امرأة انكليزية أعرفها سابقاً، والسيد (ليفر) الذي تركته وكأنه حمل صغير في (بريجتون) فوجدته هنا بقرة على نمط ميلانو. كان يلبس مثل ديك رومي، لم أعرف قط إنساناً قادراً على صنع زوايا في كل أجزاء شخصه كما يفعل. عندما كان يزرع إبهاميه في جنبات صدريته، كان يصنع زوايا بقبضته وبكل أصابعه، وكان فمه أخيراً مفتوحاً في شكل مربع. أضف إلى ذلك رأساً حاد الزوايا، ضيق الخلفية، بارزاً للأعلى، أما جبهته فقصيرة ضيقة، وأما ذقنه فطويلة جداً. من معارفي الانكليز رأيت في (ميلانو) عمة (ليفر) الضخمة، وقد هبطت من جبال الألب وكأنها شلال من الشحم، تحف بها بطتان من الشمال، بيضاوان باردتان مثل الثلج هما الآنسة (بولي) والآنسة (مولي).

لاتتهموني بموالاة الانكليز، يا قرائي الأعزاء، إذا كنت أتحدث كثيراً عنهم في هذا الكتاب، ولكن الانكليز كثيرون جداً في ايطاليا في هذه الأيام، فلا يمكن لإنسان أن يتجنب رؤيتهم. إنهم يجوسون خلالها كأنهم أسراب النحل، يعسكرون في كل الفنادق، يتجولون في كل مكان ليطلعوا على كل شيء. ولايمكن أن نجد بائع ليمون في ايطاليا دون أن نجد انكليزية تتنشق رائحة الليمون، ولا معرضاً إلا وفيه ستون من الانكليز ودليلهم في أيديهم، يلفون حوله لكي يتحققوا من أنهم يجدون كل ما ورد في الدليل في مكانه من المتحف. عندما ترى هذا الشعب الأشقر بخدوده الارجوانية وعجلاته اللامعة ذات المرايا، وخدمه المزخرفين ، وخيوله الصاهلة، ووصيفاته ذوات النقاب الأخضر، وغير ذلك من أدواته اللامعة ينزل طلعة مزيناً من جبال الألب ويخترق ايطاليا كلها، لو رأيت ذلك لظننت أن هنالك هجرة رشيقة للبرابرة، والواقع أن ابن (آبولون) رغم أنه يرتدي ثياباً بيضاء ويدفع

ما عليه من مال فليس إلا بربرياً متمدناً بمقارنته بالايطالي الذي يدل على حضارة تجاوزت البربرية. إن هذا الايطالي يبدي في عاداته فظاظة منقبضة ولماعة. إنه يبدي نعومة حاذقة تكاد تكون كريهة الرائحة. وهذه الوجوه الايطالية الصفر ببياض عيونها الوجيع وأفواهها الرقيقة رقة مرضية ما أكثر ما فيها من ملامح متميزة لا تحدد بالنسبة إلى هذه الوجوه البريطانية المتخمة بصحتها الحمراء المبتذلة. الشعب الايطالي كله مريض داخلياً، والناس المرضى دائمًا أكثر تميزاً من الناس الأصحاء: لأن المريض وحده إنسان، واعضاؤه تقص علينا قصة الألم... إنهم أصحاب روح وفكر، بل أنا أعتقد أن الحيوانات، عن طريق الألم يمكن أن تبلغ حالة الإنسان. لقد رأيت مرة كلباً يموت كان في نهاية احتضاره ينظر إليّ في تعبير إنساني حقاً.

التعبير المتألم للوجه يبدو على الخصوص عند الايطاليين، عندما تتحدث إليهم عن مآسي وطنهم، وأنت كثيراً ما تجد هذه المناسبات في (ميلانو)، إنها الجرح الدامي في قلب الايطاليين، وعندما تلمس هذا الجرح تصيبهم حركات عصبية وقشعريرة مهما كانت صغيرة، عندئذ يحركون أكتفاهم في حركة تثير فيك رحمة وإشفاقاً خاصاً. رأى أحد الانكليز أن الايطاليين وكأنهم لايهتمون بالسياسة، لأنهم يصغون إلينا في لامبالاة عندما نتحدث إليهم، نحن الأجانب عن السياسة، عن حرب تركيا وعن تحرير إيرلندا. وهذا ظلم عندما يتحدث في سخرية عن أحد هؤلاء الايطاليين الصفر ذوي اللحية السوداء. رأينا في السهرة تمثيل أوبرا جديدة في (سكالا) وسمعنا ضجة الأقدام الغاضبة التي نسمعها عادة في مثل هذه المناسبات الفخمة. قال ابن (آبولون) للرجل الأصفر: أنتم معاشر الايطاليين تبدون أمواتاً حيال كل شيء ما عدا الموسيقى، التي لها وحدها ميزة الإيحاء إليكم. وقال الرجل الأصفر وهو يهز كتفيه: أنت مخطىء، وتابع وهو يتنهد: وا أسفاه إن إيطاليا تحكم وهي جالسة على أنقاضها وإذا استيقظت أحياناً وقفزت عند أنغام بعض الأغاني فما ذلك من أجل الأغنية في ذاتها، ولكن من أجل الذكريات ومن أجل العواطف القديمة التي أيقظتها هذه الأغنيات، من أجل العواطف التي حملتها أيطاليا دائمًا في صدرها، والتي تفيض عندئذ في غضب... هذا هو سبب الضوضاء التي سمعتها في (سكالا).

(٢٦)

رغم أني وجدت منذ الآن الفرصة المناسبة يا قارئي العزيز، لإمتاعك بأحكامي حول الفن في (أمبروزيانا) و(بريرا) فأنا أريد أن أجنبك تجرع هذه

الكأس وأكتفي بملاحظة أني وجدت عند أكثر من جميلة من جميلات (لومبارديا)، في شوارع (ميلانو) هذه الذقن الحادة التي تهب لهذه الوجوه من مدرسة (لومبارديا) صبغة عاطفية. إنه كان أمراً يعلمني كثيراً عندما استطعت أن أقارن آثار هذه المدرسة بالنماذج الأصيلة لذلك العرق، تلك النماذج التي اتخذتها لها، لقد فهمت عندئذ فهمًا جيداً صفات هذه المدرسة. وهكذا أعطاني معرض (روتردام) فجأة فهمًا كاملاً لـ(جان ستين) في بساطته الإلهية، وهكذا عرفت بعد ذلك عند (لـونغ آرنـو) الأشكال المرسومة رسمًا جيداً والتي تنم عن روح رسامي (فلورنسا) وكذلك فقد ظهرت أمام فكري، في ساحة (سان ماركو) حقيقة الألوان والظاهرة الحلمية عند أهالي البندقية. هيا روحي طيري إلى روما فلعل هناك تصلين إلى فهم ذلك المثل الأعلى الذي يسمى (رفائيل).

ومع ذلك فلست أستطيع الصمت عن أعجوبة (ميلانو) أكبر أعجوبة من جميع الجوانب، أعني قبتها.

من بعيد يظن الرائي أن هذا الأثر قطعة من ورق أبيض، فإذا اقترب هاله أن يعرف أن هذه القطعة من الرخام الصريح، والتماثيل الكثيرة للقديسين التي تغطي كل الأثر، وتنظر من مواقعها الصغيرة الغوطية إلى كل الجهات تشكل شعباً من الحجارة تهز الفكر. وعندما نتأمل هذا الصنع تأملاً أطول نخلص إلى أنه جدّ جميل وجدّ لطيف، دمية حقيقية لطفل عملاق. وفي ضوء القمر عند منتصف الليل يبدو أكثر جمالاً. إن كل هؤلاء الرجال من الحجارة البيضاء ينزلون من مجتمعهم الهوائي، ويتنزهون معك، في الساحة ويوشوشون في أذنيك بحكـايات قـديمة، حكايات جميلة قدسية، حكايات سرية حول (جيلاس فيسكونتي) الذي بدأ صنع القبة وحول (نابليون بونابرت) الذي استمر في صنعها أمداً طويلاً. قال لي قديس غريب نحت في زمن حديث من مرمر حديث: ــ أترى، أترى أن رفاقي الشيـوخ لايمكن أن يفهموا لماذا اهتم الامبراطور نابوليون بإنهاء بناء القبة. أما أنا فأعرف السبب إنه كان يرى أن هذا البيت الحجري الكبير سيكون أثراً نافعاً من كل الجوانب، وأن من الممكن أن يظل نافعاً عندما تنتهي المسيحية. عندما سمعته يقول: عندما تنتهي المسيحية أصابني الخوف، أيمكن أن يكون في ايطاليا قديسون يقولون مثل هذا الكلام؟ ويقولون هذا في ساحة يغدو ويروح فيها حراس نمسويون يلبسون قبعات من جلد الدببة ويمسكون جعباً. ثم إن هذه الحجرة الغريبة على صواب من كل النواحي: إن القبة في الداخل رطبة، رطوبة لذيذة في الصيف،

مرحة ولذيذة جداً، ولاتفقد مزيتها هذه حتى إذا تغيرت وجهة استعمالها.

إن إتمام القبة كانت فكرة أثيرة على نابوليون، ولم يكن بعيداً عن الغاية عندما انتهت سلطته. والنمسويون الآن يتممون هذا العمل. كما تستكمل أعمال قوس النصر الشهيرة التي ينتهي عندها طريق (سامبلون). الحق أن تمثال نابوليون لايتوج، كما كان في المشروع الأولي، باب النصر هذا. ولكن لايهم فالامبراطور العظيم ترك تمثالا هو خير وأكثر دواماً من تماثيل المرمر. لايستطيع أحد من النمسويين أن يحجبه عن عيوننا. وعندما سنصبح، نحن الآخرين، محصودين، منذ أمد بعيد، بمنجل الموت، ومحمولين بالرياح مثل قش الحقول، فإن أجيالاً جديدة سوف تنبثق من الأرض... وسيبقى الزمان عاجزاً عن تدمير هذه الصورة الباهرة وسيجهد نفسه في تغليفها ضمن ضباب التقاليد والتراث، وستصبح حكايتها العظيمة أسطورة من الأساطير.

ربما، أتى، بعد قرون كثيرة، معلم عبقري، يثبت إثباتاً قاطعاً في محاضرة علمية أكاديمية، أن (نابوليون بونابرت) كان تماماً شخصية (تيتان) نفسها الذي أراد أن يسلب النور من الآلهة، والذي حكم عليه بسبب هذه الجريمة بأن يُقيّد على صخرة منفردة في وسط البحار وأن يُترَك فريسة لنسر يلتهم قلبه كل يوم.

(٢٧)

ومع ذلك ، فأرجوك يا قارئي العزيز، ألاّ تتصور أني (بونابرتي) مع كل ما قلته. إن تمجيدي لايتجه إلى التصرفات ولكنه يتجه إلى عبقرية الإنسان فقط مهما كان اسم هذا الإنسان، سواء سمي (الاسكندر) أو (القيصر) أو (نابليون) أنا لا أعجب أبداً بالتصرف، بالحادث. ولكني أعجب بالفكر الانساني وحده، فالتصرف والواقع ليسا إلا الثياب والتاريخ، ليس شيئاً آخر غير خزانة عتيقة للفكر الإنساني، ومع ذلك فإن الحب يجد أحياناً سحراً كبيراً في الثياب الرثة، كما أحب أنا مثلاً معطف (مارانغو).

ـ «نحن في ميدان معركة (مارانغو).» ما أشد خفقان قلبي فرحاً عندما تلفظ الدليل بهذه الكلمات. سافرت من (ميلانو) مساء بصحبة واحد من أظرف سكان (ليفونيا)، كان يقلد الرجل الروسي في نجاح، ورأيت صباح اليوم التالي الشمس تشرق على ميدان المعركة الشهير. هنا شرب الجنرال (نابليون بونابرت) حتى الثمالة كأساً طافحة من كؤوس المجد، وفي نشوته أصبح القنصل الأول

وامبراطوراً وسيداً للعالم، ولم يستيقظ من نشوته إلا في جزيرة القديسة (هيلانة).
ولم نكن نحن أكثر صحواً، فقد شاركناه في النشوة وحلمنا تماماً بالأعاجيب نفسها واستيقظنا معه، وفي مزاج السكارى ما نزال حتى الآن نغوص في تأملات معقولة.

ما أثارنا، قبل كل شيء، هو ذلك المُخْل العظيم الذي استطاع الأمراء الجشعون الانتهازيون أن يلعبوا به، ألا وهو القومية بما فيها من تفاهات وأحقاد، والذي أصبح الآن، وقد أصابه الطحلب واهترأ، في كل يوم تنطفىء جذوة إحدى هذه الأحكام السابقة الوطنية. كل التميزات الحادة للشعوب تم سحقها بفعل الحضارة الأوروبية العامة. ليس في أوروبا قوميات، ولكن فيها أحزاباً، وإنه لأمر غريب أن نرى هذه الأحزاب تتعارف فوراً، رغم الفروق في الألوان، وتتفاهم رغم اختلاط اللغات والألسنة. وإذا كانت الرؤوس تنخدع، فإن القلوب تعرف ما تريد، إن الزمن يمشي دائماً نحو إكمال مهمته العظيمة.

ولكن ما هي مهمة زمننا الكبرى؟ إنها التحرير، لا تحرير الايرلنديين، واليونانيين، ويهود فرانكفورت، وزنوج أمريكا وغيرهم من الشعوب المضطهَدة، ولكن تحرير كل العالم، في أوروبا، التي أصبحت بالغة الرشد، والتي تنتزع نفسها الآن من قيود الامتيازات والارستقراطية. إن بعض المرتدين المتفلسفين عن الحرية يمكن أن يصنعوا على هواهم أغلال الجدل التافه ليثبتوا أن ملايين الرجال خلقوا لكي يكونوا بهائم لفئة من بضعة آلاف من الفرسان ذوي الامتيازات، ولكنهم لايستطيعون إقناعنا بذلك ما داموا لايثبتون لنا، كما قال (فولتير) أن أولئك ولدوا بسروج فوق ظهورهم، وأن هؤلاء ولدوا بمهاميز في أرجلهم. لكل عصر مهمته، وبإتمام هذه المهمة تتقدم الانسانية، عدم المساواة القديم بين الناس الذي أقامه النظام الاقطاعي، ربما كان ضرورياً أوكان شرطاً ضرورياً لتقدم الحضارة، أما اليوم فإنه يعوق التقدم ويثير القلوب المتمدنة. الفرنسيون، وهم شعب اجتماعي دمقراطي إلى حد ممتاز كانوا بالضرورة أكثر الناس سخطاً على هذا التفاوت وعدم المساواة. وهم يقطعون رؤوس الذين أرادوا تجاوز الآخرين، والثورة كانت نذير الحرب لتحرير الإنسانية.

المجد للفرنسيين لقد عملوا من أجل حاجتين عظيمتين من حاجات المجتمع البشري: النكهة الطيبة، والمساواة المدنية. لقد صنعوا أحسن ألوان التقدم في فن الطبخ وفي الحرية. وإذا نحن احتفلنا ذات يوم، كضيوف متساوين في وليمة مصالحة عظيمة، وكنا أصحاب مزاج طيب، فليس في الإمكان أن نتصور أفضل

من مجتمع أفراد متساوين يجلسون على مائدة شهية! إذا نحن احتفلنا بذلك فسوف نشرب نخب الفرنسيين أول ما نشرب. لاشك أننا سننتظر أمداً طويلاً قبل أن نحتفل بهذا العيد، قبل أن يصبح التحرير أمراً واقعاً، ولكن هذا التحرير سيأتي أخيراً، وسنجلس متساوين متصالحين على مائدة واحدة وسنكون عندئذ متوحدين، وسوف نكافح معاً أمراض الإنسانية الأخرى، ربما أخيراً سنكافح الموت الذي يجرحنا نظامه في المساواة جروحاً ليست أقل من المذاهب الضاحكة لعدم المساواة وللارستقراطية.

لا تضحك، يا قارىء المستقبل، إن كل قرن يظن أن نضاله أهم كل النضالات، إنه الايمان الخاص بالقرن، الايمان الذي يعيش فيه ويموت. ونحن أيضاً نريد أن نعيش ونموت في دين الحرية هذه، وهي دين يستحق هذا الاسم أكثر من هذا الشبح الميت الفارغ ـ الذي ما نزال نسميه هكذا عادة.... إن معركتنا المقدسة يخيل إلينا أنها أكثر قيمة من كل المعارك التي دارت على الأرض، رغم أن إحساساً سابقاً تاريخياً يقول لنا إن أحفادنا سيعتبرون هذا النضال اعتباراً يحمل شعور اللامبالاة التي نحملها لمعارك الناس الأوائل الذين ناضلوا ضد العفاريت والتنانين والعمالقة، وهم مثل جماعتنا الارستقراطيين في النهب والسلب والجشع.

(٢٨)

التأملات، في ساحة معركة (مارانغو) تأتيك زرافات حتى كأنك تميل إلى الظن أنها هي التأملات التي اضطر عدد كبير من الناس إلى تركها في هذا الميدان كما تركوا حياتهم في هذا اليوم، والتي تتشرد الآن في هذه السهول كأنها كلاب حُرمت من أصحابها. أحب ميادين المعارك، ذلك لأن الحرب مهما كانت قاسية فهي تشهد مع ذلك على عظمة الإنسان الفكرية التي يمكن أن تتحدى الموت، وهو عدوها القديم القاهر. وأحب على الخصوص ساحة هذه المعركة التي رقصت فيها الحرية على ورود من الدم أحلى رقصاتها في حفلة عرسها، فرنسا كانت عندئذ هي الخطيبة التي دعت كل العالم لحضور حفلة زفافها كما ورد في الأغنية

نعم، في عشية العرس
كسرنا بدلاً من الصحون
رؤوس الارستقراطيين.

ولكن وا أسفاه، إن كل إبهام من الأرض كسبته الانسانية كلفها سيولاً من الدماء. أليس هذا الثمن غالياً جداً؟ أليست حياة فرد واحد لاتساوي حياة الجنس الإنساني كله؟ ذلك لأن كل إنسان في مفرده هو عالم كامل، يعيش ويموت معه في وقت واحد، وكل حجر في رمس تغطي تاريخاً عالمياً... صه.. هكذا تكلم الأموات الذين سقطوا في هذا الميدان، ونحن الذين نعيش ما يزال أمامنا أن نحارب في الحرب المقدسة لخلاص الإنسانية..................

....

....

ــ نحن في ميدان معركة (مارنغو) وهبطت من العربة خلال دقائق لأؤدي صلوات الفجر. كانت كتلة ضخمة من الغيوم تتكوم وتستدير كأنها قوس نصر عظيمة فوق الشمس التي تشرق منتصرة صافية أثيرية وتعد بيوم جميل. أما أنا فشعرت أني مثل القمر المسكين الذي ما يزال يبدو في السماء أصفر شاحباً. لقد قطع طريقه المعتزلة في حزن الليل، عندما كانت السعادة نائمة، وكانت الأشباح وأسراب البوم والجريمة هي وحدها التي تسيطر وتسود، والآن وقد أشرق النهار الفتي بأشعته المرحة، وأرجوانه الصباحي الرفراف، فقد وجب عليه أن يذهب. وأخيراً نظر نظرة موجعة، نحو نور العالم العظيم، ثم غاب كأنه غيمة من البخار. قال لي زميلي في الرحلة من قاع العربة: سيكون نهارنا جميلاً. وأجاب قلبي وهو مستغرق في عبادته بصوت خفيض: نعم سيكون نهارنا جميلاً. وجعل يرتجف عذاباً وفرحاً. نعم سيكون النهار جميلاً إن شمس الحرية ستدفىء الأرض في مرح غامر أكثر من كل تلك الارستقراطية من نجوم الليل. وسيزدهر جيل جديد انبثق من حرائق الاختيار الحر، لا من على طبقة من السخرة وتحت إشراف رجال الجمارك الكهنوت وسيبزغ في ولادة حرة كذلك بين الناس أفكار وعواطف حرة لم نتوقعها ولم نتنبأ بها نحن الذين ولدنا عبيداً. ــ أوه. سيقاسي هؤلاء الناس كثيراً من المتاعب حتى يمكنهم تصور كم كان الظلام الذي عشنا فيه كثيفاً مرعباً؛ وكم كانت معركتنا ضارية في مكافحة الأشباح السود، والغربان الحمقاء، والدجالين المجرمين! أوه يا لنا من محاربين تعساء، نحن الذين فُرض علينا أن ننفق كل حياتنا في مثل هذه المعركة، نحن الذين بقينا متعبين شاحبين عندما كان يشع نهار النصر. إن لهب الشمس المشرقة لايكفي ليضمخ خدودنا بالحمرة ولاليمنح قلبونا الدفء. إن علينا أن نموت مثل ذلك القمر الذي اختفى... ما أقصر حياة الانسان التي تكون نهايتها هذا القبر القاسي الذي لايرحم.

لست أدري بالفعل إن كنت أستحق أن يضع الناس إكليلاً من الغار فوق تابوتي، إن الشعر مهما كان حبي له، لم يكن عندي دائمًا إلا وسيلة مخصصة في سبيل هدف مقدس، لم أعلق كثيراً من القيمة على مجد قصائدي. وقل أن يهمني ثناء الناس عليها أو ذمهم لها. ولكن عليكم أن تضعوا فوق قبري سيفاً، ذلك لأني كنت جندياً باسلاً في حرب خلاص الانسانية.

(٢٩)

خلال حر الظهيرة التمسنا ملجأً في دير من أديرة (الدومينكان)، يقع على مرتفع عال ويهيمن بأشجار سروه القاتمة وبرهبانه البيض، وكأنه قصر لصيد الإيمان، على أودية (الأبنيان) الخضراء الضاحكة. إنه بناء جميل، وقد رأيت بعد دارة (مونزا)، التي لم أرَ إلا خارجها، عدداً من الأديرة والكنائس الرائعة. لم أكن أدري ما أعجب به أكثر: أبجمال المناظر أو بعظمة الكنائس القديمة أو بمشاعر البنائين العظيمة الصلدة، هؤلاء البناؤون الذين يمكن أن يخمنوا سلفاً إن إكمال مثل هذه الآثار لايمكن أن يخلص إلا لأحفاد أحفادهم، ومع ذلك فهم يضعون في هدوء الحجر الأول فيه، ثم يضعون حجراً على حجر حتى يكفهم الموت عن العمل، ويأتي معماريون آخرون يستمرون في البناء ويلقون في النهاية الراحة الأبدية نفسها، وكلهم أصحاب عقيدة في خلود الدين الكاثوليكي وفي ثقة تامة بتطابق عواطف الأجيال اللاحقة التي تكمل عمل الأجيال السابقة.

تلك هي عقيدة العصر، المعماريون القدماء يعيشون ويرقدون على هذه العقيدة. وهم يرقدون اليوم أمام أبواب كنائسهم القديمة، ونرجو أن يكون نومهم عميقاً جداً، وألا توقظهم تكشيرات العصور الحديثة وغمزاتها. ولو حدث ذلك لتألم على الخصوص أولئك الذين يتمددون تحت القباب العتيقة التي أقاموها. ولا سيما إذا استيقظوا فجأة خلال الليل، ورأوا على ضوء القمر الحزين أن مهمتهم لم تنتهِ وفهموا فوراً أن زمن الانتهاء من البناء لم يكن، وأن كل وجودهم كان أحمق دون جدوى.

هكذا تتحدث العصور الحديثة، اليوم الحاضر، الذي له عقيدة أخرى ومهمة أخرى. سمعت ذات يوم في (كولونيا) أن غلاماً صغيراً سأل أمه لماذا لم يكملوا بناء الكنائس التي بنوها نصف بناء. كان غلاماً جميلاً قبلت عينيه الذكيتين، ولما عجزت

أمه عن إعطائه جواباً شافياً قلت له: إن الناس في هذا العهد لهم أعمال أخرى يعملونها.

غير بعيد من جنوى، ومن ذروة (الأبينان) يمكن أن ترى البحر، هذا الغطاء الأزرق بين ذرى القمم الخضراء والمراكب التي تراها تغدو وتروح وهي تمشي بأشرعتها المفتوحة على الجبال. عندما يفاجئك هذا المنظر في ساعات الغروب حين تشرع أواخر أشعة الشمس تقوم بألعابها السحرية مع أوائل ظلال المساء، وتكون كل الألوان وكل الأشكال تتلفع بشبكة من الغيوم، فأنت تترك نفسك دون إرادة تمضي في أوهام من أوهام الجان، والعربة تهبط وتدرج، وأحلى صور الروح المتخدرة، تتحرك، ثم تعود فتسقط في أحضان النوم. ثم تنتهي إلى الحلم بأنك في (جنوى).

(٣٠)

إنها مدينة بلا قِدَم، ضيقة دون ألفة، وقبيحة إلى أبعد حد. بنيت فوق صخرة، على سفح جبل مدرج يطل على أجمل خليج. وكذلك فقد تلقى الجنويون من الطبيعة خير مرفأ وأكثره اطمئناناً. وبما أن المدينة، كما قلت، مبنية على صخرة فقد وجب عليها، لتوفير المساحة، أن تجعل بيوتها عالية جداً وشوارعها ضيقة جداً حتى تكاد تكون كل هذه الشوارع قائمة، وليس فيها إلا شارعان يمكن أن تمر بهما العجلات. أما السكان فيكاد يكونون كلهم من التجار، والبيوت نفسها مخازن ودكاكين في النهار وغرف نوم في الليل. وهم طول النهار في العمل يركضون في المدينة أو يجلسون أمام الأبواب، أو على الأصح في الأبواب وإلا فستضرب ركبهم ركب جيرانهم أمامهم.

للمدينة مظهر أفضل إذا نُظر إليها من البحر وخاصة عند المساء، إنها تمتد على النهر كأنها هيكل أبيض لحيوان ضخم جانح، والنمال السود التي يسمونها (الجنويين) يتراكضون فيها في كل الاتجاهات، وتغسلهم أمواج البحر الزرقاء وهي تدندن بأغنية كأنها من أغاني المهد، والقمر، وهو عين الليل الصفراء، يرمقهم في حزن.

في حديقة قصر (دوريا) يمكن أن ترى بطل البحر القديم في صورة (نبتون) في بركة واسعة ولكن التمثال متآكل ومتكسر، والماء يغيض، والنوارس تتخذ أعشاشها في أشجار السرو السوداء التي تحف بالبركة. وكنت كأني طالب يعرف عن

ظهر قلب مسرحياته المأساوية باسم (دوريا) أتذكّر فوراً (فردريك شيللر) أنبل الألمان إن لم يكن أكبر شاعر فيهم. ورغم أن أكثر قصور أسلاف (جنوى) خربة فإنها تبقى مع ذلك جميلة جداً تفيض بالفخامة وكلها أو أكثرها تقع في شارعين اثنين يسميان (سترادنيوفا) و(بالبي). وقصر (دورازو) أبرزها، ويضم لوحات جميلة منها لوحة المسيح لـ(بول فيرونيز) التي تظهر فيها المجدلية تمسح قدميه بعد أن غسلتها. . . ولكنها وا أسفاه لاترفع عينيها. والمسيح هنالك مثل هاملت الديني: غوتو انونيري Goto a nunnery. رأيت هنالك بعض اللوحات الهولندية ونسخاً من لوحات روبنز الأساسية، وكلها مشبعة بمزاج هذا (التيتاني) الهولندي الرائع، الذي نجد لفكره أجنحة قادرة تستطيع أن تسمو حتى الشمس، رغم نوبات الجبن الهولندي التي تتدلى على ساقيه. إنني لم أستطع قط أن أمر بأصغر لوحة لهذا الفنان العظيم دون أن أدفع ضريبة إعجابي بها رغم أنه قد أصبح اليوم من الدرجة الجديدة ألا ينظر إليه إلا برفع الأكتاف بسبب فقدان المثل الأعلى، ومدرسة (ميونخ) التاريخية على الخصوص تبدو فظة في وجهة النظر هذه. وليس عليك إلا أن ترى في أي نبل واحتقار لائق يمر الطالب الكونيلي، ذو الشعر الطويل أمام بيير بول ــ روبنز: ولكن غلطة الطلاب يفسرها أن تتأمل التناقض الكبير بين (بيير كورنيلوس) بالنسبة إلى (بيير ـ بول ـ روبنز). لايمكن أن نتصور تناقضاً أكبر من هذا التناقض، ومع ذلك فأنا أتصور أحياناً أن بين هذين الفنانين المعلمين تشابهاً، تشابهاً حميًا أشعر به ولكن لا أستطيع تحديده، ولكنه قد ينبثق من هذه المزايا والصفات الوطنية التي يمكن أن يفهمها مواطن ثالث، هو أنا مثلا، كأنها تلك النبرات الحقيقية في لهجة مسقط رأس إنسان. وهذه القرابة السرية لايمكن أن تُستقرأ في روح الطفولة وفي دعارة اللون الهولندي، اللتين يبتسمان لنا في كل لوحات (روبنز) اللتين يخيل إلينا أنه رسمها خلال أبخرة خمرة الرين الطيبة، وخلال الدمدمات المرحة في موسيقى عيد الميلاد الصاخبة. الحق أن لوحات (كورنيليوس) تبدو وكأنها رسمت يوم جمعة مقدس عندما تكون أغاني انبثاق الروح القدسي القاتمة تملأ الشوارع وترن في مرسم الفنان وقلبه. ويتشابه الفنانان المعلمان أكثر من ذلك بوفرة الإنتاج، بالجرأة على الخلق، وبأصالة العبقرية. لقد ولد كلاهما فناناً، وهما ينتميان إلى تلك الحلقة من المعلمين الكبار الذين ازدهروا في عهد رافائيل، وهو عهد ما يزال يمارس تأثيراً مباشراً على روبنز، ولكنه عهد بعيد منفصل عن زماننا حتى يكاد يصيبنا الذعر عندما يبدو لنا (بيير كورنيليوس). يخيل إلينا أحياناً أننا نرى شبح أحد هؤلاء الرسامين الكبار في عهد رافائيل، خرج من

القبر ليرسم بعض اللوحات، إنه مبدع ميت استدعاه سحر الفتنة الذي دفن معه. إننا عندما نتأمل وجوه هذه اللوحات تبدو لنا وكأنها ترمقنا بعيون من عيون القرن الخامس عشر، والالبسة هي ألبسة تلك الأشباح التي تحتك بنا ونحن نسير في منتصف الليل. والأجساد لها كذلك طاقة سحرية، لقد رُسمت بحقيقة الحلم، بالحقيقة القاسية، لاينقصها إلا الدم، والحياة المتحركة، باللون. نعم إن (كورنيليوس) مبدع، ولكننا إذا فحصنا مخلوقاته اعتقدنا أن ليس واحد منها قادراً على الحياة أمداً طويلاً، وأنهم جميعاً رُسموا قبل ساعة واحدة من وفاتهم وأنهم يحملون في نفوسهم الاحساس السابق الأليم بنهايتهم القريبة. أما وجوه «روبنز» بغض النظر عن مرحها فإنها تثير في أرواحنا شعوراً مشابهاً. إنها تبدو هي أيضاً تحمل في صدرها بذرة الموت، وأنها هي أيضاً بسبب فيض الحياة فيها وحمرة لحمها يمكن أن تصاب فجأة بالاختناق. هذه هي فيما أخمن الألفة السرية التي نحسّ بها في دهشة كبيرة عندما نقارن بين هذين الفنانين المعلمين. إن فورة الطفولة في بعض وجوه (روبنز) والحزن العميق في وجوه (كورنيليوس) تؤثر فينا في شكل واحد. ولكن لماذا نجد هذا الحزن في لوحات (كورنيليوس) الذي هو أيضاً ابن الهولنديين المرحين؟ لعله القناعة المخيفة التي يضمرها لعهد مطوي منذ زمن بعيد لم تكن حياته إلا تكملة لمهمته بعد وفاته. لأنه، واأسفاه لم يكن الرسام الوحيد الذي يعيش في هذه الفترة وإن كان يمكن أن يكون آخر فنان عليه أن يرسم على هذه الأرض. لقد امتدت قبله وحتى أيام (كاراش) فترة طويلة من الظلام، وانغلقت الظلال بعده. لقد كانت يده ألمع يد يملكها فكر، ولكنها كانت يداً معزولة في ليل الفن، والوجوه التي رسمها تحمل الحزن الذي يسبر غوره لمثل هذه العزلة. لم أستطع قط أن أتأمل دون رعشة سرية من الخوف، يد هذا الرسام الأخير عندما كنت أرى في (ميونخ) الرجل نفسه، هذا الرجل الصغير الحاد ذو العينين الحاميتين. كما كانت هذه اليد توقظ في نفسي شعور التقوى الواثقة، وعندما أتذكر أنها تقدم في طيبة فوق هذه الأصابع الصغيرة وتساعدني على تخطيط بعض الحواشي في وقت كنت فيه، وأنا طفل، أتعلم الرسم في أكاديمية الفنون الجميلة في (دوسيلدورف).

(٣١)

لا أستطيع التملص من ذكر مجموعة اللوحات للجنويات الجميلات التي تعرض في قصر (دورازو)، لاشيء يمكن أن يلقي بنا في غمرة أكثر حزناً من منظر أولئك النساء الجميلات اللواتي متن منذ عدة قرون. لقد جمدتنا فكرة أن صاحبات

هذه اللوحات الأصيلات، كل هؤلاء النساء الجميلات بمثل هذا الظرف، وهذه الدعابة وهذه الروح الخفيفة والذكاء اللماع واللطف، كل هذه الرؤوس من شهر أيار وهذه الرعشات الممطرة في شهر نيسان، كل هذه الأمور لم يبق منها إلا هذه الظلال المبرقشة خطها رسام، مضى كما مضت، ولونها على قطعة مرتبة من قماش سيء تسحب وتسقط هي أيضاً غباراً على يد الزمن. هكذا تختفي، دون أن تترك أثراً لها، كل حياة الجمال مثل القبح سواء بسواء، والموت، وهو متحذلق جاف، لايوفر الوردة أكثر مما يوفر الجمرة، بل إنه لاينسى حتى اللبلابة الوحيدة في الصحراء البعيدة، وهو يخرب كل شيء تخريباً جذرياً، ودون هوادة. ونحن نرى في كل مكان كيف يقضم النباتات ويحيلها إلى غبار. كما يقضم الحيوانات والناس وآثارهم معهم. تلك الإهرامات المصرية التي خيل إلينا أنها تحدث غيظه في التخريب ليست إلا تذكارات لقدرته، آثاراً في أيدي العدم، قبوراً للملوك قديمة.

وفكرة أخرى أكثر سوءاً من التدمير المستمر من هاوية مخيفة للموت تفتح فاهاً دائماً إننا نحن أنفسنا سوف نهلك لا على اعتبارنا نماذج وأصولاً ولكن على أساس أننا نسخ لأناس اختفوا منذ زمن بعيد، كانوا يشبهوننا جسداً وروحاً. وأنه سيولد بعدنا أناس مثلنا لهم ملامحنا وعواطفنا، بل وأفكارنا، وأنهم سوف يبيدهم الموت كما أبادنا. يا لها من لعبة مؤلمة خالدة مكرورة لاتزال الأرض الخصبة مجبرة فيها على الانتاج دون هوادة أكثر مما يمكن للموت أن يدمر، حتى إنها في سرعة هذا الانتاج لايمكن أن تهتم إلا ببقاء الأنواع أكثر من اهتمامها بأصالة الأفراد.

لقد شعرت أني ارتعش بهذه الفكرة ارتعاشاً يتغلغل في كل نفسي عندما رأيت في قصر (دورازو) صور الجميلات الجنويات، ومنهن واحدة في لوحة أحدثت في روحي عاصفة رقيقة ما تزال أجفاني ترتجف إذا فكرت فيها... هي صورة ماريا الميتة. كان حارس المتحف يعتقد حقاً أن هذه الصورة تمثل إحدى دوقات (جنوى) وأضاف في لهجة خطابية: ـ لقد رسمها (جيورجي بارباريلي داكا ستل فرانكو) في تريفيسان ـ الملقب جيورجيون، كان من أكبر فناني مدرسة البندقية. ولد عام ١٤٧٧ ومات عام ١٥١١، ـ حسناً يا سيدي الحارس. اللوحة توحي بشبه كبير. صحيح أنها رسمت منذ قرون سلفت، ولكن هذا ليس نقصاً فيها. الرسم صحيح، واللون ممتاز. وحوافي الصدر كاملة. أرجو أن تسمح لي من فضلك أن أنتزع دقيقة واحدة هذه اللوحة. لا أريد إلا أن أنفخ لأزيل الرماد عن هاتين الشفتين، وأن أطرد هذا العنكبوت الجاثم في زاوية الإطار... لقد كانت ماريا

تخاف كثيراً من العناكب. ــ يظهر أن سعادتك خبير! ــ لا أعرف يا سيدي الحارس، ولكن لي ميزة أن تهزني رؤية بعض اللوحات وأنا أحسّ بشيء من الرطوبة والبلل في عينيّ، ولكن ماذا أرى؟ من هذا الرجل في المعطف الأسود الذي تعلق لوحته تحت هذه اللوحة؟ ــ انها أيضاً من رسم (جيورجيون)، إنها إحدى روائعه. ــ أرجو أن تتفضل يا سيدي بانتزاع هذه الصورة ووضعها لحظة عند النافذة لكي استطيع مقارنتها ومعرفة إذا كنت أنا أشابه هذه اللوحة. ــ سعادتــك لم تكن شاحباً كما أنت الآن. هذه اللوحة إحدى روائع (جيورجيون) لقد كان هذا الفنان نداً لـ(تيتيان) ولد عام ١٤٧٧ ومات عام ١٥١١.

أيها القارىء العزيز: أنا أفضل كثيرا الـ(جيورجيون) على الـ(تيتيان)، وأنا مدين له ديناً خاصاً لأنه رسم (ماريا) من أجلي. وستعرف دون شك كما أعرف أ جيورجيون رسم هذه اللوحة من أجلي لا من أجل عجوز جنوي لا أعرفه. الحق أنها ذات مشابة عجيبة، مشابة حتى في صمت الموت، حتى إنها لاينقصها حتى تعبير الألم في العيون، هذا الألم لوجع يُتصور ويحُلم به أكثر مما يحُسّ به، والذي يعسر جداً تصويره، الصورة كلها كأنها تتنفس على اللوحة، والرجل ذو المعطف الأسود مرسوم رسمًا دقيقاً، شفتاه العاطفيتان في خبث قبض عليهما الفنان، إنهما تتكلمان وتهمان أن تحدثانا بقصة... إنها قصة الفارس الذي أراد أن يبعث إلى الحياة حبيبته بقبلة من فمه. وعندما انطفأت الشعلة....



حمامات (لوكس)

(١)

عندما دخلت غرفة (ماتيلدا) كانت قد زررت آخر زرّ في ثوبها الأخضر وكادت تضع قبعتها ذات الريش الأبيض على رأسها ولكنها عندما رأتني ألقت بها بعيداً وهرعت إلي وتركت جدائل شعرها الذهبي تتموج. وصرخت: ـ يا دكتور السماء والأرض. ثم أمسكتني من أذني، حسب العادة القديمة، وقبلتني في مودة مضحكة. ـ كيف حالك يا أكثر الناس جنوناً؟ ما أسعدني بلقائك، لأني لم أجد في مكان ما من هذا العالم دماغاً أكثر خراباً من دماغك. الحمقى والبلهاء تجدهم في عدد وفير وهم يتلقون غالباً شرف اعتبارهم مجانين. ولكن الجنون الحقيقي نادر ندرة الحكمة الحقيقية ربما لم يكن هذا الجنون إلا الحكمة التي أحزنها ما تعرف من حقارات هذا العالم، فاتخذت أحسن السبل وأحكمها لكي تصبح مجنونة. الشرقيون أناس معقولون واعون جداً فهم يمجدون المجنون مثل الرسول. أما نحن فنرى كل الرسل مثل مجانين. ـ ولكن لماذا لم تكتبي إلي يا سيدتي. ـ الحق يا دكتور أني كتبت لك رسالة طويلة وسجلت عنوانها: لايصالها لصاحبها في (نيوبدلام) ولكنك لم تكن هناك، فأرسلوا الرسالة، على عكس كل توقع، إلى (القديس لوقا) ولم يجدوك فيها أيضاً. وذهبت الرسالة إلى مؤسسة أخرى مشابهة وهكذا طافت بكل بيوت المعتوهين في (انكلترا) و(ايكوسيا) و(ايرلندا) وأعادوها أخيراً إليّ مع ملاحظة أن السيد الوارد أسمه في العنوان لم يدخل المستشفى حتى الآن. والواقع، كيف استطعت أن تبقى حراً حتى الآن؟ ـ لجـأت إلى الحيلة يا سيدتي. كنت في كل مكان أذهب إليه أقوم بفن الطواف حول بيوت المجانين، وأظن أني نجحت في ذلك في ايطاليا أيضاً. ـ أوه يا صديقي أنت هنا في أمان، فليس في جوارنا بيت

للمجانين، ونحن هنا الأكثرية. ــ تقولين: نحن يا سيدتي وتضعين نفسك بيننا. اسمحي لي أن أطبع على جبينك قبلة أخوية ــ آه أريد أن أقول إننا نحن السابحات، وأنا ما أزال أكثرهن عقلاً... ومن هنا فكر قليلاً في أكثرنا جنوناً، في (جولي ماكسفيلد) التي لاتكف عن التأكيد أن العيون الخضر تعني ربيع الروح، ثم إننا الآن نضم صبيتين جميلتين. ــ لاشك يا سيدتي أنهما جميلتان انكليزيتان؟ ــ دكتور، ماذا تعني هذه اللهجة الساخرة؟ أترى إذن أن الوجوه الصفر المعكرونية في ايطاليا تبدو لك ذات مذاق طيب حتى لاتشعر بشيء في الجميلات البريطانيات؟.... ــ ذوات الزغب، وعيون العنب وحلوق اللحم المشوي مع عصابة من الخردل بيضاء، ومعجنات متعرجفة.... ــ لقد عبر بك زمن يا دكتور كنت فيه مسحوراً كلما رأيت جميلة انكليزية. ــ أوه. نعم لقد كان ذلك وما أزال مستعداً للثناء على مواطناتك: إنهن جميلات كالشموس، ولكنهن شموس من الجليد، بيضاوات مثل الرخام... ولكنهن باردات كالرخام. وعلى قلوبهن الجليدية تتجمد المخلوقات المسكينة الصغيرة ذوو اللون الأسمر. ــ أوه أوه أنا لا أعرف واحداً منهم تجمد، بل إنه، وهو طري هادىء، قطع البحر، وما يزال كبيراً، وقحاً ألمانياً... ــ ولكنه على أقل تقدير أصابه برد كثير في جليد القلوب الانكليزية... حتى إنه اليوم مصاب بالزكام. يبدو أن السيدة وخزها هذا الجواب. وأمسكت بسوطها الذي وضعته علامة بين أوراق رواية وجعلت تجر به حول أذني جوادها الأبيض الذي كان يحمحم، ثم التقطت في حماسة قبعتها ووضعتها في عناد على رأسها المجدول، ونظرت إلى نفسها مرات في المرآة وقالت في كبرياء. ــ ما أزال جميلة ثم توقفت فجأة مفكرة في أسى. وسحبت قفازها الأبيض من يدها وأمسكت في سرعة البرق فكرتي عما تفعل وقالت: ــ : أليس صحيحاً أن هذه اليد ليست جميلة كما كانت قبل في (رامسجات). لقد تألمت (ماتيلدا) كثيراً منذ ذلك الوقت!

يا عزيزي القارىء، ليس من السهل أن نعرف في أي مكان يمكن أن تتشقق الأجراس، أصواتها هي التي تنذرنا. حسناً لقد سمعت اللهجة في الصوت الذي نطق بالكلمات الأخيرة وعرفت فوراً أن قلب السيدة قلب من معدن صاف ولكن فيه شقاً خفياً يخنق الاهتزازات المرحة وأقنعة لحزن غريب... ومع ذلك فأنا أحب هذه الأجراس. إنها تجد دائماً في قلبي صدى لطيفاً... لثمت يد السيدة في لطف ربما كان أكبر من قبلات الزمن الماضي. رغم أن هذه اليد أصبحت أقل امتلاء

وأن عروقها تبدو ذات زرقة واضحة وكأنها تقول لي: لقد تأملت ماتيلد كثيراً منذ ذلك الوقت! حدقت بي عينها وكأنها نجمة وحيدة في سماء الخريف وقالت لي في حساسية ورقة: ــ يبدو لي أنك تحبني أقل مما أجبتني، لأن دمعتك سقطت على يدي أشفاقاً وكأنها صدقة. ــ ومن أذن لك في تفسير لغة دموعي الخرساء هذا التفسير الخاطىء. أراهن أن هذا الكلب الأبيض الذي يدور حولك الآن يفهمني خيراً منك، إنه ينظر إلي ثم إليك. ويظهر أنه يتعجب من أن الرجال، وهم سادة الخلق المتكبرون، يكونون أشقياء جداً شتاء كاملاً في أعماق قلوبهم. وا أسفاه يا سيدتي. لاتنتزع دموعنا من عيوننا إلا مثل هذه الآلام، لا أحد يبكي حقاً إلا لحسابه الخاص. ــ كفى، كفى يا دكتور، من الخيـر، على أقل تقدير أن نكون من عصر واحد وأننا التقينا فـي زاوية واحدة من الأرض مع دموعنا المجنونة. آه: يا للتعاسة لو كنت عشت أنت قبل مائتي عام، كما حدث لي مع صديقي (ميشيل سرفانتس دو سافدرا) أو لو كنت ستعيش في العالم بعد قرن، مثل واحد من أصدقائي الحميميـن الذين لا أعرف حتى أسماءهم لسبب واحد هو أنه لن يلد واحد منهم إلا في عام ١٩٠٠. ولكن قل لي الآن كيف قضيت أيامك منذ افترقنا. ــ تابعت مهنتي المعتادة أن أدحرج الصخرة الكبيرة دائماً، وعندما أصل بها إلى منتصف الجبل كانت تتدهور فجأة حتى تصل إلى آخره، فوجب علي مرة أخرى أن أصعد بها... وهذا التدهور والصعود من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى يتكرران حتى انتهيت إلى البقاء تحت الصخرة الكبيرة، وعندئذ كتب النحات عليها بأحرف كبيرة هنا يرقد في الله... الخ.. ــ Corpo di Bacco، يا دكتور لن أترك لك راحة. فأرجو ألا تكون حزيناً. أضحك وإلا... ــ لا لا تدغدغيني ... أحب أن أضحـك أنا نفسي. ــ كان هذا فعلاً أول تقارب بيننا. من سعادتنا أننا التقينا، والحيوان الألماني الكبير سيكون مسروراً إذا غامر بحياته قربك. ابتسمت عينا السيدة كأنها شعاعان من الشمس وراء غيمة مطر خفيفة، وانطلق مزاجها الطيب في أشعة جديدة، وعندما دخل جون، وأعلن في فخـامة أكـثر الخدم شراهة، قدوم صاحب السعادة (كريستو فو دي جومبيلينو) ــ أهلا بهـ ــ وأنت يا دكتور سوف تتعـرف إلى زوج من مملكتنا مملكـة المجانـين. لايصدمـك منظره الخارجي، ولاسيما أنفه، إنه إنسان يتمتع بصفات ممتازة، مثلا، إنه واسع الثراء وربما الفكر، وسوسة جمع كل غرائب العصر. ثم إنه عاشق لصديقتي (جولي ماكسفيلد) ذات العيون الخضر، ويدعوها (جولييت) ويدعو نفسه (روميو) ويناديها

ويتنهد.. أما اللورد (ماكسفيلد) صهرها الذي عهد زوج المخلصة (جولييت) إليه بحمايتها فهو (آرغوس)....

كدت ألاحظ أن (آرغوس) كان يرعى بقرة ولكن الباب فتح على مصراعيه، ودخل، وياللدهشتي الكبرى، صديقي القديم المصرفي (كريستيان كامبل) بابتسامته الراضية وبطنه الكبير. وعندما اكتفى بمسح شفتيه السمينتين اللامعتين بيد السيدة وشرع يسرد الاسئلة الصحية المعروفة، رآني فعرفني، وألقى الصديقان نفسيهما في الأحضان.

(٢)

النصيحة التي نصحتني بها السيدة ألا أصدم بأنف هذا الإنسان كانت نصيحة مبنية على أساس صحيح، ولولا قليل لسمل هذا الأنف عيني. ومع ذلك فلا أريد أن أتحدث عنه بشيء سيء، بل على العكس كان من أنبل الناس شكلاً، كان يسمح لصديقي أن يتخذ لقب مركيز على أقل تقدير، لأننا نعرف في سهولة، في هذا الجزء من الوجه أن الرجل من طبقة النبلاء وأنه منحدر من أسرة قديمة قدم العالم، كان الله الطيب من أقربائها دون أن يخاف عدم التكافؤ. الحق أن هذه الأسرة قد أصيبت بتخلف منذ زمن ولاسيما بعد تولي (شرلمان) وكان عليها أن تكسب خبزها بصنع سراويل قديمة وبيع تذاكر يانصيب (همبورغ) ولكنها لم تفقد شيئاً من كبريائها النبيلة ولا أملها في أن تستعيد يوماً خيرات أسلافها أو على أقل تقدير تعويض المهاجرين. عندما ينفذ حاكمها الشرعي العجوز وعده بالاصلاح، وهو وعد يقود به هؤلاء الناس منذ ثمان عشرة من مئات السنين من أنوفهم. ولعل هذه الأنوف لم تصبح طويلة هذا الطول إلا بسبب هذه النزهة الطويلة، أو لعل هذه الأنوف الكبيرة ليست إلا شكلاً من الزي الأنفي يعرف فيه الرب ملك إسرائيل حرسه الشخصي القديم حتى إذا فروا من حراسته. إن المركيز (جومبيلينو) أحد هؤلاء الآبقين الفارين ولكنه يلبس دائماً لباسه العسكري اللماع الذي تزرعه صلبان صغيرة ونجوم صغيرة من الياقوت، وأكثر من نسر أحمر مصغر، وغير ذلك من الأوسمة والنياشين.

قالت السيدة: أترى. هذا هو الأنف المفضل عندي، ولست أعرف في العالم زهرة أجمل منه.

وقال (جومبيلينو): ــ لست أستطيع أن أضعه على صدرك الجميل دون أن

أضيف إليه وجهي المزدهر، وربما كانت هذه الإضافة تزعجك بحرارتها، ولكني حملت إليك زهرة أخرى لاتقل عنها جمالاً وهي نادرة هنا... وعند هذه الكلمات فضّ المركيز علبة من ورق الحرير التي حملها وسحب منها في حذر شديد زهرة خزامى رائعة. لم تكد السيدة ترى الزهرة حتى جعلت تصيح بملء صوتها: — قاتل... قاتل... أتريد أن تقتلني؟ خلصني من هذا المنظر المرعب! وجعلت تتصرف كأنه ريد حقاً قتلها وتضع يديها أمام عينيها وتهرع كأنها مجنونة وتدور في الغرفة. وتلعن أنف (جومبيلينو) وزهرته وتقرع الجرس وتضرب الأرض برجليها والكلب بسوطها، فجعل يعوي ويزعق.... وأخيراً عندما دخل (جون) صرخت كما صرخ الخان في رواية ريشارد الثالث:

حصان حصان
مملكتي من أجل حصان

وخرجت من الغرفة في سرعة كأنها إعصار.

وقال (جومبيلينو): وقد جمدته الدهشة وأمسك زهرته بيده، فجعل يشبه بذلك تلك التماثيل التي نراها وهي تمسك بزهرة «لوتس» في آثار مصر القديمة: — يالها من امرأة غريبة. أما أنا فكنت أعرف نفور السيد من أزهار الخزامى، وذلك ما يجهله المركيز، وهو يتخيل أنه كان أكثر حظوة في القبول عندما يرسل إليها الأزهار عند طريق خادمها، وذلك ما يكلفه غالياً لكي لاتضطر السيدة إلى قبوله. لقد ألهاني هذا المنظر وأسلاني إلى أبعد الحدود، ومع ذلك فقد فتحت النافذة وصرخت: — يا سيدتي! بماذا أحكم عليك؟ أمن المعقول، أمن المناسب؟ بل هل من الصداقة؟ وعندئذ ، وفي غمرة من الضحك، ألقت إلي بهذا الجواب المجنون: عندما أكون على ظهر الحصان فسوف أقسم لك إني أحبك حباً لا نهاية له!

(٣)

وكرر (جومبيلينو): امرأة غريبة! ونحن نمضي في طريقنا لزيارة صديقتيه السيدة (ليتيزيا) والسيدة (فرانسسكا) اللتين أراد أن يعرفني بهما. وكان بيت السيدتين قائماً على مرتفع بعيد قليلاً فأتيحت لي فرصة مراقبة طيبة صديقي السمين، الذي وجد أن النزهة في الجبال صعبة إلى حد ما فكان يقف عند كل تل ليسترد أنفاسه ويتنهد ويقول: يا مسيح. يا طيب!

مباني حمامات (لوكس) تقع في قرية تحيط بها جبال عالية، وعلى جبل من هذه الجبال غير بعيدة عن النبع الأصلي. إنها مجموعة بيوت ريفية تطل على هذا الوادي الرائع. ولكن هنالك حمامات معتزلة متناثرة على المنحدرات يصعب التسلق إليها خلال دوالي العنب وأشجار الصبار وأزهار العسل والغار والزيتون وإبر الراعي وغيرها من الأزهار والنباتات النبيلة، إنها حقاً جنة متوحشة، لم أر في حياتي وادياً أكثر منها سحراً ولاسيما عندما تجيل نظرك في القرية وأنت واقف فوق سطح الحمام الأعلى حيث تنمو أشجار سرو داكنة. وسترى من هنالك الجسر الذي يقطع نهراً صغيراً يسمونه (ليبا) يقسم القرية شطرين ثم يسرع في نهايتها إلى تشكيل شلالات صغيرة فوق كتل من الصخور ويطلق ضجة كبيرة كأنه يريد أن يقول لك أجمل الأشياء ولكن صوته يغطي دون انقطاع ما في الأصداء من ثرثرة منوعة.

يقوم السحر الاساس في هذا الوادي أنه ليس كبيراً جداً ولا صغيراً جداً وأن روح مشاهده لاتشعر أنها سائبة بشكل قاسٍ ولكنها تجد نفسها على عكس ذلك مفعمة تماماً بهذا المشهد الرقيق. وقمم الجبال نفسها. مثل سائر سلسلة جبال (الأبينان) لاتشوهها تقطعات كبيرة، كما في الجبال التي نجدها في البلاد الجرمانية ولكنها تسلسل في أشكال دائرية خضراء كأنها تعبر عن حضـارة فتية وتنسجم انسجاماً موسيقياً مع زرقة السماء الشاحبة.

قال (جومبيلينو) وهو يتنهد: يا مسيح، يا طيب، وقد بعثت فيه الحرارة شمس الصباح وصعود تلة مرهق، لأنا بلغنا تل السرو الذي ذكرنا وخفضنا عيوننا نحو القرية فرأينا صديقتنا الانكليزية، وهي مستقيمة العود فخورة تمتطي حصانها وتمر وكأنها تبدو جنية تخب فوق الجسر ثم تمضي سريعاً. ــ أوه! يا مسيح، يا طيب، يا لها من امرأة غريبة. . . . ذلك ما ردده المركيز مراراً. في حياتي لم ألق لها نظيراً، لايمكن أن نجد لها مثيلاً إلا في المسرحيات الهزلية. وأظن أن (هولز بيشر) تلعب هذا الدور في أعجوبة. إن فيها شيئاً من حوريات البحر. ما رأيك؟ ــ أظن أنك على حق يا جومبيلينو. عندما قمت معها بالرحلة ما بين (لندن) إلى (امستردام) قال لي قبطان المركب إنها تشبه وردة مرشوشة بالاجاص. ولكي تشكره على هذا التشبيه الواخز سكبت فوق رأسه قطرميزا من الإجاص عندما رأته نائمًا في مقصورته، حتى ما كنا نستطيع الاقتراب منه إلا عطس، يا له من مسكين. وردد جمبيلينو: يا لها من إمرأة غريبة، ناعمة مثل الحرير بيضاء وقوية، إنها على ظهر حصانها ثابتة مثلي. على أن لاتخرب صحتها في النهاية. ألم تر الرجل الانكليزي الطويل النحيل الذي

يخب وراءها بحصانه الهزيل، مثل مصاب باحتقان الرئة؟ إن هذا الشعب ينصرف إلى هذا التدريب في حماسة وينفق كل أموال العالم على الخيول. حصان السيدة الأبيض كلفها ثلاثمائة لويس ذهبي عداً ونقداً. . آه واللويس الذهبي غال جداً وهو يزداد غلاء يوماً بعد يوم. ـ نعم إن اللويس الذهبي يرتفع سعره حتى إن أهل الأدب المساكين من أمثالي لايستطيعون الوصول إليه. ـ لانستطيع يا دكتور أن تتصور مقدار المال اللازم عليّ أن أنفقه، رغم أني أكتفي بخادم واحد. ولكن عندما أكون في روما أدفع عـلاوة على ذلك أجرة كاهن في كنيستي الخاصة. انظر ها هوذا خادمي (هياسانت) قادم إلينا.

إن الوجه النحيل الذي بدا في منعطف أحد المرتفعات يستحق على الأكثر اسم «عود الصليب»، كان يلبس ثياباً عريضة رجراجة من القماش القرمزي تغطيه شرائط ذهبية تلمع في أشعة الشمس، ومن بين هذه الأبهة الحمراء يطل رأس صغير يتصبب عرقاً ويشير بتحية كأني صديق قديم. والواقع أني عندما حدقت من قريب بهذا الوجه النحيل عرفت فيه واحداً طالما انتظرته على جبل سينا مثلما انتظرته على جبال الأبينان، لم يكن إلا (هيرش) البرجوازي الصغير في (هامبورغ) الذي لم يكتفِ بالتجول لبيع تذاكر اليانصيب، ولكنه كان مشهوراً في نفخ الأبواق وفي الألعاب والدمى، حتى إنه لايميز الأولى عن الثانية فحسب بل يستطيع أن يقلد الأبواق في مهارة وأن يقدر الدمى حق قدرها. قال لي عندما اقترب مني: ـ أرجو أن تكون قد عرفتني، رغم أني لا أدعى الآن (هيرش) وأدعى الآن (هياسانت) وأنا فعلاً حاجب غرفة السيد (كامبل). وصرخ كامبل: اوه يا مسيح. اسكت. . . اسكت. . . سآخذ خادماً غيرك. وأجاب هيرش هياسانت: ولماذا اسكت. لقد سرني أن أتكلم اللغة الألمانية الصحيحة مع وجه رأيته من قبل في (هامبورغ) وعندما أفكر في (هامبورغ). . . . جعلت ذكرى وطنه مسقط رأسه عيني الرجل الصغيرتين تومضان وميضاً رطباً ندياً، وقال وهو يتنهد: ـ ما الإنسان! سنمضي نتجول في سرور أمام باب (آلتونا) وسنـرى أشياء مثيـرة، وآسـاداً وعصافـير وببغاوات وقروداً ورجالاً عجيبين، وسنشهد العاب الفـروسية والخـطب الرنـانة وسنقول: إني جد مسرور في بلد بعيد عن (همبورغ) ألفي ميل، في بلد ينبت فيه البرتقال والليمون، في ايطاليا. ما الإنسان! إنه أمام باب (آلتونا) يريد أن يكون في ايطاليا، وعندما يكون في ايطاليا يريد أن يعود إلى باب (آلتونا) آه! ليتني ما أزال هناك. ليتني ما أزال أرى برج القديس (ميشيل) تعلوه تلك الساعة بأرقامها

الذهبية الكبيرة على مينائها، هذه الأرقام الذهبية الكبيرة التي طالما تأملتها عندما تلمح في حبور في أشعة الشمس. طالما أردت أن أقبلها، أن أقبل الأرقام الذهبية. ولكني وا أسفاه في ايطاليا بلد البرتقال والليمون، وعندما أرى البرتقال والليمون ينبتان أفكر في (شتاينفيغ) في (هامبورغ) التي يتكدس فيها البرتقال والليمون أكداساً، وتستطيع أن تشتري منها ما تشاء دون أن تحتاج إلى كسر عنقك في تسلق الجبال وتحمل هذه الحرارة اللاهبة. الحق يا سيدي، والله شاهد أني لم أتبعك إلى هذا البلد إلّا طمعاً في الشرف والحضارة، يجب أن نعترف أننا ننال الشرف بك وتتوطد صفاتنا. قال جمبيلينو، وقد لطفه هذا الثناء: هياسانت... اذهب الآن إلى... — أعرف. — أقول لك أنت لا تعرف يا هيا سانت. — وأقول لك يا سيد كامبل إني أعرف. سعادتك تريد أن ترسلني الآن إلى السيدة ماكسفيلد... لاحاجة بك إلى أن تقول لي أوامرك، إني أعرف أفكارك حتى قبل أن تكون لديك أفكار حتى تلك الافكار التي لاتخطر لك على بال طوال حياتك. لن تجد خادماً مثلي في سهولة، ثم إني أقوم بالخدمة رغبة في الشرف والحضارة، والواقع أن أنال الشرف عندك وأتكون.. قال ذلك ثم مسح أنفه بمنديل شديد البياض. قال كامبل: هياسانت ستمضي الآن إلى السيدة جولي ماكسفيلد، عند صديقتي جوليا، وستحمل إليها زهرة الخزامى هذه ... واحرص عليها. فهي تكلف خمسة (باولي)... وستقول لها... — أعرف ما سأقول.... — لاتعرف شيئاً... قل لها إن الخزامى بين الأزهار — أعرف. تريد أن تقول لها شيئاً بلغة الأزهار... لقد كنت أقوم بهذه الرموز عندما كنت أبيع بطاقات اليانصيب. — قلت لك يا هياسانت... أنا مستغن عن رموزك. احمل هذه الزهرة إلى السيدة ماكسفيلد وقل لها:

الخزامى بين الأزهار
مثل جبنة (ستراشينو) بين الأجبان
ولكن جمبيلينو مولع بك
أكثر من ولعه بالجبن والأزهار

وصرخ (هياسانت) — ما أحسن هذا... أقسم لك بالله القادر على أن يهب لي كل الثروات. ولكن لاتشر إلي إشارات يا سيدي المركيز، فأنا أعرف ما تعرف، وأنت تعرف ما أعرف: — وأنت ياسيدي الدكتور هل صحتك جيدة. لا أريد أن أذكرك بعض الأمور الصغيرة.

قال ذلك وهو يهبط التل ويدمدم دون انقطاع: جمبيلينو... ستراشينو...

ستراشينو. . . جمبيلينو. قال المركيز: ــ إنه رجل مخلص، ولولا ذلك لسرحته منذ أمد طويل. . . بسبب فقدانه لأصول اللباقة ولكن لا تأثير لذلك أمامك. أنت تفهمني. . . كيف تجد راتبه؟ إن راتبه يزيد ٤٠ تالير على راتب أمثاله من خدم روتشيلد. الحق أني مسرور عندما أرى هذا الانسان المسكين يتقدم في صحبتي. أعطيه أنا بنفسي من حين إلى حين دروساً في الحضارة. طالما قلت له: ما الدرهم؟ الدرهم مستدير ويجري في سرعة، لو اني ــ لاسمح الله ــ أضعت مالي فسأبقى خبيراً كبيراً في شؤون الفنون. خبيراً في الرسم والموسيقى والشعر. تستطيع أن تعصب لي عيني وأن تقودني إلى متحف (فلورنسا) وإلى كل لوحة فيه تضعني أمامها فسأذكر لك اسم الرسام الذي رسمها أو على أقل تقدير اسم المدرسة التي ينتمي إليها هذا الفنان. أما الموسيقى. فسدّ أذني وأعدك مع ذلك أن أميز كل الألحان الخاطئة. والشعر؟ إنني أعرف كل ممثلات ألمانيا وأعرف كل الشعراء عن ظهر قلب. والطبيعة لقد قطعت مائتي ميل، أسافر ليلاً ونهاراً لأذهب إلى (أيكوسيا) وأرى جبلاً واحداً. ولكن ايطاليا فوق الجميع. كيف تجد هذا الجزء من الطبيعة. يالها من مخلوق! انظر إلى الأشجار والجبال والسماء والماء هناك. . . أليس في ذلك كله شكل من أشكال الرسم. أرأيت خيراً من ذلك في المسرح. نكاد نصبح شعراء. الأبيات تأتيك أفواجاً:

السهل يستريح، وأغنية الغابات تتلاشى
يسكت السهل في نقاب غروب المساء
ولكن هنا بين الجدران العتيقة
يصرخ صرصور في كآبة

أطلق المركيز هذه الكلمات الرائعة في هيجان عامر وهو يلقي نظراته المسحورة على الوادي الضاحك الذي يشع بنور شمس الصباح.

(٤)

كنت أسير صباح يوم جميل من أيام الربيع متنزهاً تحت ظلال الزيزفون في (برلين) فرأيت أمامي امرأتين ساكتتين مدة طويلة حتى قالت إحداهما في زفرة مرهقة: ــ أوه! يا لخضرة الأشجار. وعند ذلك قالت لها الأخرى وهي صبية في دهشة طفولية. ــ ماما، ما تصنع بك خضرة الأشجار؟ لا أستطيع أن أمنع نفسي من ملاحظة أن هاتين الشخصيتين لاتلبسان ثياباً من الحرير، ولكنهما لاتنتسبان مع

ذلك إلى غمار الشعب، فليس في (برلين) من هم من غمار الشعب، إلا أن يكونوا من أعلى الطبقات فيها. أما هذا السؤال الساذج فلم يغادر ذاكرتي. في كل مكان ألحظ فيه واقعياً عاطفة مزورة عن الطبيعة، ورياء أخضر من هذا النوع يعود إلى ذهنـي سؤال هذه الفتاة البرلينية تصحبه ضحكة صاخبة. أسمع في داخلي هذه الضحكة خلال صرخات المركيز، وقد لاحظ السخرية على شفتيّ فصرخ في مرح: لاتزعجني، أنت لاتمتلك عاطفة الطبيعة الصافية. أنت إنسان ممزق، روح ممزقة، وإذا صح القول أنت (بيرون).

يا قارئي العزيز أأنت من هذه العصافير النقية التي تصطخب وترتل هذه الصلوات من التمزق البيروني. التي تلقيها وتزقزقها بكل الوسائل في أذني منذ أكثر من عشر سنوات، والتي وجدت صداها كما رأيت حتى في دماغ المركيز؟ وا أسفاه يا عزيزي القارىء لو أردت أن ترثي لهذا التمزق فخير لك أن ترثي لهـذا العالم الممزق شطرين. وبما أن قلب الشاعر هو النقطة المركيزة للعالم فعليه في زمننا هذا أن يشعر أنه ممزق تمزقاً أليمًا. وهذا الذي يدعي أنه يحتفظ بقلبه كاملاً سالماً، فهو يعلن فقط أن له قلباً نثرياً معتزلاً فـي زاويته. أما قلبي فقد اقتسمه تمزق العالم الكبير وتوزعه، ولهذا فأنا أعترف أن الآلهة الكبرى قد خصتني بنعمة كبيرة دون كثير من الناس إنها حكمت علي بأني أهل لشهادة الشاعر وعذابه.

في الأيام الخالية كان العالم قطعة واحدة. في القديم وفي القرون الوسطى. ورغم النزاعات الخارجية كانت هنالك دائمًا وحدة للعالم. كـان هنالـك شعراء تامون. لنمجد هؤلاء الشعراء ولنتمتع بعبقريتهم. ولكن كل تقليد لوحدتهم إنما هو أكذوبة، أكذوبة تتجلى للعيون البصيرة، ولاتنجو من السخرية. منذ قليـل استطعت أن أحصل بعد كثير من العناء في برلين على أشعار هؤلاء الشعراء التامين الذين طالما رثوا لتمزقي البيروني، وفي وسط الأكاذيب الخضراء والعواطف الرقيقة عن الطبيعة التي كان أريجها يصعد إلى رأسي أحياناً مثل الكلأ الجديد، كان على قلبي الممزق أن يتفجر تماماً ولكن ضحكاً، وهكذا صرخت دون إرادة: يا سيدي العزيز المستشار العدلي (وليم نومان) ماذا صنعت لك خضـرة الأشجار؟ وردد المركيز: أنت إنسان ممزق، أو على الصحيح أنت بيرون. ثم غمس نظرة إنسان محتار ملهم في الوادي ولطع لسانه مراراً على قصره إشارة إلى إعجاب تقي به: — يالله، يالله.. كل ما أراه يبدو وكأنه لوحة...

يا بيرون المسكين، مثل هذه الأشكال من المتعة الصافية كانت محرمة عليك.

أكان قلبك متفسخاً مقسمًا إلى درجة أنك لم تستطع رؤية الطبيعة، وأنك استطعت أن تصورها فحسب؟ وهل كان (بيشي شيللي) على حق عندما قال إنك فاجأت الطبيعة في عريها الطاهر، ولذلك ومن أجل هذه الجريمة مزقتك الكلاب كما مزقت (آكتيون)؟ كفى، لقد بلغنا موضوعاً أكثر لطفاً، بلغنا مسكن السيدتين (ليتزيا) و(فرانسسكا) وهي دارة صغيرة تبدو، وكأنها ما تزال تلبس ثوباً أبيض مهملاً. ونحن نرى عند المدخل نافذتين كبيرتين مدورتين أمامهما دوالي من الكرمة مرتفعة تتدلى عناقيدها كأنها جدائل من شعر أخضر تتدلى بكل ما فيها من غنى على عيون المنزل. واستقبلتنا من عتبة الباب أنغام من كل نوع والحان وأناشيد وأصوات قيثارات وضحكات مرحة.

(٥)

السيدة (ليتزيا) وردة فتية في الخمسين من عمرها، كانت راقدة في السرير، تدندن وتثرثر مع صاحبيها الغزلين، أما أحدهما فيجلس على كرسي أمامها، أما الثاني فيتمدد على أريكــة طويلة ويعزف على قيثارة. وفي الغرفة الثانية المجاورة تعلو من آن إلى آن نغمات متقطعة من أغنية حلوة أو من ضحكة أكثر حلاوة. قدم إلي المركيز في سخرية عامية تأخذه أحياناً السيدة وصـاحبيها، ولاحظ أني (جان ـ هنري هاينه) نفسه، وأني دكتور في الحقوق مشهور الآن في الأدب القضائي في ألمانيا. وكان أحد هذين السيدين، لسوء الحظ، استاذاً في (بـولونيـا) وكان مستشاراً قضائياً، رغم أن مظهره الرخو وبطنه الكبير يوحيان إليك أنه أقرب إلى أن يكون كاهناً. ارتبكت قليلاً ولاحظت أني لا أكتب باسمي الحقيقي ولكن باسم (جارك) المستعار، وقلت ذلك في تواضع لأني تذكرت مصادفة اسم حشرة من الحشرات من أكثرها تفاهة في أدبنا العدلي. وأسف البولوني، حقاً لأنه لم يسمع بهذا الاسم المشهور. وهذا ما يحدث لك أنت أيضاً يا قارئي العزيز، ولكنه لم يشك في أنه سرعان ما ينتشر نوره في الأرض كلها، ثم انقلب على أريكته وداعب أوتار قيثارته وغنى نغم (آسور):

يا براما القهار
أصغ بأذنك إن شئت
إلى الصوت المرتجف
إلى البراءة الضعيفة
الضعيفة... الضعيفة

وارتفع في الغرفة المجاورة مثل هذا النشيد كأنه صدى شيطاني لصوت عندليب. وكانت السيدة (ليتيزيا) تدندن خلال ذلك في صوت حاد:

من أجلك وحدك يتضرج خدي
من أجلك وحدك يغلي دمي
اوه من أجلك وحدك يمتلىء قلبي
بدنف الحب اللذيذ

وأضافت إلى ذلك نثراً في صوت أجش: بارتولو.. أعطني المبصقة، قام بارتولو عن كرسيه على رجليه الجافتين وقدم في احترام وعاء من البلور أزرق وسخاً إلى حد ما. أما الفتى الثاني ــ كما قال لي جامبيلينو بالألمانية فشاعر مشهور جدا، أغانيه التي ألفها منذ أكثر من عشرين سنة ما تزال ترنّ في ايطاليا كلها وتثير الشباب والشيوخ بنسغها وحميتها، أما الآن فإنه ليس إلا شيطاناً مسكيناً عجوزاً له عينان خامدتان في وجه ذابل، وشعر هزيل أبيض على رأس مرتجف، وجدب بارد في قلب خامد. مثل هذا الشاعر العجوز الفقير، في نحوله يشبه دالية تراها في الشتاء في الجبال الباردة، جافة، عارية من الأوراق، مرتجفة في كل الرياح، يجللها الثلج، بينما يكون عصيرها الطيب الذي جمعوه من شرايينها ذات يوم يدخل الدفء في أكثر البلدان بعداً إلى قلوب عدد كبير من الشاربين الذين يهيجهم الثناء على طيبات هذه الخمرة. من يدري أن يحدث ذات يوم، أن تستنزفني المطبعة، وهي مكبس الأفكار، حتى آخر قطرة، ثم لايستطيع الناس أن يجدوا في مخازن مكتبات (هوفمان) و(كامب) فكري الذي عصره الناس في عناية، وأنا عند ذلك جالس بدوري هزيلاً حزيناً، مثل المسكين بارتولو، على كرسي قرب سرير معشوقة عجوز أقدم لها المبصقة.

السيدة (ليتيزيا) اعتذرت إليّ من وجودها في السرير ومن استلقائها على بطنها لأنها تشعر بأزمة في كليتيها، وقد نشأت هذه الأزمة من أكلها للتين في غير اعتدال، وهذا ما منعها من الاستلقاء على ظهرها كما يليق بامرأة صالحة. إن وضعها في الواقع وضع تنين، رأسها، وهو مجعد في أعلاه، يستند إلى ذراعيها ويتموج بينهما صدر ضخم قرمزي كأنه بحر أحمر حقيقي. وسألتني: أأنت ألماني. وأجبتها: أنا إنسان مستقيم لا أنكر ذلك، يا سيدتي. وقالت وهي تتنهد: واأسفاه، الألمان مستقيمون إلى حد كاف. ولكن ماذا يجدي أن يكون الناس ذوي استقامة إذا كانوا يسرقوننا. إنهم يخربون ايطاليا. خير أصدقائي في سجن

ميلانو. . لاشيء إلا العبودية. وصرخ المركيز: كلا! كلا! لاتشتكي من الألمان: نحن غزاة مغزوون، غالبون مغلوبون. منذ وصلنا إلى ايطاليا، وأن نراك ياسيدتي أن نراك ونركع عند قدميك أمران ليسا إلا شيئاً واحداً. . . وبعد أن بسط منديله الحريري الأصفر وركع فوقه أضاف: إني أركع هنا عند ركبتيك. وأوجه لك ثنائي باسم ألمانيا كلها. . . وقالت السيدة في تنهدة خائرة: كريستوفرو. دي جامبيلينو. انهض وعانقني. ولكن هذا الراعي الرقيق خوفاً من أن يزعج زينة جميلته تلقى منها قبلة لا على شفتيها اللاهبتين، بل على جبينها الرقيق حتى ينغمس الوجه أسفل ما يستطيع، وحتى يبحر الأنف، وهو سارية هذا الوجه في البحر الأحمر. وصرخت: يا سيد بارتولو اسمح لي باستعمال المبصقة. وابتسم السيد بارتولو في حزن ولم ينبس ببنت شفة رغم أنه تلقى علمه في بولونيا على خير مدرسي اللغات بعد (ميزوفان). نحن نتكلم عندما يكون الكلام مهنتنا. كان يخدم السيدة كأنه فارس أخرس ولا يعرف إلا أن ينشدها من حين إلى حين القصيدة التي ألقاها عليها في المسرح. لقد مرت خمس وعشرون سنة عندما بدأ عمله في بولونيا في دور (آريان)، لقد كان هو نفسه في ذلك الحين راهباً زاهداً دون شك، يشبه باخوس في شخصه، وكانت (ليتيزيا آريان) كاهنة باخوس الصاخبة، التي ألقت بنفسها بين ذراعيه. وصاحبنا باخوس نظم خلال هذه الفترة قصائد غزلية ثم حفظها كما قلت في الأدب الايطالي مدة طويلة حتى بعد أنت أصبح الشاعر وحبيبته الأثيرة ورقاً للصرّ. لقد تماسك إخلاصه لها طوال خمسة وعشرين سنة، وأظن أن يومه الأخير سيجده جالساً على الكرسي، منشداً للأشعار، أو مقدماً لها المبصقة. إن أستاذ القضاء يجرّ حياته على هذا الشكل منذ ذلك العهد في أغلال السيدة، ويغازلها في الحماسة نفسها التي غازلها بها في بداية هذا القـرن، ويجب عليه أيضاً أن يؤجل دون رحمة دروسه القانونية عندما تطلب إليه أن يرافقها إلى مكان ما وهو دائماً يبقى متلهفاً إلى خدمات عاشق حقيقي.

الإخلاص الثابت لهذين العاشقين، رغم الجمال الذي خربته الأيام منذ عهد بعيد ربما كان عادة، ربما كان شفقة على عواطف قديمة، وربما كان العاطفة نفسها التي تماسكت تماماً مستقلة عن موضوعها القديم، فهما لاينظران إليها إلا بعيون الذكريات. هكذا نحن نرى غالباً، في المدن الكاثوليكية، أناساً عجائز يركعون في زاوية الشوارع أمام تمثال العذراء الأصفر المتهدم، الذي لم تبق منه إلا بعض الملامح، أو الذي لانرى منه إلا العش الذي صوّرته فيه، وإلا على أبعد تقدير

القنديل المعلق فوقه. ولكن الأناس العجائز الذين يركعون أمامه في خشوع وبأيديهم المرتجفة باقات الزهر ركعوا أمامه منذ طفولتهم، والعادة هي التي تقودهم إلى المكان نفسه، في الساعة نفسها. إنهم لايلاحظون اختفاء الصورة العزيزة عليهم، ثم إن السن يضعف النظر أو يزيله، حتى لايبالون إذا كان موضوع خشوعنا منظوراً أو غير منظور، وأولئك الذين يؤمنون دون رؤية هم في كل الحالات أسعد حالاً من المبصرين الذين يلاحظون كل تغير مهما كان قليلاً في وجه عذرائهم. أوه، ما من شيء أكثر رعباً من أمثال هذه الاكتشافات والملاحظات. من قبل كنت أعتقد حقاً أن الخيانة هي أشد الأشياء رعباً عند النساء ولكي أوجه إليهن أقسى الإهانات كنت أدعوهن أفاعي. ولكن وا أسفاه أنا أعرف الآن أن أشد الأشياء رعباً أنهن لسن تماماً أفاعي، لأن الأفاعي تلقي جلودها القديمة كل عام، ويتألقن في جلود جديدة.

لم أستطع ملاحظة إذا كان أحد هذين العاشقين العذريين القديمين كان يحسد المركيز أو إذا صححنا التعبير، يحسد أنفه، كما قلت آنفاً في لذائذ البحر الأحمر. لقد بقي (بارتولو) هادئاً على مقعده الصغير وساقاه الجافتان تتقاطعان، يلهو بكلب السيدة الصغير، وهو كلب من هذه الحيوانات الأهلية في (بولونيا) ويعرف عندنا باسم «البولوني». ولم ينزعج الأستاذ أقل انزعاج من أغنيته التي كانت تثير ضحكات جنونية أحياناً في الغرفة المجاورة. وكان في كثير من الأحيان يقطع ترنيماته ليزعجني ببعض القضايا القضائية. وعندما لا نكون متفقين على رأي واحد يمطر طوفاناً من الأنغام في فيض من الشواهد. أما أنا فكنت أدعم رأي بنفوذ معلمي، هوغو العظيم الذي يتمتع بشهرة واسعة في (بولونيا) تحت اسم (اوغون) أو (اوغولينو). قال الأستاذ: إنه رجل عظيم، ثم ضرب وغنى:

نغمة صوتها العذب
ما تزال ترن في أذنيك
والعذاب الذي بعثته في قلبك
هو سعادة الحب الحقيقية.

يحترمون كثيراً في (بولونيا) (تيبو) الذي يسميه الطليان (تيبالدو)ومع ذلك فهم لايعرفون إلا قليلاً من كتابات هؤلاء العلماء، نظرياتهم العامة وخلافاتهم. ورأيت أن (جانس) و(سافيني) لايعرفان إلا اسماء والاستاذ يعتقد أن هذا الأخير ليس إلا امرأة عالمة. وعندما أصلحت له هذه الخطيئة الكبيرة قال لي: أحقاً. كنت أعتقد

أنه ليس إلا امرأة. إذن فقد كانت معلوماتي خطأ. بل قالوا لي أن السيد (جانس) دعا هذه السيدة إلى الرقص في حفلة فجابه رفضها ونتج عن ذلك نشوب عداوة حامية بينهما. ــ لقد نقلوا إليك معلومات غير صحيحة. السيد (جانس) لايرقص على الإطلاق وذلك بسبب إنساني، حتى لايحدث هزة أرضية. إن هذه الدعوة إلى الرقص ربما كانت رمزاً أسيء فهمه. لقد مثلوا المدرسة التاريخية والمدرسة الفلسفية تحت شعار الراقصين. ومن هنا تصوروا رقصة رباعية بين (اوغون) و(تيبالدو) و(جانس) و(سافيني)، وربما عندما استمروا في هذه الرمزية أو الأسطورة زعموا أن السيد (أوغون) رغم اسمه ــ الشيطان الأعرج ــ كان يخطو خطوات أرشق من خطوات (لومبير)، وأن السيد (جانس) جرب في الأوقات الأخيرة بعض القفزات الخطيرة جعلت منه (فستريس) المدرسة الفلسفية. قال الاستاذ في شكل تصحيح:
ــ إذن فالسيد (جانس) لايرقص إلا في شكل رمزي أو لنقل في شكل تناسخي، ثم قطع حديثه فجأة وعاد يصلح أوتار قيثارته، وخلال فوضى من الأوتار والأنغام المتنافرة جعل يغني كالمجنون:

الحق أن اسمها العزيز
هو فرح كل القلوب
وأن البحر يهدر حانقاً
وأن السماء تقتم في كل مكان
عندما يسمعان اسم «تارار»
يغطي صوت العاصفة
وكأن السماء والأرض
تسجدان خاشعتين أمام هذا الاسم.

أما السيد (جوشن) فما كان الأستاذ يعرف بوجوده. ولذلك أسباب جدّ طبيعية، ما دامت شهرة (جوشن) العظيــم لم تصل إلى مسامع أهل (بولونيا) بل وصلت فقط إلى (بوجيو) وهي ضاحية على بعد أربعة أميال، وانتشرت فيها بعض الوقت لإدخال السرور على قلبه، حتى إن (غوتينغ) نفسها لم تعرف ولم تقدر في (بولونيا) إلى حد كاف. بل يمكن أن نتصور عكس ذلك، وفي هذا فقدان لروح الفضول والتطلع ذلك لأن (غوتينغ) لها عنوانها عادة «بولونيا الجرمانية». لا أريد أن أقرر أن هذا اللقب صحيح، وعلى كل حال فإن الجامعتين تتميزان بهذا الفارق الصغير. وهو أننا نجد في (بولونيا) أصغر الكلاب وأكبر العلماء ونجد في (غوتينغ) على عكس ذلك أصغر العلماء وأكبر الكلاب.

(٦)

عندما سحب مركيز (كريستوفرو دي جمبيلينو) أنفه من البحر الأحمر، كما فعل المرحوم (فرعون) كان وجهه يلمع بعرق الرضا. كان مندهشاً دهشة عميقة ووعد السيدة بأخذها إلى (بولونيا) بعربته فور مقدرتها على الجلوس. وتم الاتفاق أيضاً أن يذهب الأستاذ سلفاً إلى تلك المدينة، وأن يذهب (بارتولو) بعربة المركيز التي يطيب له أن يجلس على مقعدها ويمسك بالكلب الصغير وأن يذهبوا خلال خمسة عشر يوماً إلى فلورنسا لتستطيع السيدة فرنسسكا التي كان عليها أن تذهب مع اللادي (ماتيلد) إلى (بيزا) أن تعود، وبينما كان المركيز يحسب على أصابعه مصاريف الرحلة كان يدمدم ظاهرياً بأغنية (دي تانتي بالبيتي). وكانت السيدة تتابع نغماتها السريعة الباهرة، والأستاذ يجوس كالعاصفة خلال أوتار قيثارته ويغني كلمات محرقة حتى سال العرق من جبهته والدموع من مقلتيه حتى تجمعت في مجرى مائي واحد في أودية وجهه. وفي وسط الأغاني والأنغام فتح باب الغرفة المجاورة على مصارعيه فجأة وبرز بيننا مخلوق... يا آلهات الفن في العالم القديم والحديث لستن حتى الآن آلهات مكتشفات، أنتن لاينبغي أن يعبدكن إلا الأجيال اللاحقة، أنتن اللواتي أحسّ بهن منذ أمد طويل في الغابات وفي البحر، هبن لي، أتضرع إليكن، الألوان التي أستطيع بها رسم هذا المخلوق الذي هو بعد الفضيلة أبدع الأشياء البديعة في هذا الوجود. الفضيلة ـ لاشك، أهي أول الأشياء الجميلة، وقد خصها الخالق بكثير من المفاتن حتى خال أنه لايمكن أن ينتج ما هو أكثر منها سحراً، ولكنه حشد وسائله مرة أخرى وفي لحظة مناسبة خلق السيدة (فرنسسكا) الراقصة الجميلة التي هي أروع الروائع التي أنتجها منذ ولادة الفضيلة، أروع الروائع التي لم يكرر فيها أبداً نفسه، مثل الفنانين الارضيين الذين تبدو أعمالهم الأخيرة في جمال مستعار من الأعمال الأولى. لا إن السنيورة (فرنسسكا) خلق أصيل، لاتشبه الفضيلة في شيء، بل هنالك خبراء يجدون جميلة منها، ولايعترفون للفضيلة إلا بميزة أنها قديمة، ولكن هل هنالك ذنب كبير لراقصة أن تكون صبية على مدى ستة آلاف سنة؟

ما أزال أراها قادمة من الباب الذي فتح فجأة بقفزة واحدة وصلت بها إلى وسط الغرفة وجعلت تقوم بدورات لاتنتهي ثم تلقي نفسها بطولها على الأريكة وتضع يديها على عينيها وتصرخ منقطعة الأنفاس: آه ما أكثر تعبي من نومي. وعندئذ دنا منها المركيز وألقى خطبة طويلة في لهجة وقور محترمة إلى حد السخرية، خطبة تناقض في شكل حاد رقته العادية الباهتة، وهي فوق ذلك تناقض هذا

الانتقال المفاجىء إلى لهجة موضوعية واضحة مقتضبة أعرفها منه، عندما تستدعيه ذكرى فجائية إلى أعماله التجارية. ومع ذلك فلم يكن في اللهجة التي يتحدث بها المركيز الآن شيء من التزويز، يبدو أنها تكونت لديه طبيعياً لأن هذا الرجل تنقصه الجرأة الكافية لكي يعلن من أول الأمر تفوقاً يعتقد أن له الحق فيه بالمال والفكر ولأنه يحاول أن يبحث في دناءة عن إخفائه تحت تعبير من المهانة المبالغ فيها. إن في بسمته العريضة في مثل هذه المناسبات شيئاً من السخرية المزعجة، ويبقى من يسمعه متردداً بين صفعه أو التصفيق له. هكذا قدم ثناءه الصباحي إلى (فرنسسكا) التي كانت ما تزال نصف نائمة ولاتكاد تصغي إليه، وعندما رجاها أن تسمح له بلثم قدميها أو قدمها اليسرى على أقل تقدير، وعندما نشر فعلاً منديله الحريري الأصفر، في عناية بالغة، وركع فوقه، مدت إليه في غير اكتراث رجلها اليسري التي تنتعل حذاء أحمر فتاناً، بينما تنتعل في رجلها اليمنى حذاء أزرق. وتلك طريقة بارعة في إبراز الشكل الصغير لقدميها الرائعتين. عندما لثم المركيز في احترام هذه القدم الصغيرة وقف وهو يتنهد بكلمته: أيها المسيح الطيب، وطلب السماح له بتقديمي كصديق له، وذلك ما سُمح له به في تثاؤب. وتنازل عندئذ فلم يفض في الثناء على صفاتي الرائعة، وأقسم بشرفه كإنسان مهذب إني غنيت في نجاح بالحب التعيس.

طلبت من السيدة كذلك السماح لي بتقبيل رجلها اليسرى وفي اللحظة التي تمت فيها لي هذه السعادة استيقظت السيدة من حلم طويل وانحنت نحوي وهي تبتسم ولاحظتني بعيون كبيرة مندهشة وانطلقت في مرح إلى وسط الغرفة ودارت دورات لاتنتهي. شعرت متعجباً بقلبي يدور معها حتى كاد يصاب بالدوار. خلال ذلك كان الأستاذ يضرب في مرح أوتار قيثارته ويغني:

أشهر مغنية
جعلت مني، لعباً ولهواً
زوجاً لها ظاهرياً
آه يا كالبيجي المسكين
غيظي وغيرتي
لم يُوقفا عبثها بي
كنت في بيتي صفر
آه يا كالبيجي المسكين

قررت لأتخلص منها
أن أبيعها لقرصان
يمر قاصداً بطرابلس
آه يا كارو كالبيجي.

حان النهار. والرجل الخائن
بدلاً من أن يعد لي المبلغ
قيدني عند قدم سريرهما
آه يا كالبيجي المسكين

حدقت بي مرة أخرى منقبة متغلغلة من رأسي إلى أخمص قدمي، ثم شكرت راضية المركيز كأني هدية حملها إليها تودداً. ولم تجد ما تلاحظه غير أن شعري كستنائي جداً، وكانت تريده أكثر قتاماً مثل شعر الأب (سيكو). ورأت كذلك أن عينيّ صغيرتان وأميل إلى الخضرة من الزرقة. كان علي يا قارئي العزيز أن أقوم باستعراض بالنسبة للسيدة (فرانسسكا) في براعة تشبه براعة النخاس، ولكني لم أستطع أن أجد ما آخذه على هذا الوجه الملائكي. وجهها ذو نسب سماوية نجدها في التماثيل اليونانية، والأنف منحوت نحتاً رائعاً وينتهي بزاوية حادة، والمساحة بين الأنف والفم قصيرة قصراً عجيباً تكاد تتقارب الشفتان في كل زاوية من الفم تجمعها بسمة تخال أنها تنم هذا الفراغ الساحر. وتحت الفم تتكور ذقن ناعمة، أما العنق... آه، يا قارئي عفواً... فقد أسرفت في الوصفت وذهبت بعيداً ثم إني في هذا الوصف الناقص ليس لي الحق في أن أتحدث عن هاتين الزهرتين الصامتتين اللتين تزدهران كأنهما قصيدتان بيضاوان، عندما فكّت السيدة الزرين الفضيين اللذين يغلقان، فوق صدرها، ثوبها الحريري الأسود.

قارئي العزيز لنعد إلى وصف الوجه الذي أقول في اختصار إنه متلألىء وأصفر شاحب مثل العنبر الذي يكسبه الشعر الأسود،الذي يغطي صفحتي الوجه بجدائل بيضوية ناعمة مشرقة، شكلاً طفولياً مدوراً. وتضيئه عينان سوداوان مفعمتان بأشعة باهرة بنور سحري.

أنت ترى يا قارئي العزيز أنني أحاول أن أعطيك وصفاً عميقاً محلياً لسعادتي، وعلى مثال الرحالة الآخرين الذين يضيفون إلى مؤلفاتهم خرائط خاصة بالأماكن التاريخية أو بالأماكن ذات الأهمية، وما أكثر ما رغبت في أن أرسم إليك في كتابي صورة (فرنسسكا). ولكن، وا أسفاه، ما جدوى النسخة الميتة للحدود

الظاهرة عندما يتعلق الأمر بالأشكال التي تقوم ملامحها الإلهية على حركتها الحية؟ هنا لايستطيع خير فنان أن يبرزها لنا، لأن الصورة ليست إلا أكذوبة مسطحة، بعد كل شيء. النحات يستطيع ذلك خيراً من الرسام بقليل. إننا على ضوء مشعل متحرك يمكن أن نتصور في شكل ما حركة في أشكالها الرخامية، والنور الذي يبديها لنا في نهار خارجي يمكن أن يبعث فيها الحياة داخلياً. نعم، هنالك تمثال يمكن أن يعطيك في الرخام يا قارئي العزيز فكرة عن جمال (فرنسسكا) وهذا التمثال هو فينوس (كانوفا) الكبرى التي سوف تجدها في آخر قاعات قصر (بيتي) في (فلورنسا). طالما فكرت في هذا التمثال وطالما فكرت أنه بين ذراعي، وأنه تبعث فيه الحياة رويداً رويداً وأنه يوشوش في أذني بصوت (فرانسسكا) إن رنة هذا الصوت هي التي تهب لكل كلمة من كلماتها أحب المعاني وأكثرها بعداً لو أردت أن أنقل إليك هذه الكلمات فلن يكون ذلك غير جمع أزهار يابسة كان عبيرها أحسن ما فيها. كانت كذلك تقفز في الهواء وترقص وهي تتكلم، بل ربما كان الرقص هو لغتها الحقيقية. وعند ذلك كان قلبي يرقص معها، وينفّذ أصعب الخطوات، ويبذل عبقرية توقيعية لم أكن أتوقعها قط. هكذا ردت (فرنسسكا) قصة الكاهن (سيكو) وهو شاب أحبته عندما كانت تضفر قبعات من القش في وادي (آرنو) وأكدت لي أني سعيد لأني أشبهه. وكانت تقوم في الوقت نفسه بأرق الإيماءات، تضغط أطراف أناملها على قلبها واحداً بعد واحد وكأنها تستقي منه بيدها المنحنية أشد ما فيه من عواطف هائجة، ثم تستلقي على صدرها على الأريكة وتخبىء وجهها بالوسائد. وتنصب وراء أطراف قدميها وتجعلها تتحرك كأنها دمى العرائس. القدم الزرقاء تمثل الكاهن (سيكو) والقدم الحمراء تمثل (فرنسسكا) المسكينة ، وكانت وهي تستعرض قصتها الخاصة تجعل القدمين العاشقتين تقومان بأكثر ألوان الوداع رقة، وإنه لأمر مثير عجيب أن ترى هاتين القدمين تتبادلان القبلات وتنطقان بأعذب الكلمات. ولم تلبث الصبية المجنونة تزرف، وهي تكشر، سيلاً من الدموع ينبثق من قلب في عمق لايستدعيه وضعها الراضي المطمئن. وقد جعلت الأب (سيكو)، في هذا الفيضان العاطفي المضحك يلقي خطاباً طويلاً يذكر فيه الأشكال الرائعة لجمال (فرنسسكا) المسكينة، والطريقة التي ردت بها هي — فرنسسكا المسكينة عليه وقلدت صوته، في حساسية عهد سابق، وهو صوت فيه شيء من الألم والتهريج معاً يجعل الروح تهتز في شكل خاص حقاً: — إلى اللقاء يا (سيكو)! الوداع يا فرنسسكا. كانت هذه الكلمات هي اللازمة الخالدة. القدمان العاشقتان لاتريدان الانفصال، لكني كنت راضياً عندما فصلت بينهما

أحكام قدر لايرحم في آخر الأمر، وخيل إلي أن شعوراً سابقاً يقول لي إن كارثة ستحل بي لو لم يفترق هذان العاشقان. كان الاستاذ يصفق بألحان قيثارته العنيفة، وكانت السيدة (ليتيزيا) تدمدم ألحاناً متعاقبة، وكان الكلب يعوي، وأنا والمركيز نصفق بأيدينا مسعورين، نهضت (فرنسسكا) وانحنت شاكرة؛ وقالت لي: الحق أنها تمثيلية هزلية ناجحة، لقد مثلت منذ بعيد أول مرة، أما الآن فقد أصبحت عجوزاً، خمن قليلاً عمري؟ وأضافت : ثماني عشرة سنة، ولم تنتظر جوابي ثم دارت ثماني عشرة دورة على قدم واحدة: ـــ وكم عمرك يا دكتور. ـــ أنا يا سيدتي ولدت في أول ليلة من عام ١٨٠٠. ولاحظ المركيز: لقد ذكرت لك أنه أحد أوائل الناس في عصرنا. وصرخت السيدة (ليتيزيا) فجأة: هل تخمن سني؟ قالت ذلك دون أن تلاحظ لباس حواء الذي تلبسه والذي كان يغطيه حتى الآن غطاء السرير، نهضت في حمية حتى بدا لنا لا البحر الأحمر وحده بل كل البلاد العربية وسورية وما بين النهرين.

تراجعت إلى خلف خوفاً من هذا المنظر، وترددت بين بضعة أمكنة عامة حول صعوبة تقرير الجواب عن مثل هذا الجواب ولاسيما ولم أر من السيدة إلا نصفها. ولكنها وقد أصرت على السؤال في نفاذ صبر أعلنت لها الحقيقة وهي أني لاأزال أجهل حساب الفرق بين السنة الايطالية والسنة الألمانية. وسألت السيدة (ليتيزيا) ـــ وهل هذا الفرق كبير؟ وأجبت: ـــ هذا أمر معقول، فالحرارة تمدد كل الأجسام، وينتج من ذلك أن السنوات، في ايطاليا المحرقة أطول من السنوات في المانيا الباردة. وأنقذني المركيز من الورطة، فأكد في ظرافة أن جمال السيدة بلغ الآن نضجه المتفتح، وأضاف: السيدة مثل البرتقالة التي تصبح أكثر صفرة مع الزمن وهكذا فإن جمالك يكتسب كل سنة نضجاً أكبر.

يبدو أن السيدة رضيت بهذا التشبيه، وأعلنت في الوقت نفسه أنها تشعر حقاً أنها أصبحت الآن أكثر نضجاً مما كانت من قبل وخاصة في ذلك العهد الذي كانت فيه ما تزال رقيقة نحيلة، وظهرت على مســـرح (بولونيا) وهي لاتدرك اليوم كيف استطاعت التأثير بمثل ذلك الوجه، وقصت علينا عندئذ بدايتها في تمثيل دور (آريان) وذلك ما كانت تعود إلى ذكره مراراً. واكتشفت بعد ذلك أن السيد (بارتولو) كان عليه دائماً في مثل هذه المناسبات أن ينشد الأشعار التي ألقاها عليها في ذلك اليوم وهي على المسرح. إنها مقطوعة جيدة، مفعمة بالأسى المؤثر حول خيانة (تيزي) وبالحماسة العمياء (لباخوس) وجمال (آريان) الرائع. كانت السيدة

(ليتيزيا) تصرخ عند كل مقطع: ما أروع هذا. وقد أثنيت أنا نفسي، على ما في هذه الأسطورة من صور ومن نظم ومن مفهوم. قال الأستاذ: نعم إنها جميلة جداً، وتستند دون شك إلى حقيقة تاريخية: قال لنا بعض المؤلفين المختصين إن كاهن (باخوس) تزوج (آريان) التي لاتعزى عندما رآها مهجورة في جزيرة (ناكسوس)، وما يحدث غالباً فقد جعل التراث من كاهن الرب، الرب نفسه. لا أستطيع أن أنحاز إلى هذا الرأي لأني أميل دائماً في موضوع الأساطير إلى جهة تفسيرها تفسيراً فلسفياً وأعتقد أن في أسطورة (آريان) هذه التي هجرها (تيزي) وألقت بنفسها بين ذراعي (باخوس) شيئاً آخر غير الرمز الذي يعني أنها في مثل هذا الوضع الحزين ألقت بنفسها إلى الخمر، وهي فرضية يشاركني فيها عدد غير قليل من مواطني العلماء. ــ وأنت يا سيدي المركيز تعرف دون شك أن المرحوم (بيتمان) المصرفي، وهو ينطلق من هذه الفرضية أثار تمثال (آريان) في شكل يخيل إليك فيه أن لها أنفاً أحمر. ورد المركيز: ــ حقاً، نعم إن (بيتمان) من (فرنكفورت) كان رجلاً عظيماً. ويبدو أن المركيز في الوقت نفسه خطر له شيء هام يدب في دماغه فقال وهو يتنهد: ــ يا رب، يا رب، نسيت أن أكتب إلى (روتشيلد) (فرانكفورت). وعلت وجهه سيماء شغل شاغل، كشفت كل رغبة في السخرية، فسلم في إيجاز، ودون احتفال كبير ووعد بالعودة حوالي المساء.

عندما ذهبت ، وأعددت نفسي كما هي عادة الناس، أن أثني على الإنسان الذي أدين له بتعريفي إلى هؤلاء الناس الرائعين، وجدت، وأنا جدّ مندهش، أن أحداً لايستطيع أن يمدحه مدحاً كافياً وأنهم جميعاً يثنون عليه ثناء عاطراً بتعابير مبالغ فيها، وعلى حماسته لكل جميل وطرائقه النبيلة الرقيقة وعلى نزاهته ونبل مقاصده. وأضافت السيدة (فرنسسكا) صوتها إلى جوقة الاماديح، ولكنها اعترفت أن أنفه يثير بعض القلق وأنه يذكرها ببرج (بيزا).

عندما استأذنت بالذهاب طلبت منها إكرامي بلثم قدمها اليسرى، وعند ذلك خلعت، نصف مبتسمة ونصف جادة نعلها الحمراء، ثم جوربها وعندما ركعت مدت إلي رجلها البيضاء المشرقة كالزنبقة وقمت بضغطها في كثير من الثقة والحماسة والنشوة على شفتي، لا أفعلها برجل البابا. ولا حاجة إلى أن أقول إني قمت بمهمة امرأة الغرفة فساعدتها في لبس الجورب والنعل. قالت السيدة فرنسسكا. عندما انتهيت من هذه المهمة التي لم أكن على عجلة من أمري لإنهائها والتي استخدمت فيها أصابعي العشر: ــ أنا مسرورة منك. أنا مسرورة منك.

سأخلع جواربي مراراً من أجلك. لثمت اليوم قدمي اليسرى وستلثم غداً قدمي اليمنى وبعد غد يمكن أن تلثم يدي اليسرى، وبعد ذلك يدي اليمنى. اسلك سلوكًا حسناً وسأقدم لك بعد فمي، وهكذا على التوالي. أنت ترى أنني راغبة في تقدمك. وبما أنك شاب فيمكن أن تشق طريقك في العالم.

لقد شققت طريقي في العالم. اشهدي علي يا ليالي (توسكانا) وأنت اشهدي أيتها السماء الزرقاء ذات النجوم الكبيرة الفضية، وأنت يا غابات الغار البرية، ويا باقات الآس العجيبة، ويا سوسن جبال (الآبينان). وعندما تعانقونا في رقصاتكن في حفلات أعراسكن فلسوف نذكركن بأيام الآلهة هذه، التي لانجد فيها الأكاذيب الغوطية والتي لاتسمح إلا بألوان من المرح مستورة موقوته والتي تغلق أمام كل عاطفة حرة ورقة داليتها الماكرة.

ومع ذلك فما من حاجة إلى مثل هذه الورقة إن جذع الدالية البرية كله قد نشر عناقيده العريضة على رؤوسنا السعيدة.

(٧)

ما قرعات العصا، ذلك ما يعرفه الناس، ولكن ما الحب ذلك ما لم يكتشفه أحد حتى الآن رغمَ قول بعض الفلاسفة المحدثين إنه نوع من الكهرباء. ذلك ممكن، لأنك في اللحظة التي تعشق فيها تشعر أن شعاعاً كهربائياً في عين الشيء المحبوب يصيب قلبك في الصميم. آه وهذه البروق هي أكثر البروق أذى، وسأرفع واقية للصواعق أعلى من الواقية التي أخترعها (فرانكلين) ضد مثل هذه الصواعق. أليست هنالك واقيات صواعق صغيرة يمكن أن نضعها على قلوبنا ويمكن لها أن تحول النار المخوفة إلى جهة أخرى. ولكني أخشى أن يكون انتزاع أسهم الحب أصعب من انتزاع الصاعقة من يد (جوبيتر) والصولجان من يد الطغاة. ولاسيما وأن ليست كل ألوان الحب تسبقها البروق. إنه يترصدنا مثل الأفعى بين الورود مستعداً لانتهاز أي فرصة للتغلغل في قلوبنا. أحياناً يكتفي بكلمة، بنظرة، بقصة. بعمل لامعنى له، وإذا هناك شيء يقع لا أعرف اسمه، صغير مثل بزرة ضئيلة، في قلوبنا ينقضي شتاء كامل على تلك البزرة في هدوء وسكون، فإذا جاء الربيع نبتت تلك البزرة الصغيرة وتعالت لتصبح زهرة نارية يصيب أريجها الرؤوس بالدوار.

هذه الشمس نفسها، التي تفقس في وادي النيل بعض التماسيح المصرية

يمكن أيضاً، في (بوتسدام) على نهر (هافيل) يمكن أن تبلغ في قلب فتي بزرة الحب إلى درجة النضج الكامل ـ إذن فالدموع وافرة في (مصر) وفي (بوتسدام). ولكن خلال فترة طويلة لاتنير الدموع، لادموع التماسيح ولادموع السيدات البروسيات، أقل شيء ـ إذن ما الحب؟ هل حلل أحد كنهه؟ هل حلوا هذا اللغز؟ لعل هذا الحل ستنتج منه آلام أكبر من اللغز نفسه، ولعل القلب سيستفز الخوف من رؤية (ميدوز) هذه. إن أفاعي تتزاحم حول الكلمة المخيفة لهذا اللغز. أوه. أنا لا أريد قط أن أعرف هذه الكلمة. الألم المحرق في قلبي أعز علي من الرعب البارد. أوه. لاتقولوا لي يا معاشر الأموات الذين حرصتم على الألم حرصكم على الحجر والذين حرموا من العاطفة كما حرمت الحجر، وتجولوا في حدائق الورود في هذا العالم أنتم الذين تضحكون، بشفاهكم الشاحبة في اختصار منا نحن المجانين الذين تستطيرنا رائحة الوردة، ونحن نحتج على الأشواك.

إذا لم أستطع، يا قارئي العزيز أن أشرح تماماً ما هو الحب، فأنا مع ذلك أستطيع أن أقص عليك بالتفصيل ما يعبر به الناس عنه وما يعانون منه عندما يقعون في الحب على جبال الأبنيان. أول كل شيء أنهم يتصرفون كالمجانين، يرقصون على الروابي وعلى الصخور، ويتصورون أن العالم كله يرقص معهم. يشعرون كأن العالم خلق في هذا اليوم وأنهم كانوا أوائل الناس. صرخت مسحوراً، وأنا أغادر مسكن (فرنسسكا): ما أحلى ما أروع، ما أجمل هذا العالم الجديد. خيل إلي أن علي أن أعطي، مثل الإنسان الأول، اسماً لكل النباتات، وسميت ذلك كله بأسماء مناسبة لطبيعتها الخاصة، وحسب عاطفتي الشخصية التي امتزجت في شكل رائع في كل الأشياء الخارجية. كان صدري منبع إلهام وفهمت كل الأشكال وكل الصور، عطر النبات وأغنية العصفور وصفير الريح ودمدمة الشلال. سمعت أكثر من مرة الصوت الالهي يقول لي: أين أنت يا آدم؟ وأجبت: ها أنذا يافرنسسكا أعبدك، لأنني أعرف يقيناً أنك أنت التي خلقت الشمس والقمر والنجوم والأرض بكل ما فيها من مخلوقات. عندئذ ضحكت هازئة في أجمات الآس وتنهدت سراً وقلت في نفسي: يا جنوني العذب. لاتهجرني!

ولكن عذوبة هذه الانطلاقة العاشقة لم تبدأ حقاً إلا بعد ذلك في ساعة الغروب. أشجار الجبال لاترقص وحدها، ولكن الجبال نفسها ترقص معها برؤوسها الوقرة التي تلونها الشمس الغاربة بصبغة سوداء حتى لتقول إنها ثملى

بعنب دواليها. السيل في الوادي يتدفق أكثر سرعة ويزمجر في قلق كأنه يخاف أن تسقط الجبال المترنحة في ثملها وتسحقه. وما أشد هيجان البروق عند المساء، لكأنها قبلات مضيئة.... وصرخت: نعم، السماء الضاحكة تعانق أرضها الحبيبة.... يافرنسسكا يا سماء الجمال، أنا الأرض ضميني، فأنا جدّ أرضي، أنا أهفو إليك يا سمائي... هكذا كنت أصرخ وأمد ذراعيّ في كل نشوة الرغبة وأقرع برأسي أكثر من شجرة وأعانقها في رضى ويقفز قلبي في ثمل الحب،... وفجأة رأيت شخصاً قرمزياً انتزعني في عنف من أحلامي وألقى بي في الواقع البارد.

(٨)

إنه (هيسنت) خادم المركيز كان جالساً على كومة من الأعشاب، تحت ظل شجرة غار ظليلة، وإلى جانبه (أبولون) كلب سيده. كان الكلب واقفاً تقريباً، فقد وضع قوائمه الأمامية على ركبتي الرجل الصغير القرمزيتين، يراقب في اهتمام ما يصنعه هذا، وهو يمسك بيديه ألواحاً يكتب فيها شيئاً من حين إلى حين، ويبتسم في شكل عاطفي ويحرك رأسه ويتنهد في عمق، ثم يتمخط في نشوة. صرخت به:
ـ يا للشيطان يا (هرش هيسنت) هل تنظم شعراً، هيا، فالدلائل تبشر بخير، (أبولون) قربك وشجرة الغار تحنو على رأسك. ولكنني بذلك وجهت إهانة إلى هذا الرجل المسكين. أجابني في لطف؛ أنظم شعراً كلا يا صاحبي، كلا، أنا أحب الشعر ولكني لا أنظمه. ثم ماذا أكتب؟ أنا لا عمل لي الآن فأكتب طلباً لسروري قائمة بأسماء أصدقائي الذين اشتروا تذاكر اليانصيب من مجموعتي، وفيهم الآن من لايزالون مدينين لي... ولكن هل تظن يا سيدي الدكتور أني أريد أن أتحدث عنك... عندنا متسع من الوقت، وأنت صلد. آه لو أنك في المرة الأخيرة لعبت بالورقة ١٣٦٥ بدلاً من الورقة رقم ١٣٦٤، لكنت اليوم صاحب مائة ألف مارك عداً ونقداً ولما كنت في حاجة إلى الركض بين الجبال والأودية... ولبقيت في (هامبورغ) مطمئناً راضياً، تجلس على شرفتك وتتحدث في هدوء كيف حال ايطاليا. أعانني الله، لولا صداقة السيد (كامبل) لما جئت إلى هنا.. آه ما أشد الحر والأخطار والتعب الذي عانيته. إذا كان هنالك هوس يجب علاجه أو كابوس يجب طرده، فعلى السيد كامبل أن يتولى أمرهما، وعلي أنا أن أجري وراءه. كان من الممكن منذ زمن بعيد أن أمضي في سبيلي، لو استطاع أن يدبر أموره في غنى عني، ولكن من الذي يلقى مثل ما لقيت من التشريف، ومن الذي ينال ما نلت

من التمدن والتحضير في البلاد الأجنبية! وإذا كان من الواجب أن نقرّ بالحقيقة فقد بدأت أنا نفسي بالتمسك تمسكاً كبيراً بالحضارة. في (هامبورغ) لست في حاجة إليها والحمد لله، ولكنك لاتعرف في أي مكان تكون ذات يوم. إنه عالم آخر، في هذه الأونة ثم إنك على حق حين ترى أن قليلاً من الحضارة يزين صاحبه. وما أكثر ما يتمتع به صاحبها من شرف. انظر مثلاً كيف استقبلتني اللادي ماكسفيلد، وكيف شرفتني هذا الصباح... وكأني تماماً ندٌ لها.... أعطتني (فرنسسكوني) لأشرب مع أن الزهرة لم تكلفني غير خمس (باولات). ومن جهة أخرى فإنه مما يبعث على السرور أن تمسك بيديك قدم سيدة جميلة بيضاء صغيرة. لم أفاجأ قليلاً بهذه الملاحظة الأخيرة وقلت في نفسي: أتراه يسخر؟، ولكن كيف استطاع هذا المخلوق أن يعرف السعادة التي غمرتني، هذا اليوم، عندما كان مشغولاً في الجانب الآخر من الجبل؟ أترى حدث هنالك مشهد مماثل. وهل كانت هنالك سخرية أخرى من شاعر كبير هزلي ربما قام في الوقت نفسه بالآف من المشاهد المماثلة المتتابعة، ليسلي جمهوره السماوي؟ ولكن هاتين الفرضيتين كانتا دون سند، فبعد أن حاصرته بالاسئلة ووعدته بألا أخبر المركيز أعترف لي الرجل المسكين بأن اللادي (ماكسفيلد) كانت تلازم السرير عندما أتاها بزهرة السوسن، وأنه عندما هم بإلقاء خطابه الجميل، تكشفت قدم السيدة الجميلة ولاحظ أصابعها. وسألها السماح له بقص أظافرها وسمحت له فوراً بذلك في تلطف. ولقد شكروني ـ أضاف الرجل الطيب ـ على قص الأظافر وعلى إهداء الزهرة بـ(فرانسيسكو) آخر. ولاحظ (هيسنت) عامداً: أنا لا أفعل ذلك أبداً إلا طلباً للشرف. وذلك ما قلته للبارون (روتشيلد) عندما تشرفت بقص أظافره، لقد جرى ذلك في مكتبه، فكان جالساً في أريكة خضراء كأنها العرش، ويتحدث كأنه الملك، وحوله يقف الاتباع على أقدامهم، وهو يصدر أوامره ويرسل السعاة والرسل إلى كل الملوك، وقلت في نفسي، وأنا أقص أظافره: أنت تمسك بيديك قدم الرجل الذي يمسك بين يديه العالم كله. إنك الآن رجل ذو مكانة أيضاً، لو أنك قصصت أكثر مما ينبغي لأصبح متعكر المزاج، ولقسوت على أكبر ملوك الأرض... كانت تلك اللحظة أجمل لحظات حياتي... ـ أتصور في سهولة يا سيد (هيسنت) كل ما في هذا الشعور من جمال. ولكن أي ملك من أسرة روتشيلد قمت أنت بتقليم أظافره؟ أهو البروتاني ذو القلب المتعجرف، رجل (لومبارد ستريت) الذي أقام جبل ـ تقوى من أجل الأباطرة والملوك؟ ـ فهمت يا سيدي الدكتور. أنا أعني روتشيلد الكبير. (ناثان روتشيلد) العظيم (ناثان الحكيم) الذي رهن إمبراطور البرازيل تاجه

من اللآلىء. ولكن تشرفت أيضاً بالبارون (روتشيلد) من (فرانكفورت)، رغم أني لم أحرز السرور بأن أكون حميم قدمه، ومع ذلك فقد كان يحترمني. وعندما قال له المركيز أني كنت جامع يانصيب قال البارون في كثير من الذكاء: وأنا أيضاً مثل ذلك، أنا، والله، رئيس جامعي بطاقات يانصيب (روتشيلد) وأقسم بشرفي إن زميلي لايجوز قط أن يأكل مع الخدم: وجلس إلى المائدة قربي... نعم كما أن الله يهب لي كل النعم، جلست يا سيدي الدكتور قرب البارون (روتشيلد) من (فرانكفورت) وعاملني كما يعامل نداً له، في روح عائلية. ولقد كنت عنده أيضاً في حفلة الأطفال المشهورة التي نشرت أخبارها في الصحف. لم يقيض لي في حياتي أن أشهد مثل هذه الفخامة وتلك النفقات، ومع ذلك فقد شهدت في (هامبورغ) حفلة كلفت ١,٥٠٠ مارك و٨ شلنات، ولكنها لم تكن إلا زرقة صوص في كومة من الزبالة. ما أكثر مارأيت من الذهب والفضة والماس، ومن النجوم والنياشين: وسام فوكون، والجزة الذهبية، ووسام الأسد ووسام النسر... بل إني رأيت طفلاً صغيراً، أؤكد لك، طفلاً صغيراً يحمل وسام الفيل... الأطفال كانوا يجيدون التخفي ويلعبون تحت أسماء مستعارة، ويتنكرون كأنهم ملوك، لهم تيجان فوق رؤوسهم، وكان هناك غلام يلبس تماماً مثل (ناثان روتشيلد) العجوز. قام بدوره خير قيام، يضع يديه في جيبي صداره، ويحرك ذهبه فيرن، ويحرك رأسه ويكشر عندما يريد أحد الملوك الصغار أن يستدين منه شيئاً. وكان هناك ملك صغير يلبس ثياباً بيضاء وسراويل حمراء. دغدغ خديه في صداقة وقال له: أنت سروري أنت أثيري، أنت شرف لي ولكن ابن عمك (ميكيل) لن ينال شيئاً مني، لن أعطي ديناً لهذا المجنون، الذي ينفق كل يوم على الناس ما لا يوفره في سنة. سيكون سبباً في حدوث مصيبة في هذا العالم تتأثر بها أعمالي. وكما أن الله يهب لي كل الخيرات فالحق أن الغلام لعب جيداً دور هذه الشخصية، ولاسيما عندما سند تحت ذراعيه الطفل الكبير الذي لف نفسه في (ساتان) أبيض مع شرائط من فضة حقيقية، وعندما كان يقول له من آن إلى آن: هيا هيا... اسلك سلوكاً جيداً حذار من أن أطردك مرة أخرى، حتى لا أخسر مالي. أؤكد لك يا سيدي الدكتور، أنّ مما يدعو إلى السرور أن تسمع الغلام. والأطفال الآخرون هم أيضاً أطفال رائعون، يقومون بأدوارهم خير قيام حتى اللحظة التي حملوا فيها قالب الحلوى، فانقلبوا عندئذ يتخاصمون على أطيب قطعة وانتزع بعضهم تيجان بعض وصرخوا وبكوا، بل إن سراويل بعضهم...

(٩)

ليس هنالك ما هو أدعى إلى الملل فوق سطح هذه الأرض من قراءة رحلة إلى ايطاليا إن لم تكن في كتابتها، والمؤلف لايمكن له أن يجعلها محتملة إلا إذا تحدث أقل ما يمكن عن ايطاليا نفسها. ورغم أني طالما استخدمت هذا النمط من الصنعة فأنا لا أستطيع يا قارئي العزيز أن أعدك بكثير من التسلية في الفصول الآتية. وإذاوجدت كل الحماقات التي سوف تلقاها مملة جداً فتعزّ وأنت تفكر بي، أنا الذي كان علي أن أكتبها. وأنصحك أن تقفز من حين إلى حين بعض الصفحات التي سوف تصل إليها في خاتمة الكتاب.. وا أسفاه، أرجو أن أستطيع أن أفعل الشيء نفسه. إن شاء الله ــ لاتظن أني أمزح. إذا أردت أن أقول لك جاداً رأيي في هذا الكتاب فأنا أنصحك بأن تغلقه حالاً، وألّا تقرأ منه أكثر مما قرأت.. سوف أكتب لك قريباً خيراً منه، وإذا وجدنا أنفسنا في كتاب لاحق مع (ماتيلد) و(فرنسسكا) في مدينة (لوك) فإن الصور اللطيفة سوف ترضيك أكثر من هذا الفصل.

الحمد لله. الآن، وتحت نافذتي ترن قطعة من الموسيقى ذات أنغام مرحة. إن رأسي المعتم يحتاج إلى تسلية تبعث فيه السلام والطمأنينة ولاسيما في هذه اللحظة التي يجب علي فيها أن أكتب عن زيارتي لصاحب السعادة المركيز (كريستوفور دي جامبيلينو). سأقص عليك هذه القصة المؤثرة في دقة كاملة، كلمة كلمة، وفي صفائها القذر.

كان الوقت متأخراً عندما بلغت منزل المركيز، وعندما دخلت الغرفة وجدت (هيسنت) وحده ينظف مهاميز سيده الذهبية. أما سيده، كما استطعت رؤيته من الباب الموارب لغرفة نومه فقد كان راكعاً أمام أيقونة وصليب كبير.

يجب أن تعرف يا قارئي العزيز، أن المركيز، هذا الرجل الوجيه، هو الآن كاثوليكي صالح، وأنه يقوم في دقة بكل احتفالات الكنيسة التي يجد السلام بعيداً عنها، وأنه وهب لنفسه، عندما كان في روما، كاهناً للسبب نفسه الذي اعتنى به في انكلترا بأحسن خيول السباق وفي باريس بأحلى فتيات الأوبرا.

قال لي (هيسنت) في صوت خافض: السيد كامبل يصلي الآن، ودلني على مكتب سيده، وهو يبتسم ابتسامة مهمة وأضاف في صوت أكثر انخفاضاً: إنه يظل كل ليلة راكعاً على ركبتيه طوال ساعتين أمام السيدة العذراء وطفلها يسوع. إنها

قطعة رائعة من الفن يبلغ ثمنها ٦٠٠ (فرانسيسكوني). وسألته: وأنت يا سيد (هيسنت) لماذا لاتركع وراءه؟ أو أنك، مصادفة، لست صديقاً حميًا للدين الكاثوليكي؟ وأجاب، وهو يهز رأسه مفكراً: ــ أنا لها صديق وأنا لها غير صديق. . . إنها ديانة صالحة لبارون من العالم الرفيع، يستطيع أن يتنزه طوال اليوم دون أن يعمل شيئاً، ولمحب للفنون، ولكنها ليست ديانة لرجل من (هامبورغ)، لرجل عليه أن يكسب خبزه، وليست مطلقاً ديانة جامع لليانصيب. يجب علي، أنا، أن أسجل في دقة كل الأرقام الرابحة، وإذا فكرت، مثلاً، بدين. . . دان. . .دون. في جرس كاثوليكي، وإذا كان أمام عيني ضباب البخور الكاثوليكي، فأنا سوف أخطىء في الحساب أو أسجل رقمًا خاطئاً، وستنجم عن ذلك كارثة. طالما قلت للسيد كامبل: سعادتك رجل غني، وربما كنت كاثوليكياً كما ينبغي أن تكون، ويمكن أن تبخر دماغك على الطريقة الكاثوليكية تماماً، وإن تصبح دان ــ دون ــ ودون ــ دان مثل جرس كاثوليكي. وعندئذ لن ينقص على مائدتك رغيف من الخبز. . . أما أنا فرجل أعمال ويجب علي أن استخدم حواسي السبع لأكسب خبزي، يرى السيد كامبل، حقاً أن هذا ضروري للحضارة وأني إذا لم أصبح كاثوليكياً، فلن أفهم اللوحات التي هي جزء من الحضارة. ولا (جان فيسول) و(كوريتشيو) و(كاراتشيو) ولا (كارافاتشيو). ولكني رأيت أن (كوريتشيو و(كاراتشيو) و(كارافاتشيو) لايفيدونني في شيء، وأن أحداً لن يأتي يشتري بطاقاتي وأني سأسقط في الهاوية[1] ثم إن علي أيضاً أن أعترف لك يا سيدي الدكتور أن الديانة الكاثوليكية لاتسرني أقل سرور، وبصفتك رجلاً عاقلاً فأنا واثق أنك تعطيني الحق: لست أدري أين النكتة: إنها ديانة، كما لو أن الله الطيب مات، لاسمح الله ــ ونحن نشعر في دخان البخور وكأننا في حفلة دفن، وتدمدم هناك موسيقى جنائزية حزينة، وأننا نصبح ضحايا كآبة، أقول لك: إنها ليست ديانة لواحد من أهل (هامبورغ).ــ ولكن كيف تجد الديانة البروتستانتية؟ ــ ولكنها عقلية أكثر مما ينبغي لرجل مثلي يا سيدي الدكتور ولولا وجود الأرغن في الكنيسة البروتستانتية لم تكن ديانة على الإطلاق. ولنقل فيما بيننا، هذه الديانة لاتضر. إنها واضحة مثل كأس الماء ولكنها لاتنفع كذلك على الإطلاق. لقد جربتها وكلفتني التجربة ٤ ماركات و ١٤ شلناً. ــ وكيف كان ذلك يا عزيزي السيد هيسنت. ــ انظر يا سيدي الدكتور؛ قلت في نفسي: إنها ولاشك ديانة مستنيرة، ليس فيها

---

(١) استعمل هاينه كلمة على وزن كارتشيو، في نوع من الجناس.

خيالات ولا خوارق ولا عجائب، ومع ذلك فيجب أن يكون فيها شيء من الحلم، عشبة صغيرة من الخوارق وأن تستطيع فعل معجزة صغيرة، إذا أرادت أن تكون ديانة مقبولة. ولكن من الذي يستطيع أن يفعل فيها المعجزة؟ فكرت في ذلك وأنا أرى مرة في (هامبورغ) كنيسة بروتستانتية، كانت من هذا النوع العادي، ليس فيها إلا مقاعد رمادية وجدران بيضاء. وليس على الجدار إلا لوح أسود كتبت عليه بالأبيض نصف اثني عشرية من الأرقام[1]. تابع قوله. وقال: ـ فكرت في نفسي وقلت لعلك تخطىء في حق هذه الديانة، لعل هذه الأرقام تقوم بالمعجزات تماماً كما تقوم بها صورة أم الإله، أو عظم من عظام زوجها القديس يوسف. ولكي أجرب الأمر ذهبت تواً إلى (ألتونا) ووضعت الأرقام نفسها في يانصيب (ألتونا). لعبت بـ(٨) شلنات على الأرقام الثنائية و(٦) شلنات على الأرقام الثلاثية و(٤) على الرباعية و(٢) على الخماسية. وأؤكد لك بشرفي أن أي رقم بروتستانتي لم ينجح. عندئذ عرفت بماذا أتمسك؛ عندئذ قلت لنفسي: كفاك تمسكاً بهذه الديانة التي لاتقدر على شيء والتي لاينجح فيها حتى رقم ثنائي. أأكون مجنوناً إلى حد أن أضع كل خلاصي معلقاً بديانة أدفع لها (٤) ماركات و(١٤) شلناً ثم تضيع جميعاً؟ ـ إذن فأن الديانة القديمة اليهودية تبدو لك أكثر مناسبة، يا عزيزي. ـ اسمع يا سيدي الدكتور، لاتحدثني عن الديانة اليهودية، فأنا لا أشتهيها! حتى لألد اعدائي. فلن تخلص منها إلا بالمهانة والذل. أقول لك إنها ليست ديانة، إنها كارثة. وأنا أتجنب كل ما يمكن أن يذكرني بها. وبما أن (هيرش) كلمة يهودية تلفظ في الألمانية (هيسنت) فقد أرسلت العجوز (هيرش) لرعي الحشائش وأوقع الآن (هيسنت) جامع ومدير أعمال ودلال. وبهذا تبقى لي مزية وجود حرف (هـ) على خاتمي ولا أحتاج إلى أن انقش خاتماً آخر. وأؤكد لك أن من الأهمية بمكان في هذا العالم أن تُدعى بهذا الاسم أو ذلك، فالاسم ذو دلالة. عندما أوقع (هيسنت) جامع ومدير أعمال ودلال، فلهذا التوقيع صدى رنان لا أبلغه إذا وقعت باسم (هيرش) وحده، ولايمكن عندئذ أن يعاملوني معاملة صعلوك عادي. ـ يا عزيزي السيد هيسنت، ومن يستطيع أن يعاملك هكذا، وأنت الذي تبدو أنك طالما عملت على تحضير نفسك، فلا يكاد يراك الناس حتى يجدوا فيك إنساناً متحضراً حتى قبل أن تفتح فمك بالكلام. ـ أنت على حق يا

---

(١) يسجلون على اللوح أرقام الأناشيد التي يجب أن تغنى.

سيدي الدكتور، فقد حققت تقدماً في الحضارة كأني عملاق، ولست أعرف حقاً عندما أعود إلى (هامبورغ) من الذي أستطيع زيارته، ولم أقرر حتى الآن ما يجب أن أفعله بمن كان صاحب دين. يمكن الآن أن أخدم من جديد كنيساً أسرائيلياً. أريد أن أقوم بالعبادات الموسوية الخالصة بأغان ألمانية مضبوطة، ومواعظ انفعالية، وبعض الخوارق الصغيرة التي لايمكن أن يتخلى عنها دين. وكما أني أرجو الله أن يهب لي كل الخيرات فأنا لا أطلب الآن ديانة خيراً من ذلك المعبد للاسرائيليين الإصلاحيين الذي يستحق أن يدعم. وسأفعل من أجله كل ما أستطيع، وعندما أعود إلى (هامبورغ) سأذهب كل سبت، حين لايكون هنالك سحب لليانصيب، إلى معبد الديانة الجديدة ويزعمون أنهم يحدثون انقلاباً يسمونه، دون احتشام، انفصالاً. ولكني أستطيع أن أؤكد أنها ديانة صالحة نظيفة، لا رائحة لها، ويمكن أن تكون صالحة للشعب الصغير الذي يمكن للدين اليهودي القديم ان يقدم لها بعض المنافع. الناس الصغار في حاجة إلى أشياء تفاهة يشعرون فيها بأنهم سعداء، وهم يشعرون بسعادتهم في تفاهاتهم. وهكذا فإن يهودياً عجوزاً بلحيته الطويلة وثيابه الممزقة وبشيء من الحنق، وهو فوق ذلك لايعرف قاعدة من قواعد الإملاء، إن مثل هذا اليهودي ربما شعر أنه أكثر سعادة داخلية مني أنا بكل ما عندي من حضارة. في (هامبورغ) رجل يسكن كوخاً في شارع (بيكر برايلنفانغ) يسمى (موسى لوك)، يتشرد طوال الأسبوع في الريح والمطر وعلى ظهره رزقه لكي يكسب بعض الماركات، ولكنه عندما يعود إلى البيت مساء يوم الجمعة يجد القنديل ذا الشعب السبع مشتعلاً، والمنضدة مغطاة بشرشف أبيض، فيلقي رزمته جانباً وهمومه ويجلس إلى المائدة مع زوجته الغريبة وابنته الأكثر غرابة، ويأكل معهما أسماكاً مشوية في مرق أبيض ذي مذاق لذيذ ويغني الأناشيد التي تمجد الملك داوود، ويفرح من كل قلبه بخروج ابناء اسرائيل من مصر، وبأن كل الأوغاد الذين أساؤوا إليهم كانت نهايتهم الموت، ومن أن الملك فرعون، ونبوخذنصر، وهامان، وأنتيخوس، وتيتوس، وكل هؤلاء الناس قد ماتوا، أما لوقا فما يزال يعيش ويأكل السمك مع زوجته وابنته. وأقول لك يا سيدي الدكتور أن السمك بالمرق اليهودي القديم طيب جداً، وهذا الإنسان سعيد ولا داعي ليعذب نفسه في البحث عن الحضارة، إنه يجلس في ديانة وفي ثوب غرفة نومه الأخضر سعيداً كأنه (ديوجين) في برميله، وهو ينظر في سرور إلى قناديله التي لايكلف نفسه إصلاح ذوائبها.

وأقول لك، عندما تحترق هذه الشموع في شحوب وتكون سيدة المنزل التي

عليها أن تراقبها خارج البيت في ذلك الحين، وإذا جاء خلال ذلك روتشيلد الكبير تحف به حاشيته من السماسرة والدلالين والمصدرين وموظفي المبادلة ورؤساء مكاتب الصرافة، الذين يستطيع بهم غزو العالم ثم قال له: يا موسى لوك، اسألني تكرمة لك وما سألته أعطيتك. . . » لو حدث ذلك يا سيدي الدكتور فأنا واثق من أن موسى لوك سيجيبه في هدوء: قَطِّع لي ذوائب شموعي.» وسيقول روتشيلد الكبير في إعجاب: «إذا لم أكن روتشيلد فأنا أتمنى أن أكون لوك.»

عندما كان يطور هيسنت أفكاره هذا التطوير المسهب الملحمي، كما هي عادته، قام المركيز عن أرائكه وجاء إلينا وهو يدمدم ببعض صلواته في أعماق أنفه، وعندئذ غطى (هيسنت) صورة العذراء المعلقة فوق المحراب بغطاء من حرير وأطفأ الشمعتين اللتين تشتعلان أمامها وفصل صليب النحاس ونظفه بالخرق التي نظف بها مهاميز سيده. أما سيده فكأنما كان ذائباً في حرارة الإيمان وفي العواطف الرقيقة. كان يلبس بدلاً من ثوب الغرفة ثوباً فضفاضاً من الحرير الأزرق له خيوط من الفضة، وكان أنفه يلمع في كآبة، كأنه لويس ذهبي عاشق ويقول: أيها المسيح الطيب، ثم يستلقي وهو يتنهد على وسائد الأريكة. ألا ترى يا سيدي الدكتور أني مهتاج هذا المساء. أنا جد مرتبك. روحي منطلقة وتضم عالماً اسمى:

العين تتأمل السماوات المفتوحة
والقلب يغوص في نعيم الآخرة

وقال (هيسنت) وهو يقاطع صرخة سيده المؤثرة ــ يا سيدي كامبل. يجب أن تتناول مسهلاً. لقد عاد الدم يتحرك في أحشائك. . . . أعرف ما يلزمك. . . . وتنهد المركيز: ــ أنت لا تعرف. وأجاب الخادم وهو يحرك وجهه الطيب الصغير: ــ أقول لك أني أعرف. أعرفك عن ظهر قلب. . . أعرف أنك على نقيضي. . . عندما تجوع أعطش، وعندما تعطش أجوع. أنت جد سمين وأنا جد نحيف. أنت كثير الخيال وأنا ذو فكر عملي. . . أنا تجريبي وأنت تجريدي. . . وباختصار فأنت نقيضي. وتنهد كامبيلينو ــ آه يا جوليا. . . ليتني قفاز الجلد الذي يغطي يدك ويلثم خدك. . يا سيدي الدكتور. هل رأيت (كريلنجر) في (روميو وجولييت). ــ دون شك وما تزال روحي مفتونة بها. ــ وصرخ الدكتور وكأنه ملهم، وكأن النار تنبثق من عينيه وتنير أنفه أوه. إذن فقد فهمتني. . . إذن فأنت تعرف ما أريد أن أقول عندما أقول لك: إني أحبها. . . أريد أن أكشف نفسي كلها لك. . . دعنا يا هيسنت. وقال الخادم مازحاً: ــ لا حاجة بي إلى الذهاب، وليس لك أن ترتبك

وأجاب جومبيلينو: ــ أنت لاتعرف ــ
علي إلا أن أردد اسم جوليا ماكسفيلد
يمكن أن ينفعك في شيء: سلف محبوبتك
... وبهر ذاتها جوهرة. قال المركيز وهو يئن: أوه ما أشد
...ستي... أنا محب ومحبوب، نحن نشد على أيدينا سراً، وندعس على أرجلنا تحت المنضدة، ونتغامز بالعينين، ثم لانجد فرصة. كم مرة جلست في ضوء القمر على الشرفة وتصورت أني أنا نفسي، (جولييت) وأن (روميو) أو(جومبيلينو)حدد لي موعداً للقاء، فأهتف عندئذ مثل (كريلنجر):

تعال ليلاً، يا جومبيلينو، تعال يا نهاري في ليلي
لأنك سوف ترتاح على أجنحة الليل
كما يستريح الثلج البار على ظهر غراب
تعال أيها الليل العذب الحبيب، وردّ لي
حبيبي روميو أو (جومبيلينو)

ــ ولكن وا أسفاه. اللورد ماكسفيلد يراقبنا دون هواده ونحن كلانا تقتلنا الرغبة. إذن ألا يمكن أن أرى اليوم الذي تأتي فيه إحدى الليالي، التي ألعب فيها بأزهار الشباب الناضر جميعاً، وأنا واثق أني سأربح حتى إذا خسرت. آه. إن مثل هذه الليلة تسرني أكثر من أن أربح الجائزة الكبرى في يانصيب (هامبورغ) ــ ما هذه المبالغة الخارقة. هكذا صرخ هيسنت، الجائزة الكبرى تبلغ ١٠٠,٠٠٠ مارك. ــ آه، نعم أكثر من سروري بربح الجائزة الكبرى لو أنها وهبت لي مثل هذه الليلة. ولقد وعدتني بمثلها. وقلت في نفسي إنها ستنشد عند الصباح تماماً مثل (كريلنجر):

أتريد أن تمضي، والنهار ما يزال بعيداً
إنه العندليب ، لا القبرة
الذي يقرع غناؤه أذنك القلقة
إنه يغني ليلاً على أغصان الرمانة
صدقني، يا صديقي العزيز، إنه العندليب.

كان (هيسنت) يردد خلال ذلك ، دون أن يستطيع إدراك الفكرة: ــ الجائزة الكبرى لقاء ليلة واحدة. إن لي رأياً واضحاً في حضارتكم يا سيدي المركيز. ولكني

لم أظن يوماً أنك متقدم جداً في المبالغات والخوارق. هل يمكن أن يقدم الحب سروراً لإنسان أكثر من الجائزة الكبرى. الحق يا سيدي المركيز أني منذ عرفتك بصفتي خادماً أحرزت كثيراً من العادات الحضارية، ولكني أعرف تماماً أني لا أدفع ثمن الجائزة الكبرى لقاء الحب: حماني الله وأسأل الله العافية. وحتى حين لا أضع (٥٠٠) مارك في الرصيد يبقى لي ١٢,٠٠٠ مارك أما الحب..! فإني عندما أجمع ما دفعته ثمناً للحب على وجه الاجمال وفي حياتي كلها فإنه لايتجاوز أكثر من ١٢ ماركاً و١٣ شلناً. الحب... لقد كانت لي في الحب سعادة مجانية عديدة، لم تكلفني (كروتزر) الا أني من حين إلى حين كنت أقص أظافر صديقتي الطيبة. لم تكن لي علاقة حقيقية عاطفية إلا من أجل السيدة (غودول) السمينة في (دريكفال). كانت تعبث بمجموعتي وعندما كنت أمضي إليها حاملها تذكرة، كانت تدسّ في يدي قطعة من الشطائر: قطعة طيبة جداً، أقسم لك. بلك كانت تعطيني أحياناً بعض الحلويات ثم كأس شراب. وذات يوم شكوت لها الأحلام التي تسببها لي الرطوبة فأعطتني وصفة زوجها الطبية بأحد المساحيق. وما أزال أستعمل هذه المساحيق حتى الآن، فلا أفقد تأثيرها: ولم تكن لحبنا نتائج أخرى. فكرت كثيراً يا سيدي أن تجرب يوماً هذه المساحيق. أول ما فعلته عندما دخلت ايطاليا أني ذهبت إلى العطار في ميلان لأوفر هذا المسحوق، وأنا أحمله دائماً معي. انتظر قليلاً فسوف أبحث عنه، وإذا بحثت عنه فسوف أجده وإذا وجدته فيجب عليك يا صاحب السعادة أن تأخذه.

يطول بنا الحديث إذا أردنا أن نكرر التعليق الذي رافق به الباحث المشغول كل شيء وجده في جيبه ولكننا رأيناه يخرج على التوالي: ١ ــ قطعة من شمعة. ٢ ــ عينة من الفضة تحتوي الأوراق اللازمة لتقليم الأظافر. ٣ ــ ليمونة. ٤ ــ مسدس، رغم أنه غير معبأ، فقد كان ملفوفاً في ورقة حتى لاتسبب رؤيته وحدها أحلاماً مزعجة. ٥ ــ قائمة مطبوعة بأخر سحب من يانصيب(هامبورغ). ٦ ــ كتاب صغير مجلد بجلد أسود يحتوي مزامير داوود والديون المستعجلة. ٧ ــ غصن صغير يابس من الصفصاف ملفوف على شكل عقدة. ٨ ــ علبة صغيرة ملفوفة في قماش من الحرير الوردي البالي، وتحوي بقايا بطاقة يانصيب كانت قد ربحت ٥٠,٠٠٠ مارك. ٩ ــ كسرة من الخبز المسطح، تشبه قطعة بسكويت بحري، ولها ثقب في وسطها. وأخيراً: ١٠ ــ المسحوق المذكور آنفاً والذي حدق فيه الرجل الصغير في حنان، وفي حركة من رأسه فيها إعجاب وكآبة. قال وهو يتنهد: عندما أتذكر أن (غودول) السمينة أعطتني هذه الوصفة منذ عشر سنوات، وأني الآن في

إيطاليا وأمسك بيدي هذا المسحوق نفسه، وأني أقرأ هذه الكلمات: الملح العجيب (جلوبيري) ومعنى ذلك بالألمانية الملح الممتاز، وا أسفاه يخيل إلي أني قد استعملته الآن وأني أحسّ بتأثيره. ما الإنسان! أنا في ايطاليا وأفكر بـ(غودول) السمينة في (دريكوال). من يصدق ذلك، أتصور الآن أنها في البرية، في بستانها، الذي يطلع عليه القمر ويغني فيه عندليب أو قبره. قال جومبيلينو، وهو يتنهد: إنه عندليب لا قبرة، وأنشد:

إنه يغني ليلاً على أغصان الرمانة
صدقني، يا صديقي العزيز، إنه العندليب

واستمر (هيسنت) قائلاً: ــ إنه الشيء نفسه أو ــ إذا شئت ــ صرخة كنار: العصافير التي في حديقتها تُشترى بأرخص الأثمان... المهم هو الأرض الدافئة.. السجادات في الجناح، والتماثيل الفخمة أمامه؛ مثلاً: قائد الالهة عريان، و(فينوس (أورينيا) وهما يكلفان ٣٠٠ مارك. وفي قلب البستان قامت (غودول) بصنع فوارة للمياه... ولعلها هناك تدغدغ أنفها وتسر بأحلامها، وتفكر فيَّ... آه... هذه التنهيدة تلاها وضع عاطفي قطعه المركيز وهو يطلب في صوت متعب: ــ قل لي بشرفك يا هيسنت... هل تعتقد حقاً أن مسحوقك فعال؟ ــ إنه فعال، أقسم لك بشرفي. إنه ناجع بالنسبة لي... ألست إنساناً من لحم وعظم مثلك؟ إن ملح (كلوبير) يجعل الناس جميعاً متساوين ولو أن روتشيلد تناوله لأحس بالفاعلية نفسها التي يحس بها الحوذي الصغير. سأقول لك كل ما سوف يحدث: أضع المسحوق في كأس وأضيف إليها الماء، وأحركه ولاتكاد تجرعه حتى يتجهم وجهك وتقول: بر.... بر... وستسمع بعد ذلك أنه يقرقر في بطنك وتشعر أنك غريب. وتتمدد في السرير ولكني أقول لك بشرفي أنك لاتلبث أن تنهض ثم تعود إلى الرقاد ثم تنهض وهكذا دواليك، وفي اليوم الثاني تحس أنك خفيف مثل ملاك له أجنحة فراشة وترقص صحيحاً معافى... ولكن سحنتك فقط شاحبة بعض الشحوب. ولكن ذلك لايزعجك فإذا كنت شاحب الوجه متعباً رأيناك موفور الصحة.

فصاحة (هيسنت) ومسحوقه الذي كان يحضره. كان من الممكن أن يضيعا معاً، لو لم يتذكر المركيز فجأة المقطع الذي كانت (جولييت) تقوله وهي تشرب الشراب المشؤوم. قال لي: ماذا ترى يا دكتور في (ميلر فيينا)؟ لقد رأيتها في دور (جولييت). آه يا رب يا رب، ما كان أمهرها في الدور. أنا أكثر المتحمسين لـ(كريلنجر) ولكن (ميلر) وهي تفرغ الكأس أثارتني. وتابع، وهو يتناول في حركة

مأساوية الكأس التي أذاب فيها (هيسنت) المسحوق، انظر. لقد تناولت الكأس على هذا الشكل، ثم ارتجف حتى أحسست بما أحست هي به وهي تقول:

رجفة ثقيلة تجري باردة في عروقي
وتكاد تجمد حرارة الحياة

وعندئذ كانت تجلس كما أجلس وحملت الكأس إلى شفتيها بهذه الكلمات

انتظر يا تيبو
أنا لاحقة بك يا روميو، أشرب من أجلك

ثم أفرغت الكأس... وقال (هيسنت) في لهجة فخمة: في صحتك يا سيدي (كامبل). ذلك أن المركيز في حماسته بتقليد جولييت. كان قد أفرغ الكأس وألقى بنفسه على الاريكة. وقد انهكته خطبته. ولم يبق طويلاً في هذا الوضع فقد قرع الباب فجأة... إنه فارس اللادي ماكسفيلد، يدخل ويقدم في انحناءة ضاحكة، بطاقة للمركيز وينسحب مباشرة. فض المركيز الخاتم في حمية. كان أنفه وعيناه، وهو يقرأ يشعان نشوة وحماسة، ولكن لم يلبث شحوب شبح أن غطى وجهه، وهزت الرعدة عضلاته، وقفز في حركات يائسة ومشى في الغرفة في خطوات طويلة وضحك في غضب وصرخ: ــ يا لشقائي، أنا لعبة القدر. وسأل (هيسنت) في صوت مرتجف، وهو يمسك مرتعشاً الصليب بين يديه، وقد بدأ بتنظيفه: ــ ماذا حدث؟ ماذا حدث.. أيجب أن تقوم بالهجوم هذه الليلة؟ وسألته وأنا لست أقل عجباً: ــ ماذا حدث لك يا سيدي المركيز؟ صرخ المركيز وهو يرمي إلي بالبطاقة التي تلقاها يجري يائساً حول الغرفة ويرفرف بثوبه الأزرق كأنه غيمة عاصفة: ــ اِقرأ. اقرأ. ــ يا لشقائي. أنا لعبة القدر. قرأنا في البطاقة الكلمات الآتية:

«جومبيلينو الرقيق! عند منبلج الصباح، أنا مضطرة إلى السفر إلى انكلترا... سبقني أخي وهو ينتظر في فلورنسا. لم ألاحظ إلا الآن أن هذه الحرية لن تبقى لنا إلا هذه الليلة وحدها.... فلننتهزها.... لنشرب حتى الثمالة كأس الرحيق التي يقدمها لنا الحب.. انتظر.... وأرتجف»

«جوليا»

وصرخ جومبيلينو يائساً: ــ يا شقائي... أنا لعبة القدر الحب يريد أن يقدم لي كأس رحيقه وأنا، يارب، أنا، لعبة القدر... جرعت كأس ملح (كلوبر)...

من ذا الذي ينقذني من هذه الشربة... النجدة! النجدة! قال (هيسنت) وهو يتنهد: ـ لايستطيع إنسان على ظهر الأرض نجدتك. وقلت له في عطف: أنا أشفق عليك من كل قلبي. أن تجرع كأساً من ملح (كلوبر) بدلاً من كأس الرحيق... أمر جدّ مرير. وبدلاً من عرش الحب تنتظرك أريكة أقل مجداً. وظل المركيز يصرخ: ـ أيها المسيح الطيب، أيها المسيح الطيب... أشعر بالمسحوق يجري في عروقي... أيها العطار الوفي دواؤك ذو فعالية سريعة... ولكني لا أتوقف من أجل هذه... أريد أن أطير إليها أريد أن أقع على قدميها... وأن أريق دمي عليها... قال (هيسنت) محاولاً تهدئته: ليس الموضوع موضوع دم... ولست من رجال هوميروس... لاتستسلم لعاطفتك... ـ كلا ... كلا... أريد أن ألقاها... أن أرتمي بين ذراعيها... يا ليل... يا ليل... واستمر (هيسنت) يقول في صبر فيلسوف: ـ أقول لك لن ترتاح بين ذراعيها وأنك مضطر إلى القيام عشرين مرة. لاتستسلم لعاطفتك وكلما قفزت في الغرفة كما تفعل الآن لقيت عنتاً، وزادت فاعلية ملح (كلوبر) سرعة... ثم إن هيجانك يساعد الطبيعة. يجب أن تحمل كالرجل ما كتبه القدر لك. وما دام قد حدث ذلك على هذا الشكل فربما كان خيراً لك. الانسان مخلوق أرضي وهو لايفهم ما تقرره السماوات. الإنسان يظن أنه يبحث عن السعادة فإذا الشقاء ينتظره في منتصف الطريق، وهو يحمل عصاه، وعندما تقع عصا برجوازية على ظهر نبيل يشعر بها الانسان حقاً يا سيدي المركيز. وصرخ جمبيلينو غاضباً: ـ يا لشقائي، أنا لعبة القدر. وظل الخادم مستمراً في هدوئه نفسه: ـ الإنسان ينتظر غالباً كأساً ملأى برحيق الحب، فإذا هم يقدمون لهم شربة من الأثقال يشربها على ظهره. وإذا كان الرحيق حلواً كانت كؤوس الأثقال أكثر مرارة... ومن أكثر سعادة: الرجل الذي يضرب الآخر حتى ينتهي إلى التعب أم الإنسان الذي يتلقى الضربات ثم تتوقف عندما لايستطيع أن يحتمل. ثم أن هنالك خطراً أشد هولاً، وذلك عندما يترصد الشفاء بخنجر أو بسم، الإنسان على درب الحب حتى لايطمئن الإنسان على سلامته. لعل ذلك يا سيدي المركيز ما حدث لك فعلاً، لأنك ربما هرعت إلى جميلتك في حميا الحب، فإذا أنت على الطريق تجد ايطالياً صغيراً يحمل خنجراً طوله ٦ (أنات)، ويقطع لك (والعياذ بالله فلست أريد أن أكون غراباً) عراقيبك. لأنك لاتستطيع هنا، كما في (هامبورغ) أن تستدعي الشرطة والحرس فوراً، وليس في جبال الأبينان حرس خلال الليل... ـ وتابع الناصح الصلب الذي لايرحم حديثه دون أن يتأثر أقل تأثير بيأس المركيز... ثم إنك قد تكون جالساً دافئاً عند

اللادي ماكسفيلد، فإذا حموها يعود فجأة من سفرته، ويسدد إليك مسدسه في حلقك ويجبرك على توقيع صك له بـ ١٠٠,٠٠٠ مارك. لا أريد أن أكون غراباً، ولكني أفترض أنك رجل جميل وأن اللادي ماكسفيلد يرعبها أن تفقد هذا الرجل الجميل، وأنها في غيرتها مثل سائر النساء لاتريد أن تكون بعدها سعيداً بقرب امرأة أخرى، فألقت عليك قبضة من المسحوق الأبيض وقالت لك: فكر يا عزيزي أنك قد حميت إلى درجة الركض ــ وستكون غداً في الواقع رطباً وبارداً ــ ذات يوم كان يعيش رجل اسمه (بيبر) يهيم هياماً شديداً بفتاة يسمونها الملاك الصغير (المنتفخ) وتسكن في شارع (كافيا شيري) ويسكن الشاب في (فيهلنتفيت). . . . وصرخ المركيز في غضب وقد نفذ صبره إلى آخر حد: أريد يا هرش. . . أريد أن يشرب صاحبك (بيبر من فيهلنتفيت) وملاكه المنتفخ في شارع (كافيماشيري) وأنت وصاحبتك (غودول) أن تشربوا جميعاً ملح (كلوبر) وأن تجدوه في بطونكم. وأجاب (هيسنت) في شيء من الحرارة: وماذا تأخذ علي يا سيدي كامبل أيكون ذنبي أن اللادي (ماكسفيلد) تريد أن تسافر تماماً هذه الليلة وأنها تدعوك إليها تماماً هذا اليوم. أأستطيع أن أتنبأ بذلك؟ هل أنا أرسطو؟ هل أنا موظف عند العناية الإلهية؟ وعدتك فقط بأن يكون المسحوق فعالاً وسيكون فعالاً. أنا واثق من ذلك كما أثق أنني سأكون ذات يوم في السماء وأنت عندما تقوم هنا وهناك في مثل هذا الغضب بقفزات عنيفة هائجة تجعل تأثير المسحوق أكثر سرعة. وقال جمبيلينو وهو يتنهد ويضرب برجله ويستلقي في غضب على الأريكة ويكاتم غضبه في عنف: ــ حسناً. . . أريد أن أكون هادئاً. وحدق السيد والخادم كلاهما بصاحبه في صمت أمداً طويلاً، وأخيراً قال السيد بعد زفرة عميقة وفي صوت نصف خافت: ــ ولكن يا هيرش ماذا عسى تلك المرأة تظن بي، إذا لم أبادر إليها؟ إنها تنتظرني، بل وترغب بي، وهي ترتجف، وتحترق حباً. وقال (هيسنت) في نفسه وهو يهز رأسه في حزن: ما أحلى قدمها ولكن صدره كان يضطرب ويختلج في عنف، وتحت ثوبه الأحمر كانت تتحرك فكرة جريئة: وأخيراً قال في صوت مرتفع: ــ يا سيدي كامبل. أرسلني عوضا عنك. وعلت وجه (هيسنت) الشاحب حمرة قانية وهو ينطق بهذه الكلمات.

(١٠)

عندما وصل (كانديد) إلى (الدورادو) رأى في الشارع عدة أطفال يلعبون بكرات من الذهب لا من الحجارة. هذه الفخفخة جعلته يعتقد أنهم أبناء ملك ولم

تكن دهشته قليلة عندما علم أن الكرات الذهبية كانت مبذولة لـ(الدورادو) مثل الحصى عندنا، .وأن الطلاب يستخدمونها في ألعابهم. حدث شيء مماثل إلى رجل أجنبي من أصدقائي عندما قدم إلى ألمانيا وقرأ، أول مرة، كتباً ألمانية. أدهشه كثيراً غنى الأفكار فيها، ولكنه لم يلبث أن رأى أن الأفكار في ألمانيا كثيرة كثرة كرات الذهب عند (الدورادو)، وأن هؤلاء الكتاب الذين اعتبرهم أمراء الذكاء لم يكونوا غير طلاب.

عادت إلى ذاكرتي هذه الحكاية عندما كنت على وشك كتابة أحلى التأملات الفلسفية عن الفن والحيـاة. عند ذلك جعلت أضحك واحتفظ بأفكاري في قلمي أو على الصحيح أخربش عوضاً عن ذلك صورة أو وجهاً على الورق واقتنعت أن مثل هذه السجادة أكثر نفعاً لألمانيا من شلالات (الدورادو) من أفكار ذات عظام إلى حد كثير أو قليل أو هي أحياناً مموهة بذهب فكري كثير اللبس والغموض.

وأنت، يا قارئي العزيز، ترى في السجادة التي أعرضها عليك الآن وجوهاً تعرفها جيداً لـ (جومبيلينو) وخادمه (هرش هيسنت) وإذا كان الأول ممثلاً بملامح أقل استقراراً فأنا آمل أن تكون أكثر تعمقاً لتعرف فيه سجية سلبية دون حواش واضحة. وإذا قمت بتقديم الصورة في شكل أكثر موضوعية فيمكن أن أجلب لنفسي محاكمة بتهمة القدح والذم..........

....

....

....

هبط الليل، وعلى المنضدة شمعدانات فيها شمـوع مشتعلة. كان نـورها يتلاعب على إطارات الذهب في لوحات القديسين المعلقة على الجدران وكأنما النور المترنح والظلال المتحركة تهب لها حركة الحياة. وفي الخـارج أمام النافذة كانت أشجار السرو السوداء تنتصب في شكل سري جامدة في ضوء القمر الفضي، ومن بعيد ترنّ أغنية حزينة موجهة إلى العذراء في أنغام متقطعة، كأنما ينشدها صوت طفل مريض. وتسود الغرفة حرارة ثقيلة غريبة، والمركيز كريستوفور دي جومبيلينو، جالس أو على الأصح راقد فـي إهمال يصطنعه الرجل ذو المركز على وسائد الأريكه وجسده النبيل الذي ينضح عرقاً يرتدي ثوباً خفيفاً من الحرير الأزرق، ويمسك بيده كتاباً مجلداً بجلد مراكشي أحمر ومذهب في كعبه ويدندن في صوت عالٍ ومرهق. عينه خلال ذلك فيها شيء من لمعان رطب هو من خصائص القطط العاشقة،

وخداه بما فيهما جناحا أنفه عليهما صبغ خفيف لصفرة مؤلمة. ومع ذلك فإن هذه الصفرة، يا قارئي العزيز يمكن أن تفسر بالفلسفة الإنسانية عندما نتذكر أن المركيز قد جرع، في الليلة السابقة كأساً مترعة من ملح (كلوبر).. أما (هيرش هيسنت) فكان يقبع على الأرض ويرسم، بقطعة كبيرة من الطبشور على الخشبية الرمادية أرقاماً تشبه الأرقام التالية، ولكن على مستوى أكبر جداً:

٥ ـ ٥٥ ـ ٥٥ ـ ٥٥

ـ ٥ ـ ٥ ـ ٥ ـ ٥٥

٥٥ ـ ٥ ـ

٥ ـ ٥ ـ ـ

ويبدو أن هذه المهمة شاقة على الرجل الصغير.. كانت أنفاسه تتقطع عند كل انحناءة يقوم بها ظهره، ويدمدم في مزاج: مقطع ثنائي ـ تفعيلة ـ وتد مجموع ـ وتد مفروق. فعولن، طاعون. ولكي تكون حركاته أكثر حرية خلع ثوبه الأحمر فرأينا ساقين صغيرتين قصيرتين متواضعتين في سروال عريض وذراعين أكثر طولا وهزالاً في فسحة الأكمام البيض لقميص رجراج. وسألته: ما هذه الوجوه الغريبة التي ترسمها؟ كنت قد حدقت طويلاً أتأمل مهنته هذه. وأجابني وهو يئن: ـ إنها تفعيلات بالحجم الطبيعي، وأنا الانسان الشقي يجب أن احتفظ بهذه التفعيلات في رأسي، ويداي توجعاني بسبب كل هذه التفعيلات التي علي أن أكتبها الآن. إنها التفعيلات الحقيقية الخاصة بالشعر. ولولا رغبتي في التقدم في معارج الحضارة لأرسلت الشعر منظوماً على كل هذه التفعيلات. إن سيدي المركيز يلقي علي الآن درساً خاصاً في فن الشعر. السيد المركيز يقرأ الأبيات وأنا أفسّر عدد تفعيلاتها، ويجب أن أسجل ذلك وأحسب بعد ذلك إذا كانت لكل قصيدة حسابها الصحيح. وقال المركيز في لهجة تعليمية فخمة: ـ أنت ترانا في الواقع مشغولين بعمل غنائي رفيع. أنا أعرف يا دكتور أنك من هؤلاء الشعراء ذوي الأفكار الغريبة الذين لايريدون أن يروا في التفعيلات أهم ما في الشعر. ولكن الفكر المثقف المهذب لايسحره إلا صقل الشكل. وهذا ما لا تستطيع أن تتعلمه إلا من اليونان ومن الشعراء المحدثين الذين يريدون إحياء الذوق اليوناني ويفكرون على النمط اليوناني، ويشعرون على النمط اليوناني ويحاولون نقل عواطفهم إلى الناس على هذا النمط. وقال لي (هيسنت) في صوت خافت وهو يصر على شفتيه

الرقيقتين ويغمز بعينيه في رضا وكبرياء ويرجح رأسه الصغير العجيب ـ السيد كامبل يتكلم أحياناً مثل كتاب. وأضاف في صوت أعلى: لقد قلت لك إنه يتكلم أحياناً كأنه كتاب، وعندئذ لاتحسب أنه إنسان عادي، بل مخلوق أعلى. وكلما سمعته وجدتني أكثر غباء. وسألت المركيز: وبماذا تمسك؟ وأجاب: أمسك بلآلىء. ثم قدم لي كتاباً. عندما سمع (هيسنت) كلمة لآلىء قفز قفزة، ولكنه عندما لم ير إلا كتاباً ابتسم ابتسامة رحمة. هذا العقد من اللآلىء يحمل عنوان: قصائد الكونت (راملر)، شتوتجارت ١٨٢٨، طبع غوتا. قال لي المركيز شاكياً: لم أستطع إغماض عيني طوال الليل... كنت مهتاجاً. كان علي أن أقوم من سريري إحدى عشرة مرة.. ومن حسن حظي أني شغلت بهذه القراءة الممتازة التي لا أبحث فيها إلا عن المعرفة الشعرية، وقد غرفت منها ما يعزيني في الحياة الواقعية... أنت ترى مقدار الاحترام الذي أكنه لهذا الكتاب. لاتنقصه صحيفة وأنا في الحالة التي أنا فيها. ـ أنا واثق يا سيدي الدكتور أن ليس الناس جميعاً يهتمون بهذا الكتاب اهتمامك. ـ أقسم لك، بسيدتنا لوريت، وبمقدار ما أنا إنسان شريف إن هذه القصائد لا مثيل لها. كنت أمس ـ كما تعلم ـ شقياً لأن القدر الحسود حرمني امتلاك (جوليا) فقرأت هذه الأبيات، وعرفت فيها عدم اكتراث بالعلاقات العامية حتى إني خجلت من ألمي في الحب. جمال هذا الشاعر الخاص هو أنه يفهم الصداقة على الخصوص، وهو في هذا أكبر من الشعراء الآخرين.... إنه لايطري ذوق الجمهور العادي، ويشفينا من ولهنا بالنساء وهو وله يسبب لنا كثيراً من الشرور... أيتها النساء أيتها النساء... من ينقذنا من قيودكن.... من ينقذنا يحسن إلى الإنسانية

....

....

....

يجب أن أعترف للمركيز بهذه الشهادة إنه ينشد القصائد جيداً... يتنهد في الأماكن الطيبة. يقوم بملامح الأسى والفتنة في المواقع المقصودة... و(هيسنت) لايكف عن ترديد المقاطع والأوزان وعن جمع عدد التفعيلات... ولكنه يهتم بأنغام الأغاني أكثر ما يهتم. قال: في هذا الموضوع هنالك كثير مما يجب أن نعرفه أكثر من معرفتنا له في القصائد والمقطوعات، ذلك أن الاغاني تطبع تفصيلاتها منفصلة في رأس الاغنية، فتستطيع أن تعد تفعيلات الأغنية. ويجب على كل

الشعراء أن يفعلوا كما يفعل (راملر) الشاب في قصائده الصعبة، وذلك أنه يطبع التفعيلات في رأس القصيدة وكأنه يقول للناس: انظروا إلي إنسان شريف، لا أريد أن أغشكم. إن هذه الخطوط المعوجة أو المستقيمة التي أضعها فوق كل قصيدة هي ـ كما يمكن أن يقال ـ حساب نهائي لكل قطعة، وأنتم تستطيعون تماماً عندما تعدونها أن تقدروا الجهد الذي بذلته فيها. إنها كما يمكن أن يقال ملصقة بالأوزان المرتبطة بكل مقطوعة. ويمكن أن تقيسوا بعدي، وأن تعرفوا هل فيها مقطع واحد ناقص، فإذا حدث هذا النقص فلكم الحق في أن تدعوني لصاً لا إنساناً شريفاً ـ ولكن هذا المظهر الشريف هو بالضبط؟ ما يخدع الجمهور ـ عندما يرون أن التفعيلات مكتوبة فوق المقطوعة يقولون لأنفسهم: لا أريد أن أكون رجلاً سيء الظن فلماذا أعدّ التفعيلات بعد المؤلف؟ إنه إنسان شريف دون ريب... ـ وعندئذ لايلجأ إلى العد ويقع في الفخ. ولكن هل يمكن أن يعد الناس دائماً؟ نحن الآن في ايطاليا، وأنا هنا أجد فراغاً لأحسب بالطباشير التفعيلات على أرضية الغرفة وأن أجمع كل أغنية ولكني في (هامبورغ)وفي مهنتي لا أجد الوقت الكافي وعلي أن أعتمد على الكونت (راملر) الشاب، دون أن أتحقق من ذلك، كما يحدث ذلك في أكياس الدراهم التي يسجل عليها عدد (التاليرات) التي تحتويها، إنها تعبر مختومة من يد إلى يد ويثق كل واحد بصاحبه في قيمة ما هو مكتوب. ومع ذلك يمكن أن نجد أمثلة عن إنسان خامل لايجد ما يفعله، فيفتح الكيس ويعدّ ما فيه فيجد نقصاً في عدد (التاليرات)، وهكذا يمكن أن يحدث بعض الغش في الشعر. وخاصة عندما أتصور أكياس الدراهم التي أشك فيها، ذلك أن أخا زوجتي حدثني أن في سجن (أودنسي) شخصاً يسمى كونت (راملر) البكر وكان في منصبه وكان يفتح، في قلة شرف، الأكياس التي تمر تحت يديه ويسحب منها، في قلة شرف، بعض الدراهم ثم يعيد خياطتها في مهارة ويشحنها. وعندما يسمع الإنسان مثل هذه المطبات يفقد ثقته بالناس ويصبح شكاكاً حذراً... في العالم كثير من الخداعات والألاعيب، وفي الشعر كذلك مثل ما في سائر المهن... وتابع (هيسنت)، بينما كان المركيز ماضياً في شكاواه دون أن يكترث بنا، وقد ملك عليه نفسه شعور آخر... الشرف... الشرف... يا سيدي الدكتور هو الأمر الرئيسي... ومن لم يكن إنساناً شريفاً نظرت إليه كأنه نصاب، ومن نظرت إليه نظرتي إلى نصاب لا أشتريه بشروى نقير... ولا أقرأ له شيئاً، وباختصار لاتكون لي به علاقة.. أنا إنسان، يا سيدي الدكتور لا أتبجح بشيء، وإذا كنت أتبجح بشيء فأنا أفتخر بأني إنسان شريف.. أريد أن أقص عليك جزءاً من حياتي،

وسيدهشك ذلك. . . قلت لك إنك سيدهشك ذلك وأنا واثق ثقتي بأني إنسان شريف. في (هامبورغ) رجل يقطن في (شبيرس أورت) وهو ــ فاكهاني ــ بقال ــ يُسمى (بوشيت) يعني أني أسميه (بوشيت) لأننا صديقان حميمان، أما الناس فيسمونه (بوش). وزوجته تدعى السيدة (بوش) لم تستطع قط أن تحتمل عبث زوجها بمجموعتي. وعندما يريد أن يلعب عندي كنت أحمل له بطاقة اليانصيب إلى بيته ــ كان يقول لي دائماً ونحن في الطريق: ــ هيرشي أريد أن ألعب عندك بهذا الرقم أو ذاك. إليك الثمن. . وأقول له عندئذ؛ حسناً يا (بوشيت) وأدخل المنزل، وأضع له جانباً الرقم في مغلف وأكتب فوقه بالأحرف الألمانية «لحساب السيد كريستيان هنريش بوش» والآن عليك أن تسمع وتعجب. كان ذلك في يوم جميل من أيام الربيع. الأشجار التي تحيط بسوق المضاربات (البورصة) خضراء والنسيم ناعم، والشمس تلمع في السماء وأنا أمام المصرف في (هامبورغ). وصل (بوش)، صاحبي (بوشيت) يتأبط تحت ذراعيه السيدة (بوش) السمينة، حياني قبلها وحدثني عن الربيع الرائع، ربيع الله الطيب، ولاحظ بعض الملاحظات الوطنية عن الحرس القومي، وسألني: كيف تجري الأعمال؟ وأجبته أنهم وضعوا منذ ساعات أحد الناس على عمود التشهير، وقال لي ونحن نتحاور: لقد حلمت ليلة أمس أن الرقم (١٥٣٨) سيربح الجائزة الكبرى. في الوقت نفسه، وكانت السيدة تتطلع إلى تماثيل الأباطرة أمام المصرف دسّ في يدي ثلاث عشرة قطعة ذهبية كلها (لويسات) موزونة. اعتقد أني ما أزال أحسها في يدي، وقبل أن تلتفت السيدة (بوش) قلت له: حسناً يا بوشيت أنا ماض، وذهبت مباشرة، دون أن أتطلع إلى ما حولي، إلى المكتب الرئيسي، وأخذت الرقم (١٥٣٨) ووضعته في مغلف فور عودتي إلى المنزل وكتبت عليه «لحساب السيد كريستيان هنريش بوش». سبحان الله. بعد خمسة عشر يوماً، ولكي يضعني الله موضع التجربة، ربح الرقم (١٥٣٨) مقدار ٥٠,٠٠٠ مارك. . . ولكن ماذا فعل (هيرش)، (هيرشي) هذا الذي تراه أمامك؟ (هيرش) هذا ذو القميص الجميل الأبيض والربطة الجميلة البيضاء ركب عجلة. مضى إلى المكتب الرئيسي وقبض ٥٠,٠٠٠ مارك وذهب إلى (شبيرس أورت) ولم يكد يراني (بوشيت) حتى سألني: لماذا أنت جميل جداً هذا الصباح ياهيرشي. . . أما أنا فلم أرد عليه بكلمة ولكني وضعت أمامه على المنضدة كيساً كبيراً مفعماً بالذهب ثم قلت له في زهو: ــ يا سيد كريستيان هنريش بوش، الرقم (١٥٣٨) الذي تكرمت فوضعته عندي كان سعيداً بربح الجائزة الكبرى بـ ٥٠,٠٠٠ مارك. ولي الشرف بأن أقدم لك المال في هذا الكيس. . وأسمح لنفسي بطلب وصل.

عندما سمع بوش هذا الكلام شرع يبكي، والسيدة (بوش) وقد سمعت القصة شرعت هي أيضاً في البكاء والخادمة الحمراء السمينة بكت، وغلام الحانوت الأحدب بكى، والأطفال بكوا، وأنا الإنسان الحساس لم أستطع أن أبكي وكدت أقع في انهيار، وأخيراً انهمرت الدموع من عيني كأنها جداول، وظللت أبكي ثلاث ساعات.

كان صوت الرجل الصغير يختلج وهو يقص هذه الحكاية، وأخرج من جيبه في أبهة علبة صغيرة كنت تحدثت عنها، ملفوفة بقماش وردي وأراني الورقة التي يعترف فيها (كريستيان هنريش بوش) بأنه قبض ٥٠,٠٠٠ مارك. قال (هيسنت)، والدموع في عينيه: ــ عندما أموت أريد أن يدفن معي هذا الوصل. في قبري، وعندما أقدم هنالك في السماء حساباً عن أعمالي في يوم الحساب، سأتقدم وفي يدي هذا الوصل، أمام عرش العلي القادر، وعندما يقرأ ملاك الشر سجل أعمالي السيئة التي قمت بها في هذا العالم، وعندما يهم ملاك الخير بقراءة أعمالي الطيبة فسأقول في كل هدوء: اسكت. لا أطلب إلا أمراً واحداً: هل هذا الوصل قانوني؟ هل هذا توقيع (كريستيان هنريش بوش) حقاً؟... وعندئذ يأتي ملاك صغير وهو يطير ويقول إنه يعرف جيداً توقيع (بوشيت) ويقص تلك القصة العجيبة عن أمانتي التي قمت بها ذات يوم. وعندئذ يتذكر خالق الخلود، الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة، هذه القصة، ويثني علي أمام الشمس والقمر والنجوم ويحسب فوراً في رأسه بعد أن يطرح سيئاتي من ٥٠,٠٠٠ مارك من حسناتي أن بقي لي نقير واحد لحسابي فيقول: هيرش لقد عينتك ملاكاً من الدرجة الأولى وستلبس أجنحة من ريش أبيض وأحمر.



مدينة لوك

(١)

الطبيعة المحيطة بالإنسان تؤثر فيه، فلماذا لايؤثر الإنسان في الطبيعة؟ وهي في ايطاليا عاطفية مثل شعب البلاد. وهي عندنا في ألمانيا أكثر جدية ومعقولية وصبراً. ألم تكن للطبيعة، في الأيام الغابرة حساسية مثل حساسية الناس، أو أشد منهم. قالوا: إن طاقة (أورفي) الملهمة استطاعت أن تسحب بأنغامها الأشجار والأحجار. أيمكن أن تحدث مثل هذه المعجزة في هذه الأيام؟ لقد أصبح الناس والطبيعة باردي الدماء فاتري العزم، يتثاءبون، ويتبادلون النظرات. إن شاعراً نال جائزة صاحب الجلالة ملك بروسيا، لايستطيع أن يحرك بأنغام قيثارته جبل (تامبلوف) أو زيزفونات برلين.

وللطبيعة أيضاً حكايتها، وهي غير الحكاية التي يعلمونها في المدارس. يجب أن يعين في إحدى جامعاتنا في منصب أستاذ خارق للعادة أحد هذه العظايات (سام أبرص) الرمادية التي تعيش منذ ألوف السنين في شقوق صخور (الأبينان) وعندئذ سوف نسمع منها أموراً خارقة للعادة حقاً. ولكن كِبَر بعض السادة في كلية الحقوق يثور منكراً مثل هذا التعيين. ذلك لأن منهم من حسد الكلب المسكين (فيدو) وخاف أن يحلّ هذا الكلب العالم محلهم في مناصب المعيدين الجامعيين والمجمعيين.

إن العظايات، ذات الأذناب الصغيرة اللينة المستقيمة، والعيون الصغيرة الجميلة النابغة حدثتني عن أشياء غريبة، عندما كنت أمضي وحيداً أتسلق جبال (الأبينان). الحق أن بين الأرض والسماء أموراً لايدركها فلاسفتنا فحسب بل

لايدركها كذلك أصحاب العقول البسيطة.

حدثتني العظايات أن بين الأحجار تدور رواية مأثورة تذكر أن الله أراد يوماً أن ينقلب إلى حجر لكي يخلصها مما تكابد من عناء. ولكن عظاية عجوزاً فكرت في أن هذا التناسخ لايمكن أن يتم إلا إذا أمر الإله بالتوالي نسخاً حيوانياً ونباتياً في أشكال الحيوانات والنباتات وبعد إنقاذها.

ليست هناك إلا أعداد قليلة من الأحجار التي تشعر والتي لاتتنفس إلا في ضوءالقمر، ولكن هذه الأحجار المعدودة التي تشعر بالطبيعة شقية شقاء مخيفاً. أما الأشجار فإنها أحسن حظاً: فهي يمكن أن تبكي. والحيوانات هي أكثر المخلوقات مزية، لأنها تستطيع أن تتكلم، كل واحد منها حسب طريقته، والناس أحسن الناس كلاماً. وعندما يتم خلاص العالم جميعاً ذات يوم، فيمكن للخليقة كلها أن تتحدث كما يغني الشعراء في هذه الأزمنة الأسطورية.

العظايات عرق ساحرٌ، يحبون مخاتلة الحيوانات الأخرى، أما معي فقد كانوا جدّ متواضعين، وتنفسوا في إخلاص كبير، وحدثوني عن حكايات (الأتلنتيد) التي أريد عما قريب كتابتها لمصلحة العالم وبنائه. لقد وجدتني على صداقة كاملة مع هذه المخلوقات الصغيرة التي تحتفظ بوثائق الطبيعة السنوية وحولياتها السرية. أتراهم كانوا رجالاً سحروا ذات يوم وهم من أسر من رجال الكهنوت مثل رجال الدين في مصر، الذين يسكنون تجاويف الصخور الصوانية، ويترصدون مثلهم أسرار الطبيعة؟ إننا نرى على رؤوسهم الصغيرة وأجسادهم وأذنابهم رموزاً سرية تراها على الأعمدة الهيروغليفية وعلى ثياب كتاب الهيروغليفية في مصر.

أصدقائي الصغار علموني كذلك لغة الإشارات التي أستطيع بها الحديث مع الطبيعة كلها. وكان ذلك مما ينعش روحي، وعند المساء على الخصوص، عندما تغطي الجبال هذه الظلال التي تجعلك تحسّ برعشة حلوة وعندما تصخب الشلالات، وتنشر النباتات عطورها، وتخترق البروق السريعة الأفق.

أيتها الطبيعة، أيتها العذراء الخرساء. أنا أفهم تماماً البروق التي تأتلق فوق وجهك النبيل، كأنها تحاول محاولة عاجزة لكي تتكلم، إنك تهزيني هزة جدّ عميقة، حتى البكاء. وعندئذ أراك تفهميني، فتصفو نظرتك وتضحكين إليّ بعينيك الذهبيتين. أيتها العذراء الجميلة أنا أفهم نجومك وأنت تفهمين دموعي.

(٢)

قال لي حرذون عجوز: ـ لاشيء يريد أن يتقهقر في العالم. كل شيء يمشي، وستحقق الطبيعة أخيراً تقدماً كبيراً. الأحجار ستنتقل إلى مرحلة النبات، والنبات يصبح حيواناً والحيوانات ناساً، والناس سيصبحون آلهة. وسألته: ـ ولكن ماذا سيحل بهذه العجائز اللدنة من الآلهة العجائز المساكين؟ ـ سيتم إصلاح ذلك، يا صديقي العزيز، يمكن أن يعتزلوا، أو يحالوا إلى التقاعد في شكل مشرّف. ـ تعلمت كذلك أسراراً أخرى من صديقي فيلسوف الطبيعة ذي الجلد الهيروغليفي. ولكني أقسمت له بشرفي أن لا أبوح بها، وأنا أعرف منها الآن ما لا يعرفه (شيلنغ) ولا (هيجل). سألني الحرذون العجوز، وهو يبتسم ابتسامة ساخرة عندما نطقت أمامه بهذين الاسمين ـ وما رأيك في هذين الرجلين؟ وأجبت: ـ عندما نفكر أنهما ليسا إلا رجلين لا حرذونين فيجب أن تدهشنا معرفة هـذين الشخصين. إنهما لايعلمان في الحقيقة إلا عقيدة واحدة، فلسفة الهوية التي تعرفها تماماً، ولكنهما يختلفان فقط في طريقة تقديمها لنا. عندما يضع (هيجل) مبادىء فلسفته تظن أنك ترى هذه الوجوه الغريبة لمعلم مدرسة ماهر يعرف كيف يشكل في ترتيب حذق كل أنواع الأرقام، حتى إن المشاهد العادي لايرى فيها إلا المظاهر، البيت، المركب أو الجندي الذين تكونهم هذه الأرقام. أما الطالب المفكر فيمكن أن يتعرف فيهم حلاً لبعض الأمثلة العميقة في الحساب. وعروض السيد (شيلنغ) تشبه لوحات حيوانات هندية التي هي خليط من كل أنواع المخلوقات، الأفاعي، العصافير، الفيلة وغيرها من المخلوقات الحية المجموعة في اندماج عبثي. هذه الطريقة في العرض أكثر رشاقة وابتسامة ودفئاً وحيوية كل ما فيها يعيش بينما نرى أرقام (هيجل) المجردة قاتمة جداً تجمدنا ببرودة قاتلة. وأجاب الحرذون العجوز: ـ حسناً ـ حسناً ـ لقد أدركت ما تفكر فيه، ولكن قل لي، هل هؤلاء الفلاسفة كثير من السامعين؟ وعندئذ أوضحت له أن الجمال في قافلة علماء برلين يتجمعون حول ينبوع الحكمة الهيجيلية، ويركعون ويتلقون أثقالهم من القرب الثمينة، ثم يمضون ليجتازوا الصحارى الرملية في (براند بورغ). وصورت له بعد ذلك الأثينيين ـ الجدد يتزاحمون في (ميونخ) ليشربوا من نبع شراب (شيلنغ) الفكري... وكأنه من أحسن أنواع البيرة، كأنه صنبور الحياة وشراب الخلود.

صفرة الغبطة والحسد جرت فوق جلد الفيلسوف العجوز عندما علم أن زملاءه يتمتعون بشرف مثل هذا التزاحم، وقال لي في دعابة: ـ ومن يبدو لك أنه

أكبرهما؟ وأجبت: ــ لا أستطيع التقرير مثلما لا أستطيع تقرير ما إذا كان (شيشنر) أكثر فناً من (سونتاج) وأظن.... وصرخ الحرذون في لهجة قاطعة متعجرفة من احتقار كامل: تظن... تفكر، ومن الذي يفكر فيكم يا معاشر الناس. يا سيدي الحكيم منذ ثلاثة آلاف سنة أقوم بأبحاث عن الوظائف العقلية في الحيوانات، وكان الناس على الخصوص موضوع دراساتي، ثم القرود والأفاعي. ووجهت إلى هذه المخلوقات من الاهتمام مثلما وجهه (ليوني) لدراسة سرقات أشجار الصفصاف، وأستطيع أن أنبئك بنتيجة مؤكدة واضحة لملاحظاتي هي أن أحداً من الناس لايفكر وأنه من حين إلى حين يأخذ من الناس نزوة ما، وأن الناس يسمون أفكاراً مثل هذه اللمحات اللاإرادية. ويسمون الفكر عملية التصنيف في سلسلة. وأنت تستطيع أن تردد باسمي أن أحداً من فلاسفتكم لايفكر، لا (هيجل) ولا (شيلنغ)، أما الفلسفة فليست إلا هواء وماء مثل الغيوم في السماء. طالما رأيت مثل هذه الغيوم تمضي رائعة ملونة فوق رأسي. وإذا شمس الغداة تذيبها وتصهرها في العدم الذي جاءت منه. ليس هناك إلا فلسفة واحدة حقيقية، وهي التي كُتبت بالهيروغليفية الخالدة على ذنبي.

عندما نطق الحرذون العجوز بهذه الكلمات في احتقار بالغ أدار لي ظهره، ومضى في بطء وهو يعرض ذنبه فرأيت عليه أعجب الحروف ممتدة في برقشة رمزية.

(٣)

دار الحوار الذي أوردته في الفصل السابق على الطريق بين حمامات لوك ومدينة لوك، قرب شجرة الشاهبلوط[1] ذات الخضرة العريضة الزاهية التي تُظِلّ الجدول. وفي حضور خنزير عجوز كان وحيداً معتزلاً هناك. ذهبت إلى لوك لألقى فيها (فرنسسكا) و(ماتيلد) وكان علي، كما اتفقنا، أن نلتقي منذ ثمانية أيام. ولكني، في الموعد المحدد كنت في رحلة متشردة، وكان علي بعد ذلك أن أعود إلى طريقي مرة أخرى. كنت أمضي سيراً على الأقدام، على طول الجبال البديعة وكتل الأشجار، ومن بينها البرتقالات الذهبية، نجوم النهار، التي كانت تلمع في أعماق الخضرة. في كل مكان كانت تتدلى عوارض الدوالي وتمتد أردانها كأنها في عيد طوال

---

(١) شجرة الكستناء.

فراسخ كثيرة. كل هذه الأرض التوسكانية مزخرفة كأنها بستان كأنها مثل مشاهد الحقول التي تُصور ثم تُعرض على المسارح، بل إن الفلاحين أنفسهم يبدون فيها وهم يشابهون الشخصيات المبرقشة التي يمتعنا مظهرها على المسرح وهي تغني وتضحك وترقص.

ما من وجه فريسي في أي مكان، وإذا كان هنا مثلما هو عندنا فرّيسيون. فإنهم فرّيسيون ايطاليون برتقاليون، لافرّيسيون ألمان ثقلاء من البطاطا. إن الناس هنا ذوو جاذبية مثالية مثل بلادهم، ثم أن الانسان يحمل على وجهه تعبيراً فردياً، ويعرف كيف يخرج فرديته في كل أوضاعه وتصرفاته، في رشقة معطفه، بل وفي لمسة مسكينة تماماً على عكس مواطنينا بملامحهم العامة الموحدة، عندما يكون اثنا عشر شخصاً من هؤلاء مجتمعين يكوّنون اثني عشرية، وإذا هاجمهم أحد استدعو الشرطة.

كان مفاجأة لي أن أرى في بلد (لوك) كما في أكثر انحاء (توسكانيا) النساء يعتمرن بقبعات كبيرة من اللباد الأسود يتدلى منها ريش النعام، حتى إن النساء اللواتي يجدلن القش يعتمرن هذه القبعات الثقيلة. أمّا الرجال فعلى عكس ذلك، إنهم يلبسون جميعاً تقريباً قبعة خفيفة من القش، والشباب منهم يتلقون هذه القبعة هدية من الصبية التي تصنعها بيديها وتنسج مع جدائلها أفكارها في الحب وربما نسجت معها أكثر من تنهيدة. هكذا جلست (فرنسسكا) ذات مرة بين الصبايا وأزهار وادي (آرنو)، وجدلت قبعة لصاحبها (كاروسيسو)، قبعة قبلت كل قشة فيها وهي تغني أغنيتها الحلوة (أوشي)، و(ستيل مورتالي)، إن الرأس المجدّل الذي حمل في قوة تلك القبعة الجميلة يحمل الآن إكليلاً على رأسه، أمّا القبعة المسكينة التي أصبحت عتيقة ومهترئة فتتدلى في حجيرة كئيبة في دير (بولونيا)..

أنا من الناس الذين يحبون دائماً سلوك طريق أقصر من الطرق الممهدة، وإن كانت هذه الطريق تؤدي في كثير من الأحيان إلى الضياع بين دُروب ضيقة في الصخور والغابات. وهذا ما حدث لي اليوم، فقد أنفقت في سفري إلى (لوك) ضعفيّ الزمن الذي يستغرقه الناس العاديون عندما يسلكون الطريق الممهدة. سألت زرزوراً عن الطريق فزقزق وصفّر ولم يقل لي معلومات واضحة. ربما كان هو نفسه لايعرف شيئاً عنها. ولم أستطع أن أستنطق الفراشات واليعاسيب المتعلقة بجبهة الأزهار الجرسية، بل إنها طارت قبل أن تسمع أسئلتي. وأرجحت الأزهار أجراسها الصامتة. طالما دعاني الآس البري الذي كان يهتف هازئاً بصوت ناعم

عذب من بعيد. تسلقت في حمية مسلات الصخور الحادة وصرخت: يا غيوم السماء، يا طيارات الجواء، قلن لي أين الطريق التي تؤدي إلى (فرنسسكا)! هل هي في (لوك) قلن لي: ما تصنع؟ هي ترقص. قلن لي كل ذلك، وإذا خبرتنني مرة فأعدن على أسماعي أخباركن مرة بعد مرة!

في مثل هذه المغمرة من الجنون من الطبيعي أن ينظر إليّ نسر وقور، أزعجته في أحلامه المنعزلة، نظرة شزراء في احتقار واستنكار، ولكني غفرت له طوعاً لأنه لم يرَ (فرنسسكا) أبداً. إذن فهو قادر على أن يبقى، بروحه المتكبرة الهادئة، قابعاً كما كان على صخرة يراقب السماء في قلب حر ويراقبني في هدوء ورباطة جأش. إن نسراً من هذا النوع له نظرة ذات كبرياء لايمكن أن تتصور وهو يحدق فيك من رأسك إلى أخمص قدميك ويروزك كأنه يريد أن يقول لك: إلى أي نوع من العصافيــر تنتمي؟ أتدري أنني كنت دائمًا ملكاً. وأنا كذلك اليوم كما كنت في الأيام المجيدة الماضية حين كنت أزين رايات نابوليون؟ ألست أحد الببغاوات العالمة التي حفظت عن ظهر قلب الأغاني القديمة، فهي ترددها متحذلقة، أو ترغلة في بيت طيور ذات عواطف طيبة وسجعات كريهة؟ أو عندليباً في تقويم؟ أو عصفوراً ممسوخاً كان أجداده من الذين أنقذوا الكابيتول؟ أو ديكاً مستعبداً خادماً وضعوا له في عنقه سخرية منه شعار السرقة الجريئة، يعني أنه صورتي المصغرة، إنه ديك يتبختر كأنما هو نسر؟ أنت تعرف يا عزيزي القارىء أنني قلَّ أن غضبت إن يكون النسر يظن بي مثل هذه الظنون. وأعتقد أن النظرة التي ألقيتها عليه كانت أكثر كبرياء من نظرته، ولو أنه عرف المعلومات عند أول أكليل غار لعرف الآن من أكون.

كنت قد تهت حقاً في الجبال عندما بدأ الغروب وسكتت آلاف الأغاني في الغابات، وجعلت الأشجار تتمتم تمتمة أكثر وقاراً. وعمّ الأرض سمو غريب وفخامة حميمة كأنها روح الله تنفخ في هدوء الوجود، هنا وهناك، في وسط التراب تلمع أمام أنظاري عين جميلة قاتمة لاتلبث أن تختفي. وتصاعدت حول قلبي زفرات رقيقة ودغدغت خدي قبلات هوائية غير منظورة. كانت حمرة المساء تغمر الجبال كأنها معطف أرجواني، وأشعة الشمس الأخيرة التي ما تزال تنير قمم الجبال تجعلها تشبه ملوكاً يضعون على رؤوسهم تيجاناً من الذهب، وأنا قائم هناك كأني امبراطور يبسط سيادته على أتباعه المتوجين الذين يقدمون لي فروض الطاعة في احترام كبير.

(٤)

أجهل ماذا إذا كان الراهب الذي لقيته غير بعيد من لوك، إنساناً تقياً، ولكني أعرف أن جسده العجوز تضمه جبة غليظة، وهو هزيل دون قميص، وأن حذائيه ممزقان لا تحميان رجليه الحافيتين عندما يتسلق الصخور بين الأشواك والعليق لكي يمضي إلى قرى الجبال يعزي المرضى ويعلّم نشيدي حواء ومريم للأطفال. وهو راض، إذا قدموا له لقاء ذلك قطعة من الخبز يدسونها في كيسه، وفرشوا له لكي ينام كومة صغيرة من القش.

قلت في نفسي، عندما عدت إلى بيتي في ألمانيا، وأنا جالس في مقعد له مسند قرب مدفأة متوهجة، في دفء وراحة أمام كأس لذيذة من الشاي: ـ لا أريد أن أهاجم هذا الإنسان. سأحمل على الكهنة الكاثوليك، ولكني لا أريد أن أكتب شيئاً ضد هذا الإنسان.

لكي تكتب شيئاً ضد الكهنة الكاثوليك ينبغي أيضاً أن تعرف وجوههم، ولكن الوجوه الأصيلة لاتراها إلا في ايطاليا. الكهنة الكاثوليك في ألمانيا والرهبان الألمان ليسوا إلا نسخاً رديئة، ليسوا غالباً إلّا صوراً ساخرة للكهنة الايطاليين. إن المقارنة بين الفريقين يمكن أن يكون لها التأثير نفسه الذي نجده عندما نضع قرب اللوحات الدينية من إنتاج مدرسة روما أو فلورنسا، هؤلاء القديسين البشعين، العجاف كالجراد والذين هم مدينون بوجودهم الحزين إلى ريشة أحد الرسامين البرجوازية في بلدية (نورمبرغ) أو إلى بساطة تلميذ عاطفي في المدرسة الألمانية ـ الجديدة صاحبة الشعر الغزير والمسيحية. الكهان في ايطاليا حققوا منذ زمن بعيد الصلح مع الرأي العام، وتعود الشعب جيداً التمييز بين كرامة الكهنوتي والشخص الذي لاكرامة له واحترام تلك واحتقار هذا. وهذا التمييز قائم على التناقض بين ما يدعو إليه بالضرورة الواجب المثالي ومتطلبات الدولة الكهنوتية، والحاجات التي لاتقاوم للطبيعة الحسية، هذا النزاع القديم الخالد بين الروح والمادة الذي جعل للكهنة الايطاليين أمزجة لاتنفذ لحميا الخبث في الشعب في أهاجيه وأغانيه وقصصه. مثل هذه الوقائع تبدو لنا واضحة في كل مكان تتشابه فيه شروط حياة الكهنة، كما تبدو في الهند مثلاً. في المسرحيات الهزلية في هذه البلاد ذات التقوى العتيقة الراسخة، كما رأينا في (ساكونتالا) وكما تأكد لنا في (فازنتاسينا) يقوم البرهماني دائماً بالدور المضحك، يعني بدور كاهن لطيف دون أن يمس ذلك أي مسّ بالاحترام الواجب لوظائفه الكهنوتية، وقداسته المميزة. وكذلك فإن الايطالي

لايقل تقوى عن ذلك الهندي وهو يستمع إلى الصلاة أو يعترف أمام كاهن وجده صباحاً سكران يتمرغ في الطين. أما في ألمانيا، فالأمر عكس ذلك. إن الكاهن الكاثوليكي لايريد فيه أن يمثل كرامته بوظيفته وحدها، ولكن وظيفته يجب أن تتمثل أيضاً في شخصيته، وكأنه يجد في دعوة الرب له، كما كانت في البدء، أمراً جدياً، ولذلك فإن رغباته في النقاء وفي التواضع تبقى في نزاع مع آدم القديم، إنه لايريد مع ذلك أن يقتحم رغباته جهراً، ولاسيما لأنه يخاف أن يعطي أقل حجة لصاحبنا (كروج) في (ليبزيغ)، وهو يحاول أن يحتفظ على الأقل بمظهر سلوك مقدس. ومن هنا كانت القداسات الظاهرية، والرياء والتزمت المزور في الكهان اللؤماء الألمان. أما في كهنة ايطاليا، فالأمر على العكس فالنقاب شفاف، والسخرية طيبة، والتطابق بين رجل الكهنوت والعصر أشد تلاؤماً ووضوحاً.

ولكن علام كل هذه التأملات العامة؟ إنها لايمكن أن تكون إلا قليلة الجدوى بالنسبة إليك أيها القارىء العزيز إذا كنت ترغب في كتابة شيء ضد الكهان الكاثوليك. يجب، في هذا الموضوع أن ترى بعينيك، كما قلت، الوجوه التي تخص هذه الطبقة. والحق أنه لايكفي أن تراها على مسرح الأوبرا الملكية في برلين. المراقب العام السابق حاول دائمًا أن يقدم على قدر إمكانه، وفي أقصى ما يمكن من الحقيقة تقليد حفل التتويج في (فتاة أورليان) وتحقيق فكرة الموكب المقدس أمام عيون مواطنيه مع كهنته من كل لون. ولكن أصدق اللباس لايمكن أن يحل محل الوجوه الأصيلة. لقد أنفقوا أكثر من ١٠٠,٠٠٠ تالير في سبيل صنع تيجان أسقفية من الذهب وباقات من الزهور المبرقشة وجبب الكهان المطرزة والمزخرفات، وغير ذلك من النفقات من هذا النوع. ولكن الأنوف البروتستانتية في شكل معقول التي تترصد تحت هذه التيجان، والسيقان النحيلة العقلانية التي تتجاوز النقاط الفخمة لهذه الجبب، والبطون المضيئة جداً تحت هذه الياقات كل ذلك يذكرنا أن هؤلاء الممثلين ليسوا الكهنة الكاثوليك الحقيقيين، ولكنهم رجال علمانيون أشراف في برلين يعرضون على خشبة المسرح.

طالما تساءلت ألا يستطيع المراقب العام أن يقلد في شكل أفضل هذا الموكب ويعرض علينا لوحة أكثر صدقاً للموكب المقدس، إذا لم يعط أدوار الكهنة الكاثوليك لممثلين عاديين ولكن إلى هؤلاء الكهنة البروتستانتيين الذين يدعون مع أكمل أنواع الأرثوذكسية في منابرهم اللاهوتية أو في صحيفة الكنيسة ضد العقل والمسرات الأرضية والخطيئة والشيطان. لو فعل ذلك لرأينا وجوهها يحمل طابعها في

شكل أكثر تأثيراً هذه الأدوار الدرامية. ثم إن هنالك ملاحظة مرت هي أن كل كهنة العالم من الربانيين والمفتين والدومينكان، والمستشارين المجمعيين والبابوات، وأخيراً على العموم كل الهيئة الشيطانية لله الطيب يحملون على وجوههم شيئاً من ملامح متشابهة عائلية نجدها في الأشخاص الذين يقومون بمهنة واحدة. الخياطون، في العالم كله، يتميزون بلدانة أعضائهم، والقصابون والجنود في كل مكان يحملون الشكل القاسي نفسه، واليهود لهم سحنة حسابية خاصة بهم، لا لأنهم ينحدرون من ابراهيم واسحق ويعقوب ولكن لأنهم باعة وتجار، والتاجر المسيحي في (فرانكفورت) يشبه التاجر اليهودي في (فرانكفورت) كما تشابه بيضة عفنة بيضة عفنة أخرى. إن التجار الروحيين الذين يكسبون معيشتهم في القضايا الدينية ينتهون إلى أن يعقدوا بينهم في السحن والملامح تشابهاً متماثلاً. لاشك أن بعض الفروق الدقيقة قد تقع نتيجة لاختلاف أساليبهم في القيام بالمهنة. الكاهن الكاثوليكي يشبه على الخصوص عميلاً وضع في تجارة كبيرة. الكنيسة وهي البيت الكبير الذي يرئسه البابا تمنحه عملاً معيناً وأجراً صافياً لحاجاته وهو يعمل على هواه كأنه رجل له كثير من الزملاء ويستطيع في فسحة من الأعمال أن ينجو في سهولة من الانتباه إليه... ولكنه يحمل في قلبه دين البيت، وأكثر من ذلك رسوخه لأنه يضيع خبره في حالة إفلاسه. أما الكاهن البروتستانتي فعلى عكس ذلك، إنه صاحب العمل في كل مكان ويقوم بالشؤون الدينية لحسابه الخاص. إنه لايعمل في التجارة الكبرى مثل زميله الكاثوليكي ولكن في تجارة المفرق. كما أنه هو وحده الذي يتحمل كل شيء، ولذلك فهو لايتمتع بزمن كافٍ، يجب عليه أن يمدح عناصر عقيدته ويذم عناصر منافسيه. إنه يقف موقف تاجر صغير حقيقي في صندوق الدِّين، يقضمه حسد المهنة ضد كل البيوت الكبرى وخاصة في بيت (روما) الكبير الذي يدفع ثمن ألوف من ناشري الكتب ومروجيها والذي يملك صناديق كثيرة في أركان العالم الأربعة.

ينتج من كل ما مر أن الوقائع السمينة تختلف قليلاً دون أن تتناقض، وهي واضحة في الأرض والشكل العائلي للوجوه عام في ملامحه الكبرى، في الكهنة الكاثوليك وفي الكهنة البروتستانت معاً، إذن فلو أن المراقب العام أراد أن يدفع ثمن هؤلاء السادة دفعاً كريماً لقاموا بالأدوار على المسرح كما يقومون بأدوارهم في كل مكان. إن سلوكهم سوف يساهم في الايحاء والإيهام، حتى إن العين الدقيقة المتمرسة يمكن أن تلاحظ أنها تميز بفروق يسيرة بين سلوك الكهنة والرهبان الكاثوليك.

إن الكاهن الكاثوليكي يمشي وكأنن السماء ملك له، أما الكاهن البروتستانتي فيمشي وكأنه استأجرها.

(٥)

عندما وصلت لوك كان الليل يمد أطنابه.

ما أكثر ما بدت لي هذه المدينة مختلفة عما رأيته في الأسبوع الماضي، عندما كنت أتجول، في النهار في شوارعها المقفرة الرنانة، وأعتقد أني حللت في إحدى هذه المدن اللعينة التي طالما قصت عليّ مربيتي قصصها. كانت المدينة كلها عند ذاك خرساء كأنها قبر، كل شيء بدا فيها شاحباً ميتاً: أشعة الشمس تلمع على السقوف مثل شذرات الذهب في إكليل المأتم على رأس جثة ميت. هنا وهناك تتدلى من نافذة بعض البيوت العتيقة باقات من اللبلاب تشبه دموعاً جفت واخضرت: في كل مكان تفسخ صارخ واحتضار الموت الرهيب. المدينة لها سحنة شبح مدينة، شبح من الحجر يعود في رائعة النهار. حاولت أمداً طويلاً أن أجد أثراً لمخلوق حي فكانت المحاولة عبثاً. وتذكرت أن كان أمام قصر عتيق متسول نائم، كانت ذراعه ممدودة ويده مفتوحة. وتذكرت كذلك أني رأيت في نافذة كوخ متهدم أسود راهباً كانت عنقه الحمراء وجلده السمين اللامع يخرجان من جبة رمادية وقربه تقف أمرأة ذات صدر واسع لاتلبس إلا لباساً قليلاً. وفي الباحة رأيت غلاماً يدخل من باب نصف مفتوح وهو يلبس ياقة دير ضيقة ويحمل بيديه زجاجة خمر ضخمة. وفي الوقت نفسه قرع قريباً جرس صغير ذو اهتزازات دقيقة ساحرة وعادت إلى ذاكرتي سخريات قصص (بوكاتشيو). ولكن هذه الرنات بدت لي مع ذلك وكأنها بددت تماماً الرهبة الغريبة التي كانت تهز روحي أحياناً. وشعرت أني تأثرت أكثر من تأثري لو أن الشمس الحامية اللامعة أضاءت أشباح الحجر الخرساء، وقلت في نفسي إن الأشباح أكثر رعباً عندما تلقي عنها رداء الليل الأسود وبدت في رائعة النهار.

عندما عدت إلى (لوك) ذلك المساء، بعد ثمانية أيام، دهشت جداً من التغير الذي طرأ على تلك المدينة وصرخت وأنا أشعر أن عينيّ تبهرهما الأضواء وأرى موجات الجمهور تغمر الشوارع: ما هذا؟ أترى كل هذا الشعب خرج من قبره، شبحاً ليلياً، ليقلد كل ما في الحياة من زيف. البيوت، وهي عالية قائمة تحف بها المصابيح، في كل مكان تتدلى من النوافذ سجاجيد ذات حواش تغطي تقريباً الجدران البالية السوداء، وعلى هذه السجاجيد تنحني وجوه الصبايا الحلوة، غضة

زاهرة وعرفت عندئذ أن الحياة نفسها التي تحتفل بزواجها مع الموت قد دعت إلى العيد الشباب والجمال.

نعم ، إنه عيد مأتمي حافل بالحياة، لم أعرف أي يوم كان هذا العيد في التقويم، وعلى كل حال فقد كان احتفالاً بذكرى بعض الشهداء الصابرين لأني رأيت وصول رأس قديس ميت، مع بعض العظام، وقد زين ذلك كله بالأزهار والجواهر وحمل على نغمات موسيقى الأعراس: الحق أنه كان موكباً مقدساً جميلاً.

كان يمشي في رأس الموكب الرهبان الكبوشيون، الذين يتميزون عن سائر الرهبان بلحاهم الطويلة، إنهم المخربون الحقيقيون في جيش الايمان. ثم إن الكبوشيين فيهم من ليس لهم لحى، وترى بينهم عدداً من الوجوه المذكرة النبيلة، بل ترى أكثر من وجه جميل فتي يناسبه تماماً حلق وسط رأسه، لأن الرأس يبدو عند ذلك مركزاً لإكليل من الشعر أنيق، ويناسبه تماماً كما تبدو كذلك عنقه العارية في وسط الجبة القاتمة، ثم تأتي بعد ذلك الجبب ذات الألوان السوداء والبيضاء والصفراء والمختلطة الألوان، ثم القبعات الكبيرة ذات القرون المقلوبة وأخيراً كل تلك الثياب المنوعة للرهبان التي تذكرنا خلال زمن طويل بالعناية البالغة بمراقبينا في مسرح برلين. وبعد المنظمات الديرية يأتي الكهّان الحقيقيون، بقمصانهم البيض فوق السراويل السود والقبعات الملونة. ويليهم رجال الدين من الطراز الأعلى يتدثرون بأغطية من الحرير من كل نوع وعلى رؤوسهم قبعات حادة لعل أصلها من مصر كما نراها في مؤلف (دينون) القيثارة المسحورة — وفي — رحلة بيلزوني — إنها لوجوه لها عمل، وهي تحمل سمياء نوع من أنواع الحرس العتيق. وأخيراً تأتي الأركان العامة بقبعات أعلى من قبعات الآخرين وغطاء أكثر غنى يحمل ذيولهم عجوزان متشابهان يقومان بمهمة الغلمان.

كان الكهان في الطليعة يمشون وأذرعهم متصالبة في صمت وقور، ولكن الرجال ذوي القبعات الحادة كانوا يغنون أغنية دينية حزينة جداً، وفي رنة أنفية متكسرة. ومن حسن حظنا أننا لم نكن نسمع إلا نصفها لأن الاستعراض كانت تتلوه عدة كتائب من الجنود ومعهم الطبول والمزامير. وهنالك إلى جانب الكهّان سلسلة من الجنود حملة البنادق يحفون بهم مثنى مثنى. كنا نرى من الجنود أكثر مما نرى من رجال الكهنوت.... نعم لكي يتم دعم الذين يجب اليوم تحضير عدد كبير من الرماح والنصال، وعندما يتلقى الإنسان الغفران فيجب أن تدوي المدافع من بعيد في شكل ذي دلالة.

عندما رأيت هذا الموكب الـذي يمشي فيه الكهنـة في ملامـح جدّ تقيـة وموحشة، تحت حماية عسكرية، فخور، شعرت أني أتأثر تأثراً حزيناً كأني أرى منقذنا السيد نفسه تحيط به الحراب والجنود وهو يُساق إلى ساحة التعذيب. النجوم في (لوك) شعرت بما أشعر به حتمًا، لأني عندما رفعت عيني إلى السماء وأنا أتنهد رأيت عيونها مثل عيني صافية لامعة ورعة جداً، ولكني لم أستطع الاستغناء تماماً عن أنوار الموكب. ألوف وألوف من المصابيح والمشاعل ووجوه الصبايا تلمع في كل النوافذ، وفي زاوية كل شارع تكدس أكوام من الأغصان تشتعل ثم إن كل كاهن كان إلى جانبه حامل شمعة. وكان لكل الكبوشيين تقريباً، في هذا الحفل، عدد من الفتيان ذوي هيئة نضرة مغتبطة، يتطلعون في فضول مفتون إلى لحى رجال الدين العتيقة الوقور. واحد فقير من الكبوشيين لم يستطع استئجار حامل شمعة، والغلام الذي يعلمه حواء ومريم أو الذي كان يتلقى اعتراف عمته أو خالته، كان عليه أن يقوم بخدمته مجاناً في هذا الموكب، وأنا على يقين أنه لايقوم بها في حمية أقل من حمية الغلمان ذوي الأجور. الكهّان الآخرون لم يكن مـا حولهم من الغلمان أكبر سناً، ولكن بعض المنظمات الدينية المتميزة استأجرت شباباً أقوياء، بل إن الكهّان ذوي القبعات الحادة كان يحمل شموعهم برجوازيون حقيقيون. أما السيد المطران، الذي كان يمشي في تواضع فخور تحت مظلة ويترك أذيال ثوبه يحملها عجوزان لهما لحية رمادية فكان يحف به من الجانبين خادمان يلبسان جبة زرقاء لامعة وكتّافيات صفراء. وكان كلاهما يحمل شمعدانين في شكل احتفالي كأنهما في بلاط ملكي.

وعلى كل حال فإن هذه الكومة من الشمعدانات ظهرت لي بدعة طيبة، لأني استطعت بذلك أن أرى في وضوح الوجوه التي تخص الكاثوليكية. وأنا على يقين الآن أني رأيتها في أحسن صورها. حسناً ، وماذا رأيت. لقد وجدت أولاً فيها طابع الكهنوت. ثم إن كل هذه الوجوه تختلف فيما بينها كما تختلف وجوهنا، واحد أصفر وواحد أحمر، وهذا أنف ينتصب في كبرياء، وذلك أنف منخفض، هنا عين سوداء لامعة وهناك عين شهلاء شفافة. . . . ولكن كل هذه الوجوه تحمل أعراض مرض واحد، مرض خطير، لاعلاج له، سيكون سبباً في أن ابن أخي الصغير، عندما سيرى خلال مائة عام، موكب (لوك) فلن يجد من هذه الوجـوه وجهاً واحداً، وأخشى تماماً أن أكون أنا نفسي مصاباً بهذا المرض، ونتج عن ذلك أن الشفقة أخذتني في شكل غريب عندما رأيت مثل هذا الوجه لكاهن مريض وأني

عرفت فيه رموز آلامه التي تختبىء تحت جبته: حب شقي، مرض النقطة، حسد داخلي، هزال، توبة، نزيف، جراح سبّبها في قلوبنا عقوق الأصدقاء ونفاق الأعداء وأخطاؤنا ذاتها، كل ذلك وأشياء أخرى تجد مكانها تحت الجبة والمسح كما تجد في سهولة مكانها تحت ثيابنا من أحدث طراز. أوه ليس في هذا القول مبالغة، عندما يصرخ الشاعر في ألمه: «الحياة مرض والعالم كله مستشفى». «والموت طبيبنا»وا أسفاه لست أريد أن أعيب أحداً وأن أدخل الاضطراب إلى نفوس الآخرين في ثقتها، ولكن ما دام الموت هو الطبيب الوحيد فلست أرى شراً في أن أدعهم يعتقدون أنه خير طبيب وأن دواءه الوحيد، دواءه المنوم الخالد هو أيضاً خير الأدوية، على أقل تقدير حين نستطيع أن نقول لمصلحة هذا الطبيب أنه هنا دائماً في خدمتك، وأنه رغم زبائنه الكثيرين لايدع من يدعوه ينتظره طويلاً. إنه غالباً يتبع المريض في الموكب ويحمل له شمعته. وهذا ما وجدته حقاً ممثلاً بالموت يمشي إلى جانب كاهن أصغر قلق، يمسك له بيديه الجافتين المرتجفتين شمعته التي تنوس وتغمز لرئيسها الأجرد بإشارات صداقة طيبة مشجعة، ومهما كان حظ الموت قليلاً من التماسك على ساقيه فهو ما يزال يسند من حين إلى حين هذا الكاهن المسكين الذي يزداد شحوباً عند كل خطوة ويخيل إليك أنه موشك على الإغماء. يبدو أن الموت ينفخ في قلبه ويقول له: «انتظر أيضاً بضع ساعات، وسنلتقي، وعندئذ أطفىء الشمعة وأدعك تستلقي في السرير وعندئذ يمكن لساقيك الباردتين المجهدتين أن تستريحا، وعندئذ ستنام نوماً عميقاً حتى إنك لا تسمع الجرس الحزين في كنيسة القديس (ميشيل).

لست أريد أن أكتب شيئاً ضد هذا الانسان، قلت ذلك لنفسي وأنا أرى الكاهن المسكين الشاحب الذي سوف يضعه الموت المجسد في الشمعة بيده في سريره.

وا أسفاه. لايجوز أن نكتب شيئاً ضد أي إنسان في هذا العالم. كل واحد منا مريض مرضاً كافياً في هذه العيادة الكبيرة، وهناك عدد من القارئين يجادلون ويذكرونني دون إرادة بخليط متنافر كنت شاهدته في مستشفى أقل حجماً في برلين. إنه لشيء مرعب أن تستمع إليه، أن تسمع إلى هؤلاء المرضى الذين يسخرون من عاهاتهم المتبادلة. السل يسخر من الاستسقاء، أحدهما يضحك من جنس الآخر، وهذا بدوره يشتم ما في جيرانه من شقق في الشفتين أو رمد في العينين. وأخيراً هنالك رجال تسيطر عليهم الحمى الراعدة يندفعون عراة من أسرتهم وينتزعون

لحف المرضى الآخرين وأغطيتهم ولاترى عندئذ، وياللمنظر البشع، إلا القروح ذات الصديد وإلا التشوهات المخيفة القذرة، وإلا كل أنواع جراح الحرذون الإنسان المسكين.

(٦)

«يسكب فولكان في غزارة لكل الآلهة الشراب العطر الذي يغرفه من جرّة عميقة. ضحكة عاصفة لاتهدأ انفجرت في وسط سكان (الأولمب) السعداء، وهم يرون (فولكان) يتحرك جاهداً في القصور السماوية لخدمتهم. وامتدت المآدب، طوال النهار وحتى مغيب الشمس وهم يتذوقون أطايب الطعام ويصغون في نشوة إلى أنغام القيثارة اللامعة التي يعزفها أبولون، وإلى جوقات الحوريات يغنين واحدة بعد واحدة في صوت منسجم»

«الإلياذة»

وفجأة دخل يهودي شاحب، متقطع الانفاس، ينزف دماً، وعلى رأسه إكليل من الأشوال ويحمل على كتفه صليباً كبيراً من الخشب، وألقى الصليب على المائدة العامرة. اهتزت أقداح الذهب وسكت الآلهة وشحبت ألوانهم ثم شحبت حتى تحولوا أخيراً إلى بخار غابوا فيه. عندئذ حل زمن حزين وأصبح العالم رمادياً وقاتماً. لم يبق ذكر للآلهة السعداء، وتحول (الأولمب) إلى مستشفى يعيش فيه آلهة بُقرت بطونهم أو شُويت لحومهم أو ثُقبت صدورهم فهم يتحركون في قلق ويضمدون جراحهم ويغنون أغاني حزينة كئيبة. الدين أصبح لايهب الفرح، ولكن العزاء، إنه دين مدمى دين أنين للمعذبين.

ربما كان ضرورياً للإنسانية المريضة المسحوقة. مَنْ يرى إلهه يتألم فهو يحمل آلامه الشخصية في شكل أكثر سهولة. الآلهة القدماء العمالقة الذين لم يعرفوا بأنفسهم طعم الألم لايعرفون ـ في شكل أولي ـ الألم الذي يكابده إنسان مسكين معذب، والإنسان المسكين المعذب لايستطيع كذلك أن يشكو إليهم آلامه واثقاً بهم. إنهم آلهة أيام العيد. حولهم يمكن أن يرقص الناس في مرح ولا يوجهون إليهم إلا عبارات الثناء. وهكذا فهم لايحبونهم من أعماق قلوبهم. لكي تكون محبوباً من أعماق قلوب الناس ينبغي أن تكون متألماً موجعاً. الرحمة آخر نذور الحب، بل ربما كانت الحب نفسه. من كل الآلهة الذين عاشوا يوماً ما، يبقى المسيح من أجل هذا السبب الإله الذي أحبه الناس أكثر ما أحبوا، ولاسيما النساء.

هربت من ضجة الجمهور وضعت في رحاب كنيسة منعزلة، والذي قرأته الآن يا قارئي العزيز كان تعبيراً عن أفكاري أقل من أن يكون فعلاً كلمات لا إرادية انفلتت مني. وعندما كنت أتمدد على مقعد عتيق من المقاعد المخصصة للصلاة تركت صدري تجري فيه الرنات والاهتزازات في أرغن. ظللت هنالك وقد أسلمت روحي إلى اهتزازاته وأنغامه، وأنا أؤلف من أجل هذه الموسيقى الغريبة نصاً أكثر غرابة. كانت نظراتي التائهة تغوص من حين إلى حين تحت الأقواس التجارية باحثة عن المجموعات القائمة التي تعود إلى أوتار ذلك الأرغن. مَنْ تلك المرأة ذات النقاب الأسود التي تركع هناك أمام لوحة العذراء؟ المصباح الذي يتدلى فوقها ينير بنور واضح أم الحب السماوي المصلوب، فينوس (دولوروزا): ومع ذلك فإن الأشعة الغامضة تهبط أحياناً سراً على التكوينات الحلوة لتلك المرأة التقية المتنقبة. وظلت هذه المرأة جامدة على درجات المذبح الحجرية، وظل ظلها يترجح في تذبذب النور يهرع نحوي أحياناً ثم يتراجع خلسة كأنه زنجي أخرس، أرسلوه يحمل رسالة حب إلى امرأة في الحريم... لقد فهمته إنه يعلن حضور سيدته، سلطانة قلبي.

تزايدت الظلمة في البناية المقفرة شيئاً فشيئاً، كان هنا وهناك وجه حائر يزحف خلال الأعمدة ومن آن إلى آن ترنّ عتمة خفيفة في كنيسة جانبية ويئن الأرغن في نغمات متطاولة كأنها تنهدات قلب عفريت.

يخيل إليّ أن نغمات هذا الأرغن لاتريد أن تنتهي، وأن هذا الصوت الميت، وهذا الاحتضار العنيف سيمتدان إلى الأبد. وشعرت بخبل لايوصف وبقلق مزعج كأني دفنت وأنا حي، أو كأني، بعد موتي بزمن طويل، خرجت من القبر لأتجول في رفقة رفاق ليليين مشؤومين في كنيسة الأشياء أستمع إلى صلوات الموتى وأعترف بذنوبي بعد الوفاة. وخيل إلي أحياناً أني أرى حقاً قربي وفي ضوء سرّي شاحب موتى الكنيسة في ثيابهم العتيقة من فلورنسا. وبوجوههم الطويلة الصفراء، وكتبهم المذهبة بين أصابعهم الدقيقة، يدمدمون في خفوت ويحنون رؤوسهم انحناءات كئيبة. ومن بعيد يأتي صوت جرس كأنه نغمة شاكية محتضرة يذكرني بالكاهن المريض الذي رأيته في الموكب ويقول لي: لقد مات كذلك في هذه اللحظة، وسوف يأتي إلى هذه الكنيسة ليتلو صلاة نصف الليل الأولى. وسيكون في ذلك أوج هذه الرؤى الحزينة. وفجأة بدا على درجات المذبح الوجه اللطيف للمرأة التقية ذات النقاب. نعم، إنها هي حقاً، إشعاع ثوبها كفى لمحو كل الأشباح

الصفر، فأنا لا أرى إلّاها، ولحقت بها في سرعة إلى خارج الكنيسة، وعندما وصلت إلى الباب ألقت بنقابها وراءها ورأيت وجه (فرنسسكا) تغمره الدموع. إنها تشبه وردة بيضاء عاطفية تغطيها قطرات ندى الليل تلمع تحت نور القمر. ــ فرنسسكا هل تحبينني؟ سألت أسئلة كثيرة، وكانت لاترد إلّا قليلاً، رافقتها إلى فندق (كروس دي مالتا) الذي تسكن فيه مع (ماتيلدا). الشوارع أصبحت مقفرة، والبيوت وقد أغلقت نوافذها تنام ولاترى من بعيد إلى بعيد إلا نوراً صغيراً يترجج تحت أجفان من خشب. وفوقنا في السماء يتفتح في الغيوم مجال واسع ذو لون أخضر فاقع يتجول فيه الهلال كأنه حلقة من الفضة في بحر من الزمرد. عبثاً رجوت فرنسسكا أن ترفع عينيها نحو نجمنا القديم العزيز ولكنها ظلت مطأطئة الرأس سابحة في حلم. أما مشيتها، وكانت مرحة هوائية، فقد أصبحت متزنة متعثرة، وخطواتها أصبحت متواضعة. كانت تمشي كأنها على أنغام أرغن كنيسة، وكانت في سيرها ترسم علامة الصليب أمام كل لوحة قديس. عبثاً حاولت مساعدتها ولكنا عندما بلغنا كنيسة القديس ميشيل التي تبرز في أعماق مشكاتها المكلحة صورة أم الألم، والسيوف المذهبة تطعن قلبها، تاجها المرصع بالمصابيح على رأسها، ضمت فرنسسكا عنقي بذراعيها وقبلتني، وهي تنتحب في صوت خافت: (سيسو، سيسو كارو سيسو)

تلقيت في هدوء قبلاتها رغم أني أعرف في أعماقي أنها موجهة إلى كاهن من (بولونيا) يخدم في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وبصفتي بروتستانتياً لم أجد حرجاً في تملك خيرات الكهنوت الكاثوليكي وجعلت فوراً قبلات فرنسسكا التقية الدينية قبلات دنيوية. أعرف أن المنافقين سيسوءهم ذلك وسيحتجون على سرقة الشؤون المقدسة وسيطبّقون حتمًا عليّ قانون انتهاك الحرمات. لقد كانت هذه القبلات وا أسفاه الشيء الوحيد الذي استطعت الحصول عليه طوال تلك الليلة. قررت فرنسسكا أن تخصصها كلها لخلاص روحي راكعة مصلية. عبثاً عرضت عليها مشاركتها في تدريبات الخشوع وعندما بلغت غرفتها أغلقت في وجهي باب غرفتها، وبقيت دون فائدة زمناً طويلاً خارج الغرفة أتوسل طالباً الدخول، مرسلاً كل الآهات والتنهدات الممكنة، مدعياً أني أسكب دموعاً تقية، مقسمًا أقدس الأيمان. وأصبت بحصار فكري: وشعرت شيئاً فشيئاً أني بلغت مرحلة الجزويتية المتزمتة وكدت أعد سيدتي أني حين أضمها أضم معها إيمانها وعقيدتها. صرخت: ــ فرنسسكا، يا نجم أفكاري، يا فكر روحي، يا حبيبتي يا راقصتي الطيبة ويا

أيتها المؤمنة جداً فرنسسكا، افتحي الباب، لو فعلت لكان ذلك عندي كلمة السماء. سمائك الكاثوليكية الجميلة. أعدك أن أترك العقيدة البروتستانتية، هذه العقيدة السخيفة الباردة التي آمنت بها دون أن أحبها... سأرتدّ عن البروتستانتية وأفضح أخطاء لوثر التي ربطتني بها ضرورة الحياة وحيل الشيطان البروسية، سأرتدّ عنها في سبيل قدميك البيضاوين المعبودتين... افتحي الباب وسأدخل الكنيسة الكاثوليكية الرسولية الرومانية. بين ذراعيك الارثوذكسيتين (المستقيمتين) سأتذوق راحة السعداء، على شفتيك وفي قبلاتك سيتكشف لي السر المقدس، وستحدث المعجزة المقدسة عندئذ.... الكلمة تصبح تجسداً، والرب حباً... أتوسل إليك بحب الرب أن تفتحي لي الباب!

وا أسفاه، باب الأمان لم يفتح لي في تلك الليلة، وعدت إلى غرفتي منتفخاً منزعجاً ساخطاً بروتستانتياً كما كنت من قبل.

(٧)

في اليوم الثاني عندما تبسمت الشمس رائعة في أعلى السماء شعرت بانجياب الهيجانات والأفكار السوداوية التي أثارها في نفسي موكب أمس والتي جعلتني أرى الحياة وكأنها مرض، والعالم وكأنه مستشفى.

المدينة كلها كانت تعج كقرية النمل بالشعب النمل وبالناس في ثياب أيام الآحاد، ينساب بينهم من حين إلى حين لباس كاهن صغير أسود. كان الجمهور يخور ويضحك ويثرثر حتى ما كدنا نسمع قرع الأجراس التي تدعو إلى الصلاة في الكنيسة، وهي كنيسة جميلة بسيطة واجهتها من مرمر مختلف الألوان، تحف بها أعمدة صغيرة قصيرة يصف بعضها فوق بعض فتعطي صورة عقلية كئيبة. وفي الداخل كانت الأركان والجدران تكتسي بقماش أحمر، وأنغام الموسيقى المرحة تنتشر على أمواج الجمهور. أعطيت السيدة (فرنسسكا) ذراعي تستند إليها، وعندما قدمت لها عند الدخول الماء المقدس وعندما لامست أصابعها المبللة وأصابت كهرباء لمستها روحي شعرت في الوقت نفسه في ساقي بهزة كهربائية أخرى، وكدت من الرعب أسقط على الفلاحات الراكعات اللواتي كن يلبسن جميعاً ثياباً بيضاء وتثقلهن أقراط طويلة في الآذان وسلاسل ذهبية صفراء تغطي الأرض بمجموعات كثيفة. نظرت حوالّي فرأيت امرأة أخرى راكعة تروح بمروحتها ورأيت وراء المروحة عيون الميلادي الساخرة. انحنيت نحوها فقالت توشوش في أذني في نفس خائر: — دو

لايت فول De light ful وقلت لها في صوت خافت: ـ أسألك بالله أن تظلي جادة ولاتضحكي، وإلا فسوف يلقون بنا إلى الباب. ولكن الرجاء والإلحاح لم يثمرا شيئاً. وكان من حسن حظنا أنهم لايفهمون لغتها لأن الميلادي عندما قامت وتبعتنا خلال الجمهور حتى المذبح انصرفت إلى سخرياتها المجنونة دون أن تعبأ بأحد كأننا وحدنا في (الأبينان). كانت تسخر من كل شيء، حتى من اللوحات الفقيرة في الحيطان التي لم تنجُ من سخرياتها. ـ انظر إذن، اللادي حواء وقد ولدت من ضلع آدم كيف تتحدث إلى الحية. إنها لفكرة حسنة في المصور أن يعطي الحية رأس ووجه إنسان، وياليته كان أكثر ذكاء فترين هذا الوجه المغري بشاربين عسكريين. انظر هنالك يا دكتور الملاك الذي يُعلن للعذراء السعيدة مكانتها والذي يظهر عليه في الوقت نفسه أنه يسخر منها. أعرف تماماً ما يعنيه هذا القواد. ومريم هذه، التي يركع أمامها حلف الشرق المقدس يحمل هداياه من البخور والذهب، ألا تشبه (كاتالاني)؟ السنيورة فرنسسكا التي لاتعرف الانكليزية لم تفهم معنى كلمة (كاتالاني) سارعت إلى ملاحظة أن السيدة التي تتحدث عنها صديقتنا قد فقدت أكبر نصيب من شهرتها في هذا اليوم. صديقتنا لم تستسلم للارتباك واستمرت في التعليق حتى على اللوحات العاطفية ومنها لوحة الصلب، وهي لوحة أساسية يظهر فيها فيما يظهر ثلاثة أشخاص حمقى جامدون يشهدون في كل راحة استشهاد الرب. وأرادت السيدة بكل قواها أن يكون هؤلاء المفوضين المنتسبين إلى النمسا وروسيا وفرنسا. وكان القديس يوسف أكثر من تأثر بالتعليقات. ولاحظت أكثر الملاحظات جنوناً على لوحة الهرب إلى مصر، وكانت مريم تجلس مع طفلها على ظهر حمار ويخبّ وراءها السائق القديس يوسف. أكدت السيدة أن الرسام أراد أن يعبر عن بعض التطابق بين السائق وذوي الأربع. كلاهما، في الواقع، يرسل أذنين كبيرتين من رأسيهما المنحنيين في كآبة. صرخت ماتيلد: أو... ما أكثر ارتباك وقلق هذا الرجل المسكين. إذا كان يعتقد أن الرب الطيب قد تنازل فجعل منه مساعداً له فعليه أن يهب نفسه للشيطان، وإذا كان لايعتقد ذلك فهو هرطيق ويرجع إلى الشيطان كذلك. ما أصعب هذه المشكلة. ولذلك فهو يحني رأسه في حزن بالغ. وهم فوق ذلك زينوا هذا الرأس بهالة تشبه إلى حد ما قروناً مشعة. ما أصعب تأثري وشفقتي على حظ هذا السائق المسكين. لم أشعر قط حتى هذا اليوم بأني كنت أشد شعوراً بالارتباك مني في هذه الكنيسة.

ومع ذلك فإن اللوحات الجدارية التي تظهر على الحيطان فتحات القماش الأحمر جعلت تفرض الصمت إلى حد ما على السخرية البريطانية. هنالك كانت

وجوه من تلك الأزمنة البطولية في لوك. التي يرد ذكرها كثيراً في مؤلفات مكيافيلي وسالوست الرومانطيقي والتي تثير في حمية بالغة أغاني دانتي وهومير في الكاثوليكية. العواطف الصلبة والأفكار البربرية في القرون الوسطى تتحدث بصوت عالٍ في كل هذه الهيئات، بل إننا نشعر على الفم الأخرس لشاب ترفرف رغبة باسمة أن كل الورود ليست من الحجر، وأن كل الأنقبة ليست من الحرير. الأجفان التي تنخفض من تقواها في كثير من تماثيل الأم في هذا الوقت تكاد تفلت منها غمزات حب، فيها من المكر ما في الغمزة التي نكتشفها في عيون قديسة في أيامنا هذه، ولكنها، في كل الحالات تعبر عن روح راقية ترضينا في هذه اللوحات الفلورنسية القديمة والتي لاتقوم كما يدعي علماء الجمال عندنا في هدوء خالد لاهيجان فيه، ولكنها تقوم على عكس ذلك في هيجان خالد دون اضطراب. هذه الروح الفلورنسية العتيقة تتكشف كذلك كأنها دوي تقليدي في بعض اللوحات الزيتية في وقت لاحق المعلقة في القبة في (لوك). وسحرتني على الخصوص لوحة لـ(عرقانا) رسمها تلميذ لـ(أندره دل سارتو) وهي عمل رُسم في جهد شاق وصُوّر في صلابة. المنقذ يجلس بين الخطيبة الرقيقة الجميلة، ورجل فرّيسي يشبه وجهه منضدة من حجر القانون ويتعجب من أن يرى نبياً عظيمًا يشترك في بساطة بشؤون الناس السعداء ويتحف المجتمع بمعجزات أكبر من معجزات موسى، لأن موسى لم يستطع، وإن كان قد ضرب الصخرة بعصاه، إلا أن يخرج منها ماء أما الآخر فلم يقل غير كلمة واحدة حتى امتلأت الجرار بأحسن أنواع الخمور. وكانت هناك لوحة أكثر رقة معلقة إلى جانب تلك اللوحة وتمثل مجهولاً في ألوان من البندقية، وقد أطفأت ألوانها الحلوة في شكل غريب في العاطفة الحزينة التي تسودها، وهي تمثل مريم المجدلية تمسك برطل من الطيب، من أحسن أنواعه تعطّر به قدميّ يسوع، وتمسحهما بشعرها، والمسيح جالس هنالك في حلقة من تلاميذه كثير الجمال رفيع الروح تؤثر فيه هذه الحادثة تأثيرها في إنسان. إنه يشعر برعدة شفقة في جسده الذي سوف يلقى عما قريب ألوان العذاب والذي يقدم إليه الآن شرف العطور المخصصة لاستعمال الموتى والتي هي من نصيبه اليوم. إنه يلقي على هذه السيدة الراكعة بسمة حزينة، هذه المرأة التي تقوم وهي تندفع في توجس على حبّ قلق، بإتمام عمل فيه إحسان. هذا العمل لايمكن أن يُنسى ما دام هنالك أناس يتألمون، وعطورها التي ضمخت عدداً كبيراً من العصور سوف تنتشر وتضمخ عصوراً أخرى قادمة. إن كل الحواريين لم يفهموا مغزى هذا العمل ما عدا التلميذ الذي يفهم قلب المسيح والذي نقل هذا الحادث إلينا. والحواري، ذو اللحية الحمراء

يبدو أنه، كما جاء في الانجيل، يسأل في شكل حزين لماذا لم يبيعوا هذا الطيب، بثلاثمائة دينار يوزعونها على الفقراء. هذا الحواري الاقتصادي هو الذي يمسك بحبال البورصة. لقد شغلته عادة الأعمال المالية عن كل عطر للحب خال من المنفعة، فهو يأسى على هذه الدنانير التي كان يمكن أن يحرص عليها لأداء خدمة نافعة محددة. وربما كان صراف الدنانير هو الذي خان المسيح المنقذ من أجل ٣٠ وزنة من الفضة. وهكذا فإن الانجيل قد أورد في شكل رمزي تاريخ صيرفي الحواريين هذا سلطة الغواية والإغراء التي تنصب لنا فخاً في كل كيس للنقود، كما أنه يحذرنا من كل رجال الأموال: كل غني إنما هو يهوذا الاسخريوطي.. قالت لي السيدة: ــ أنت تقوم يا عزيزي الدكتور بتكشيرة مؤمن تخفيها عبثاً أن تخفيها. لقد راقبتك، وأرجو عفوك إن كنت قد أسأت إليك، ولكنك تبدو وكأنك مسيحي طيب. ــ الحق أنني مسيحي طيب، وهذا بيننا... المسيح.... ــ أو تذهب إلى الاعتقاد أنه رب؟ ــ يا سيدتي ماتيلدا، هذا غني عن القول، إنه الرب الذي أحبه أكثر من كل الأرباب، لا لأنه رب شرعي، أبوه كان رباً يحكم العالم منذ الأزل، ولكن لأنه، رغم كونه ولد وهو ولي عهد للسماء، فله مع ذلك عواطف دمقراطية، ولا يحب الرياء والزيف ثم لأنه ليس رب ارستقراطية فرّيسية متزمتة ولافتة من المرتزقة أصحاب المراتب، ولكنه حقاً رب متواضع للشعب، رب مواطن طيب.

الحق، لو لم يكن المسيح رباً فأنا أصوت لكي لايكون مسيحاً، وأنا أطيعه طوعاً لا كرهاً. كرب تمّ انتخابه، كرب تمّ اختياره بإرادتي أكثر مما أطيع رباً مطلقاً جباراً.

(٨)

المطران، وهو عجوز وقور، قام بالقداس، ويجب أن أعترف بكل صدق أنني لست أنا وحدي، بل كانت السيدة معي إلى حد ما، تأثرنا بالروح التي تتنفس في هذه العملية الدينية وبوقار هذا الرجل العجوز الذي يقوم بها ــ نعم إن هذا الرجل المسن كان هو نفسه كاهناً، والاحتفالات بالقداس الكاثوليكي قديمة جداً وأنها ربما كانت الشيء الوحيد الذي تمت المحافظة عليه منذ طفولة العالم والذي يستدعي تقوى كل النـــاس، بصفته ذكرى لأسلافنا الأوائل. قلت للسيدة: ــ أترين يا سيدتي، كل حركة تشاهدينها هنا، طريقة ضم اليدين ومد الساعدين وثني الركب في الركوع والتطهر والحق في تنشق البخور وتناول الماء في الكأس المقدس،

بل وكل لباس هذا الرجل بدءاً من التاج حتى أهداب البطرشيل، كل هذا من لباس المصري القديم، إنه من بقايا الكهنوت التي لاتمدنا الوثائق القديمة جداً إلا بمعلومات جد قليلة عن وجودها العجيب. وعن أقدم الكهنوت الذين أكتشفوا أول حكمة والذين ابتدعوا أول الأرباب وحددوا أول الرموز والـذين بهم أصبحت الإنسانية. . . . وأضافت السيدة؛ في لهجة مريرة. ــ مخدوعة لأول مرة. وأعتقد يا دكتور أن هذا العمر الأول للعالم لم يبق لنا منه إلا بعض التعابير من الرياء والخداع التي لم تزل ناجعة حتى اليوم. ألست ترى حقاً هذه الوجوه القاتمة في غباء كبير وهذا الشخص الذي يركع على ركبتيه في بله، والذي يوحي شكله بمنقاره المفتوح العريض على أنه غبي كبير. وأجبتها في رفق: ــ أسألك بالله، وما يهمنا أن يكون هذا الرأس قليل الاستدارة بالعقل. ماذا يغيظنا في ذلك ألا ترين كل يوم بقراً وجواميس وكلاباً وحميراً مثله في الغباء ثم لايزعجك منظرها ولايثير رغبتك في المزاح ولايهيج أعصابك. وصرخت السيدة: ــ واأسفاه. ذلك شيء آخر. هذه الحيوانات لها أذناب في مؤخرتها، وأنا يغضبني منظر هذا السخيف الذي هو مثلها في الغباء، والذي ليس له ذنب في مؤخرته. ــ نعم ذلك شيء آخر يا سيدتي.

(٩)

بعد القداس حدثت أمور من كل نوع يمكن أن تُرى وأن تُسمع، وخصوصاً يمين راهب كبير حليق، كانت سحنته الجريئة الصارمة الرومانية العتيقة تتناسب في شكل غريب مع جبته الغليظة المهلهلة كجبة شحاذ، وكأن هذا الرجل امبراطور الفقر. وعظ عظة السماء وجهنم وأبدى أحياناً حماسة تصل إلى حد الغضب. وكان وصفه للسماء يحمل أسلوباً ليس قليل البربرية. هنالك كثير من الذهب والفضة والجواهر والمطاعم الممتازة والخمور الطيبة، وكان فمه كأنه يتنشق كل ذلك في هيئة إنسان مختار، وكان يتململ في نشوة في ثوبه وهو يتحدث عن الملائكة الصغار ذوي الأجنحة البيض، وتصور أنه هو نفسه ملاك صغير ذو أجنحة صغيرة بيض. أما رسمه لجهنم فكان أقل تسلية، بل كان جدياً غير عملي إلى حد ما. هذا الرجل كان هنالك وكأنه في عنصره. والتهبت حماسته على الخصوص في موضوع المخطئين الذين لايؤمنون إيماناً مسيحياً كافياً بالسنة اللهب في جهنم، ويزعمون أنها قد بردت قليلاً في الأزمنة الأخيرة وأنها سوف تخبو نهائياً عما قليل ــ وصرخ قائلاً: حتى إذا كانت جهنم على وشك أن تخبو فسأعيد لها شعلتها بأنفاسي وأنفخ على الجمرات الأخيرة الباقية لأعيد إليها لهبها وحرها القديمين. إنك عندما تسمع هذا

الصوت الذي يشبه ريح الشمال يزأر بهذه الكلمات، وعندما ترى هذا الوجه من نار، وهذه العنق الحمراء كأنها عنق جاموس، وقبضات هذا الرجل العـريضة لايمكنك أن تجد في هذا الوعيد الشديد مبالغة ولاغلوا. قالت السيدة: I like this man (بالأنكليزية في النص) (أحب هذا الرجل). وأجبت: ــ أنتِ على حق إنه يعجبني أكثر من كثير من أطبائنا الروحيين اللطفاء أصحاب الطب التجانسي الذين يمزجون جزءاً من عشرة آلاف جزء من العقل في سطل من الماء الأخلاقي ويقدمون لنا هذا العلاج كل أيام الآحاد. ــ نعم، يا دكتور. أنا أحترم جهنمه، ولكني لست على ثقة كبيرة بسمائه. بل لقد تصورت في سن باكرة كثيراً من الشكوك السرية حول مظهر السماء، كنت عندئذ صغيرة جداً في (دبلن) وكنت كثيراً ما أنام على ظهري في الحشيش وأتساءل هل يمكن حقاً أن تتضمن السماء كثيراً من الروائع التي يحدثوننا عنها. ولكني كنت أفكر: كيف يمكن أن تبقى كل هذه الروائع في السماء ثم لايسقط شيء منها على الأرض، مثل قرط من الألماس أو عقد من اللؤلؤ، أو على أقل تقدير قطعة من شطائر الأناناس، بينما لا تأتينا من السماء إلاّ أكوام من البرد ومن الثلج أو من المطر. وكنت أقول في نفسي: ليس ذلك عدلاً. . . ــ لماذا تقولين هذا يا سيدتي، لماذا لاتفعلين أفضل من ذلك فتخرسين هذه الشكوك. إن الجاحدين الذين لايقبلون السماء لايجوز لهم أن يكونوا وثنيين. إنه لأقل عرضة للوم وأكثر استحقاقاً للمدح ذلك الوثني من هؤلاء الناس الذين يملكون سماء رائعة لايريدون أن يحتفظوا لأنفسهم كأنانيين بروعتها، فيدعون من أجل ذلك أصدقاءهم وأقرباءهم لأخذ نصيبهم منها ولايتوانون عن دعوة من لايقبل هذه الدعوة الطيبة.

ــ لقد عجبت دائماً يا دكتور من أن أغلبية الأغنياء من هذا النوع الذين نراهم منهمكين في كثير من الحمية بصفتهم أعضاء مجتمعات تحت بعض المتسولين اليهود الشيوخ على أن يكونوا أهـلاً للسماء، لكي يتمتعـوا بمجتمعهم المحبوب، ثم لايفكرون، مع ذلك أبداً في دعوتهم إلى مشاركتهم في الطيبات على ظهر هذه الأرض، فهم مثلاً لايدعونهم خلال الصيف إلى بيوتهم الريفية وفيها من الطيبات والخيرات التي يتذوقها ذلك الشيطان المسكين في لذة تعدل لذته في تذوق طيبات السماء. ــ لهذا تفسيره يا سيدتي. إن الطيبات السماوية لاتكلفهم شيئاً، وإنه لسرور مضاعف أن يجعل الإنسان أخاه الإنسان سعيداً مجاناً. ولكن إلى أية طيبات يمكن أن يدعو الجاحدون إخوانهم إلى التمتع بها؟ ــ لاوجود هنا لطيبات، إن لم تكن ذلك الرقاد الطويل الهادىء الذي يمكن أن يكون أحياناً غالي الثمن عند إنسان بائس ولاسيما عندما يكون غارقـاً في الدعوات العاجلة الملحة إلى السماء.

قالت السيدة الجميلة هذه الكلمات في لهجة واخزة مرة فأجبتها في بعض الجد: ــ يا ماتيلدا العزيزة، في أعمالي على هذه الأرض لا أبالي إلا قليلاً بوجود السماء والجحيم، أنا أكبر سناً وأكثر كبرياء من الرغبة في مكافآت السماء أو من مخافة العذاب الشديد، حتى تستطيع أن توجه أعمالي. أنا أميل إلى الخير لأنه جميل وهو يجذبني في شكل لايقاوم. وأنا أكره الشر، لأنه قبيح ويوحي إلى الاشمئزاز منه. كنت ما أزال طالباً عندما قرأت (بلو تارك) ــ وما أزال أقرؤه اليوم كل مساء في سريري، وربما راودتني الرغبة أحياناً في أن أقفز عنه وأقوم بدوري في أن أكون رجلاً عظيمًا ــ ومنذ ذلك كنت مسحوراً بملامح تلك المرأة التي تركض في شوارع الاسكندرية، وهي تحمل في إحدى يديها قربة ملأى بالماء، وتحمل باليد الأخرى مشعلاً ملتهباً وتصرخ بالناس أنها تريد أن تطفىء جهنم بذلك الماء وأن تحرق السماء بهذا المشعل حتى لايمتنع الإنسان عن الشر لخوفه من العقاب ولايقوم بالخير طلباً للجزاء. كل أفعالنا ينبغي أن تنبع من حب لا غاية له، سواء أكان هنالك استمرار في الوجود بعد الموت أم لم يكن. ــ إذن فأنت لاتعتقد بالخلود. ــ أنت ذات فكر ثاقب ياسيدتي! أأنا أشك فيه. أنا الذي يذهب قلبي كل يوم في أعمق الجذور في ألوف القرون الماضية والمستقبلة، أنا الذي أعدّ نفسي واحداً من أكثر الناس خلوداً، أنا الذي أرى في كل نفس من أنفاسي حياة خالدة أبدية، وفي كل فكرة من أفكاري نجمًا خالداً... أنا لا أعتقد بالخلود! ــ أظن يا دكتور أن من الواجب أن تكون هناك جريمة طية من الغرور ومن الزهو في الإنسان لكي يطلب، بعد أن تمتع فوق ظهر هذه الأرض بكثير من الطيبات والأمور الجميلة، أن يكون هنالك أيضاً، علاوة على ما تمتع به، رب للخلود. إن الإنسان وهو الارستقراطي بين أنواع الحيوانات، الذي يعتقد أنه خير من كل المخلوقات يريد أن ينتزع كذلك من سيد العالم وملكه هذه الميزة في الخلود بالأغاني، بالأماديح، بالركوع والسجود وبالصلوات المغرية... أوه أنا أدرك تماماً ما تعني حركة شفتيك هذه، يا سيدي الخالد.

(١٠)

طلبت منا (السنيورة) مرافقتها إلى الدير الذي يحتفظ بالصليب العجائبي، أشهر الصلبان في (توسكانيا). حان الوقت لترك الكنيسة لأن جنون السيد كان يمكن أن يلقينا في بعض الحرج. لقدكانت نبعاًمن الحمية الساخرة، وانطلاقات فيها مبالغات لذيذة جريئة جرأة قطط تقفز في شمس شهر أيار، عندما خرجنا من

الكنيسة غمست أصابعها ثلاث مرات في الماء المقدس ورشتني به ثم تمتمت: Dam zeffardeyim Kinnim (بالالمانية في النص) وهذا يعني عندها الصيغة العربية التي يستطيع بها السحرة قلب الإنسان إلى حيوان.

في ساحة القبة تتحرك أعداد كبيرة من الجيوش في لباس يكاد يكون نمسوياً، تصدر إليهم أوامر باللغة الألمانية. لقد سمعت، على أقل تقدير، اللغة الألمانية في هذه الأوامر: قدّم سلاحك. السلاح عند القدم... إلى جنبك، در إلى اليمين، قف. لقد اعتقدت أن كل الايطاليين، وسائر شعوب أوروبا تصدر الأوامر بالألمانية. أيمكن لنا، نحن الألمان أن نشعر في ذلك بشيء من الغرور؟ أترانا قدنا العالم إلى حد تكون فيه اللغة الألمانية قد أصبحت لغة الأوامر؟ أو أننا تركنا أنفسنا خاضعين للقيادة حتى أصبحت اللغة الألمانية هي لغة الطاعة العمياء التي يفهمها الناس جميعاً أحسن فهم؟

يبدو أن السيدة ليست صديقة للاستعراضات والمهرجانات فأبعدتنا عنها في خوف ساخر، قالت: لا أحب جوار مثل هؤلاء الناس بسيوفهم وبنادقهم، وخاصة عندما يسيرون في صفوف وبأعداد كبيرة كأنهم في تدريبات خارقة للعادة. ماذا يحدث لو أن واحداً من هؤلاء الألوف من الناس أصبح مجنوناً فجأة، وألقاني ميتة في هذه الساحة بسلاحه الذي يمسك به في يده. أو لو أن آخر أصبح عاقلاً فجأة فقال: «بماذا تغامرون، ماذا تخسرون ما داموا قادرين على أن ينتزعوا حياتكم. هذا العالم الآخر الذي يعدوننا به بعد الموت يمكن أن لايكون في مثل الألق الذي يحدثوننا عنه، بل ربما كان أسوأ مما نتوقع. ولكنك لايمكن أن يعطوك فيه أقل مما تقبضه في هذه الأرض، يعني أقل من (٦) كروتزات في اليوم الواحد... هيا. قدموا لي هذه النزوة واقتلوا لي هذه الانكليزية الصغيرة ذات الأنف الوقح... ألست إن حدث ذلك في خطر داهم؟ لو كنت ملكة لقسمت جنودي قسمين: أحدهما أجعله يؤمن بخلود الروح ليكونوا شجعاناً في المعركة لايهابون الموت وأستخدمهم فقط في الحرب. أما القسم الآخر منهم فاحتفظ به للاستعراضات والحفلات، كيلا يخطر في بال واحد منهم أنه لايغامر في شيء عندما يقتل أحدنا لكي يتسلى. أمنعهُم تحت عقوبة الموت أن يعتقدوا بخلود الروح، بل سوف أعطيهم قليلاً من الزبدة مع خبز المؤونة لكي أحببهم بالحياة، أما الأولون، أولئك الابطال الخالدون، فسوف ـ على عكس ذلك ـ أجعل حياتهم مريرة جداً حتى يتعلموا احتقارها كما يجب وحتى يعتبروا فم المدافع وكأنه مدخل إلى عالم

أفضل. قلت: ـ يا سيدتي... ستكونين ملكة سيئة، فأنت لاتعرفين كيف تحكمين إلا قليلاً ولاتفهمين شيئاً في السياسة. لو أنك قرأت الحوليات السياسية.... ـ أفهم كل ذلك وأفهمه خيراً منك ـ فيما أظن ـ يا سيدي الدكتور. منذ زمن بعيد حاولت اكتساب المعلومات في هذا الموضوع... عندما كنت صغيرة في (دبلن)... ـ ما أكثر ما نمت على ظهري في العشب وما أكثر ما تأملت... أو ما أكثر ما تركت التأمل كما في (رامسجات).... نظرة تشبه لوماً خفيفاً على العقوق هبطت من عيني السيدة ولكنها عادت تبتسم وأتمت هي نفسها الجملة التي أتممتها عنها: ـ عندما كنت في (دبلن) وكنت لا أستطيع الجلوس في زاوية المنضدة التي تضع أمي أقدامها عليها كنت دائماً أجد ما أزعجها به من كل أنواع الأسئلة حول الخياطين والحذائين والخبازين، بل حول كل الناس الذين يعملون في هذا العالم. وشرحت لي أمي أن الخياطين يصنعون الثياب، والحذائين يصنعون الأحذية، والخبازين يصنعون الخبز... وعندما سألتها أخيراً عما يصنع الملوك أجابتني أمي إنهم يحكمون، وقلت لها عندئذ: أتعرفين يا أمي العزيزة أنني لو كنت ملكة لحاولت مرة أن أقضي يوماً واحداً كاملاً دون أن أحكم لأرى كيف تكون عندئذ سحنة العالم. وأجابتني أمي: يا ابنتي العزيزة، وهذا ما يفعله كثير من الملوك ونحن نرى ذلك جيداً. وقلت: ـ الحق أن أمك على صواب. وهنا في ايطاليا على الخصوص كثير من هؤلاء الملوك ونحن نراهم جيداً في (نابولي) مثلاً. ـ ولكن يا عزيزي الدكتور. لايجوز أن نطلب كثيراً من ملك ايطالي إذا لم يستطع القيام بالحكم طوال اليوم بسبب الحرارة الشديدة. وأخاف فقط أن يستغل جماعة (كاربوناري) مثل هذا اليوم، لأني لاحظت في الأيام الأخيرة أن الثورات تنشب على الحصول في هذه الأيام التي لايحكم فيها الملوك. وإذا حدث مرة أن أخطأ جماعة (كاربوناري) فظنوا أن هذا اليوم أو ذاك يوم لايحكم فيه الملوك بينما هم، رغم كل توقع، يحكمون، فسوف يفقدون رؤوسهم. والـ(كاربوناري) لايستطيعون أن يكونوا حذرين إلى هذا الحد. ومن المهم لهم أن يلاحظوا تماماً الوقت المناسب. ولكن، على عكس ذلك، يقوم أكبر فن في سياسة الملوك على أن يكتموا الأيام التي لايمارسون فيها الحكم وأن يجلسوا أحياناً في بعض هذه الأيام على كراسي الحكم ولو لم يكن ذلك إلا لبري الأقلام أو ختم الرسائل أو تسطير الورق حفاظاً على المظهر حتى يعتقد الشعب في الخارج الذي يتطلع في فضول من نوافذ القصر أن الحكام يحكمون حقاً.

عندما كانت هذه الملاحظات تقوم باللعب على فم (ماتيلد) الجميل الرقيق

كانت ابتسامة راحة وسلامة تتفتح وترفرف على شفتي (فرنسسكا) الورديتين. كانت تتكلم قليلاً ولكن مشيتها لم يكن فيها ذلك الشكل المقسور لتضحية سعيدة فكانت لها في المساء السابق. كانت تسير في اطمئنان منتصر؛ كل خطوة من خطواتها نفخة بوق. وكان في كل حركاتها نوع من النصر الروحي لا الزمني يعلن عن نفسه، كانت تشبه كنيسة منتصرة وحول رأسها تشع هالة غير منظورة. ولكن عينيها، وهما تبتسمان خلال الدموع. كانت فيهما طفولة حديثة، ولم يند عن نظرتها الفاحصة جزء واحد من اللباس يلبسه كل هذا الجمهور الذي كانت تتدفق أمواجه حولنا. كانت كلمة (ايكو Ecco) هي ديدنها في التعجب. ما هذا الشال Shawl. كانت تريد أن تعطيني قطعة من حرير (كاشمير) لأجعل منها عمامة لي عندما أرقص رقصة (روكسلان). آه ثم إنها وعدتني باهدائي صليباً من اللآلىء.

يا جمبيلينو المسكين. في استطاعتك أن تقرر في سهولة موضوع العمامة، ولكن الصليب يمكن أن يجعلك تقضي ساعة مريرة أو أكثر من ساعة. ولكن السنيورة ستتولى تعذيبك خلال فترة طويلة ثم ينتهي أمرك إلى الخضوع لعذاب الصليب.

(١١)

الكنيسة التي يمكن أن نرى فيها الصليب العجائبي في لوك تعود إلى نظام رهباني لا أتذكر اسمه.

عندما دخلنا الكنيسة كان هنالك أمام المذبح اثنا عشر راهباً يركعون ويصلون في صمت. ويلقون من حين إلى حين كلمات متقطعة، كأنهم في جوقة، ترن في شكل يكاد يكون مرعباً في الردهات الخالية. الكنيسة معتمة، النوافذ الصغيرة المطلية تترك قليلاً من النور المبرقش على الرؤوس الصلعاء والجبب الرمادية. وهناك مصابيح من النحاس تلقي بعض النور الشحيح على الزخارف المسودة وعلى لوحات المذبح، والجدران تبرز هنا وهناك رؤوس قديسين من خشب، مطلية في عنف، وكأن النور الشاحب يعيرها تكشيرة حياة. بدأت الميلادي تصرخ وأشارت تحت أقدامنا إلى حجر جنائزية تمثل في بروز وجه مطران ميت، له تاج، وصولجان، يداه متصالبتان، وأنفه مكسور. قالت لنا في صوت واطىء:
ــ وا أسفاه. لقد صدمت بنفسي هذا الأنف الحجري صدمة شديدة، والآن سوف يبدو لي في منامي هذه الليلة بأنفه المهشم.

القندلفت، وهو راهب شاحب أصفر، دلنا على الصليب العجائبي وقص علينا المعجزات التي صنعها. وكإنسان متقلب الأطوار يظهر أني لم أتخذ في هذه المناسبة وجه إنسان جاحد، فأنا من حين إلى حين أشعـر بنوبـات من الايمان بالعجائب وخاصة هنا في المكان والزمان المناسب. أعتقد عندئذ أن كل ما في العالم عجيب، وأن التاريخ العالمي أسطورة، ولعلي أصابتني عدوى إيمان فرنسسكا التي كانت تلثم الصليب في نشوة بالغة؟ ولكني شعرت في الوقت نفسه أن سخرية الانكليزية اللاذعة، ولم تكن أقل حماسة، تخزني وتصدمني. بل لعل هذا الاستعداد الساخر جرحني، فشعرت أني لا أمتلك نفسي. وخيل إلي عندئذ أن هذه السخرية غير جديرة بالثناء. لايمكن أن نجرد السخرية، وهي السرور بالتناقض، من أنها تحمل في ذاتها شيئاً من الخبث، وأن الجدية أكثر ارتباطاً بالعواطف الطيبة: الفضيلة وحب الحرية وحب الذات كلها مشاعر جدية. ومع ذلك فإن هنالك قلوباً تختلط فيها السخرية والجدية، الخبث والطيبة، والحدة والعجرفة اختلاطاً مضحكاً جداً. مثل هذا القلب موجود في صدر ماتيلد. إنها أحياناً جزيرة باردة من الجليد، أرضها المصقولة مثل مرآة تفسح المجال لانبثاق أشجار تخيل واهنة، وهي في أكثر الأحيان بركان من الحماسة ينطفىء لهبه فجأة في ضحكة مدوية كأنها شلال من الثلج. إنها ليست خبيثة تماماً، وليست رغم كل اندفاعاتها، شهوانية مطلقاً وأعتقد أنها لم تفهم من الشهوانية غير جانبها المفرح، لكي تتسلى بها وكأنها في مهزلة مجنونة من مهازل مسرح العرائس، إنها لرغبة ساخرة وفضول محبوب أن ترى هذه النفس الأصيلة أو تلك في فترات الهيجان. وذلك ما يفسر علاقتها مع المركيز (جمبيلينو). ما أكثر ما تختلف عنها (فرنسسكا). إن الوحدة الكاثوليكية تهيمن على أفكارها وعلى عواطفها. إنها في النهار قمر مرهق، وإنها في الليل شمس حامية... يا قمر أيامي وشمس ليالي لن أجدك أبداً. قالت الميلادي: ــ أنت على صواب. أنا أعتقد بجدوى الصليب العجائبية. أنا مقتنعة أن المركيز إذا كان لا يعثر على ألق الصليب الموعود، فإنه يصنع، ولاشك، ألقاً عجيباً عند السنيورة. حتى تنتهي هذه إلى أن تصاب بالبهر ولا أن تهيم بأنفه. طالما سمعت الحديث عن فضائل بعض الصلبان العجائبية التي يمكن أن تجعل من إنسان مستقيم إنساناً بائساً.

هكـذا كانت المرأة الجميلة تسخر من كل شيء. إنها تصب دعابتها على القندلفت المسكين، وتوجه اعتذارات مضحكة للمطران ذي الأنف المكسور وترجوه في لطف وتهذيب ألا تزعجه في رد الزيارة لها، وعندما بلغنا جرن الماء المقدس

أرادت بكل قواها مرة أخرى أن تمسخني إلى تيس. أترى ما جرحني في أعماقي حقاً الأثر الذي ألهمني إياه المكان أو رغبتي في صدّ هذه السخرية قدر ما أستطيع. الخلاصة أني ألفيت نفسي في وضع مؤثر فقلت لها: ــ يا ميلادي أنا لا أحب النساء اللواتي يسخرن من الدين. النساء الجميلات اللواتي ليس لهن دين زهرات دون عطر. إنهن يشبهن هذه الزنابق الباردة الفارغة في أصص الخزف الصيني، إنهن في شكل الخزف، وهن حتى إذا تكلمن قدمّن لنا البراهين كيف أنهن ولدن طبيعياً من بصلة، وكأن شيئاً كافياً هنا لكي لانشعر بأنهن يصدرن رائحة كريهة. وبالتالي فيما يتعلق بالعطر فإن الزهرة العاقلة ليست في حاجة إليه.

عندما سمعت الميلادي كلمة «زنبقة» وحدها استسلمت إلى هيجان شديد، وخلال كلامي جعلت تصب مزاجها في قوة ضد هذه الزهرة حتى كادت من يأسها تصم الآذان. كان ذلك نصف مهزلة ونصف جدية حتى نظرت إليّ أخيراً نظرة كراهية وقالت لي في لهجة ساخرة مريرة صادرة من القلب:

وأنت يا زهرتي العزيزة. أي دين من هذه الأديان القائمة دينك؟ ــ أنا يا ميلادي. ديني كل هذه الأديان: عطر روحي يسمو إلى كل السماوات وهنالك يُدخل السرور حتى إلى أفئدة الآلهة الخالدين!

(١٢)

السنيورة التي لم يكن في استطاعتها فهم حوارنا الذي يدور دائمًا بالانكليزية تصورت، والله أعلم، أننا نتخاصم حول تفوق أحد وطنينا على الآخر. وجعلت تثني على الانكليز كما تثني على الألمان رغم أنها ترى في أعماق قلبها أن الأولين مجانين وأن الآخرين أغبياء. وكان رأيها سيئاً في بروسيا التي تراها، كما تصورتها في جغرافيتها واقعة خلف انكلترا وألمانيا معاً، وهي تتصور على الخصوص تصوراً سيئاً المكان الذي يقيم فيه ملك بروسيا، فردريك العظيم الذي رقصت عدوتها السنيورة سيرافينا، في السنة الماضية في حفلته الراقصة. إنه لشيء غريب أن نجد هذا الملك فردريك العظيم يعيش دائمًا على المسارح الايطالية وفي ذاكرة الشعب الايطالي. . . . قالت الميلادي: عندما مررنا أمام جرن الماء المقدس: ــ Dam zelardeyim kinnim (بالألمانية في النص) وأضافت مباشرة: لا لا حاجة بنا الآن إلى مسخ هذا الإنسان إلى حيوان، لا لأنه فقط يبدل رأيه كل عشر خطوات، ويناقض نفسه دون هوادة. ولكن لأنه تحول الآن إلى مبشر، بل إني اعتقد أنه جزويتي متنكر.

ويجب ضماناً لسلامتي أن أقوم الآن بتكشيرات ورعة واعترافات إذا كنت لا أريد أن يسلمني إلى أصحابه المنافقين في (لويولا) إلى هؤلاء الأنصار المتحمسين للتفتيش المقدس، الذين يحرقون رسمي إذا لم تسمح الشرطة لهم بالقاء الناس في النار. آه يا دكتوري المحترم لا تظن أني لست عاقلة كما يبدو في سحنتي، لست خالية من الدين، لست زنبقة، أسألك باسم السماء، لست زنبقة، أسألك بالله لاتقل إني زنبقة. بل أنا أعتقد بكل شيء بكل شيء تريدونه. وأنا أؤمن منذ الآن بكل ما هو أساسي فيما هو مكتوب في التوراة. أؤمن أن إبراهيم خلف اسحق، واسحق خلف يعقوب ويعقوب خلف يهوذا وأن هذا عرف كنته (تامار) على الطريق العام وأومن أيضاً أن لوط شرب كثيراً مع بناته. وأومن أن امرأة (بوتيفار) أمسكت في يديها معطف يوسف الطاهر. وأعتقد أن الرجلين اللذين فاجأا (سوزان) في الحمام كانا عجوزين. وأعتقد أن البطريرك يعقوب بدأ بخداع أخيه، ثم أبي زوجته، وأن الملك داود أعطى (أوري) مركزاً لائقاً في الجيش وأن سليمان أعطى نفسه ألف امرأة ثم شكا من أن كل شيء باطل. وأومن كذلك بالوصايا العشر وأحرص على التمسك بأكبر عدد منها. فأنا لا أشتهي ثور جاري ولا خادمته ولا بقرته، ولا حمارته. ولا أعمل يوم السبت، اليوم السابع الذي ارتاح فيه الله، بل إني من باب الاحتراز لأني لا أعرف تماما يوم الراحة السابع هذا لا أعمل طوال أيام الأسبوع. أما أوامر يسوع فقد مارست أكثرها خطراً، ذلك الأمر الذي يطلب منا أن نحب اعداءنا، ذلك أن كل الرجال، الذين أحببتهم أكثر من أحببت كانوا دائماً ويا للأسف دون شك أكثر اعدائي قسوة. صرخت عندما سمعت صوت المرارة الموجعة في سخرياتها المجنونة: ــ أسألك بالله، يا ماتيلد، لا تبكي.

كنت أعرف هذا الصوت الذي يهزّ في قوة، ولكن في وقت غير طويل، قلب هذه المخلوقة العجيبة الساخر البلوري، وأعرف أيضاً أنه يمكنه أن تخنقه النكتة الطيبة التي تقدم له أو التي تخطر بباله. كانت وهي تعتمد على بوابة الدير تضغط خدها الملتهب على الأحجار الباردة وتمسح بشعرها الطويل آثار دمعة. حاولت أن أعيد إليها مزاجها الطيب بإثارة طريقتها الخاصة بالسخرية في مخاتلة (فرنسسكا) المسكينة ويحمل أكثر أنباء حرب السبعة أعوام إثارة إليها، وهي حرب يبدو أنها تشدها إليها وتعتقد أنها لما تنتهِ. قصصت عليها كثيراً من الأمور الغريبة عن فردريك الكبير، المدعي المضحك، القيصر في مهمازيه الذي اخترع الملكية البروسية وعزف بالقيثارة عزفاً رائعاً في شبابه ودخن كثيراً من التبغ، ونظم أشعاراً

باللغة الفرنسية. سألتني (فرنسسكا) من سيكون الغالب: البروسيون أو الألمان؟ لأنها كما لاحظت ترى في البروسيين شعباً آخر، والواقع أنهم في ايطاليا لايفهمون باسم الألمان إلا النمسويين. ولم يكن تعجب السنيورة قليلاً عندما قلت لها أنا نفسي أنا عشت طويلاً في عاصمة بروسيا برلين، المدينة التي تقع عالياً في الجغرافية غير بعيد من القطب المتجمد. وارتجفت عندما صورت لها الأخطار التي يتعرض لها الناس أحياناً عندما تصادفنا دبة المحيط المتجمد في الشارع – لأن هنالك يا عزيزتي فرنسسكا كثيراً من الدببة في معسكر (سبيتز برغ) وهي تأتي لقضاء يوم في برلين بدافع الوطنية لترى لعبة الدب والباشا أو تمضي إلى (بيرمان) في المقهى الملكي لتتلذذ وتشرب الشمبانيا، وهذا ما يدعوها إلى أن تكلف أكثر مما تحمل من الدراهم، وعندئذ ترهن الدببة أحدها فيربطونه هناك حتى يعود رفاقه إلى المقهى ويدفعون ما عليهم، ومن هنا جات عبارة «ربط الدب». بل إن كثيراً من الدببة تبقى في المدينة نفسها، ولهذا تسمى المدينة برلين Berlin لأن اسم الدب في اللغة الألمانية بارلاين Barlein. وقد جرى تدجين الدببة وتآلفها مع الناس، بل إن بعضها قد تمدين إلى حد أنه يكتب أحلى المآسي وأروع الموسيقى. وكذلك فأن الذئاب منتشرة هناك، وهي، خوفاً من البرد، ترتدي معاطف من جلود أغنام فرصوفيا. فلذلك كان لقاؤها أصعب من لقاء الدببة. وبط الشمال يطير هنا وهناك ويُغني ألحان الشجاعة، والرنة ترفرف على الشواطىء القطبية، وتجري حولها وكأنها عارفة بغوامض الأمور. وفوق ذلك فإن أهل برلين يعيشون في بساطة ويعملون في جد، وعدد كبير منهم يغطسون حتى سررهم في كتل الثلج ويكتبون في العقائد كتباً مثالية، والأساطير الدينية للصبايا من الآنسات، وكتب تبشير وكتب صلوات ودعوات لكل يوم من أيام السنة وقصائد لـ(ايلوها) ثم إنهم مع ذلك جدّ أخلاقيين لأنهم يغوصون حتى سررهم في الثلج. – وصرخت فرنسسكا متعجبة: إذن فأهل برلين مسيحيون؟ – مسيحيتهم يا سنيورتي الجميلة، لها شيء من الخصوصية. الحق أنهم في أعماقهم ليس لهم منها شيء، ثم إنهم أعقل من أن يمارسوها في جد. ولكنهم، وهم يعرفون أن المسيحية ضرورية في الدولة لكي يخضع رعاياها خضوعاً رائعاً، ولكي لايسرقوا ولايقتلوا كثيراً. فهم يحالون على أقل تقدير في شيء كثير من البلاغة على دعوة أقاربهم إلى اعتناق المسيحية، إنهم يريدون إن صح القول أن يجدوا بديلاً في الدين الذي يدعونه، والذين يجدون هم أنفسهم في ممارسته الشديدة أمراً مرهقاً لهم. وفي هذه الارتباكات ينتهزون فرصة حماسة اليهود، وكثيرون من هؤلاء يصبحون مسيحيين ليحلوا محلهم. وبما أن هؤلاء

اليهود الفقراء يسلسون القياد، من أجل المال أو من أجل الكلام الجميل، ويفعلون ما يُؤمرون به فهم يعتنقون المسيحية ويمارسونها حتى إنهم شرعوا يضجون صاخبين ضد الإلحاد ويقاتلون حتى الموت في سبيل الثالوث الذي يؤمنون به حتى في حمارة القيظ. ويغضبون على المفكرين العقليين ويحسون الديار كأنهم مبشرون وجواسيس الدين. وينشرون أبحاثاً صغيرة في التقوى، وتدور أعينهم في الكنائس. ويكشرون تكشيرات مخيفة وينجحون نجاحاً باهراً في التعصب والتزمت الذي يختلط فيه حسد المهنة، حتى إن أصحاب التجسيد القدماء، المسيحيين ذوي الدماء الصافية شرعوا يتذمرون سراً من أن المسيحية أصبحت الآن كلها في أيدي اليهود.

(١٣)

إذا كانت السنيورة لم تفهمني جيداً فأنا على يقين أنك أنت يا قارئي العزيز فهمتني خيراً منها. الميلادي أيضاً فهمتني وهذا ما أيقظ فيها مزاجها الطيب. ومع ذلك فعندما أردت، وربما في هيئة جدية، أن أشاطر الرأي العام في أن الشعب في حاجة إلى دين وضعي، لم تستطع منع نفسها من معارضتي بطريقتها المعتادة؛ فصرخت: ــ يجب أن يكون للشعب دين. هذا ما تردده الألسنة الغبية المنافقة ألوفاً ألوفاً. ــ ومع ذلك فهو صحيح يا ميلادي. كما أن الأم لايمكن أن تُرضي بالحقيقة البسيطة كل أسئلة الطفل، لأن ذكاءه لايسمح له بذلك، فيجب أن يكون هناك دين وضعي، كنيسة لترد على كل الأسئلة الميتافيزيقية التي يطرحها الشعب، وإنها ردود جدّ واضحة تقع تحت المحسوسات، حسب قدرته على الفهم. ــ أوه، أفٍ لك يا دكتور إن تشبيهك هذا يذكرني بقصة لاتنتهي في مصلحة رأيك: عندما كنت صغيرة في دبلن... ــ وكنت تنامين على ظهرك ــ ولكن يا دكتور لايمكن أن نتحدث معك في شكل معقول. لاترد في مثل هذه السفاهة وأصغ إليّ. عندما كنت صغيرة في دبلن، أجلس عند قدمي أمي سألتها يوماً ماذا يحل بالبدور العجائز فأجابتني أمي: يا ابنتي العزيزة، الله الطيب يمسك بمطرقة ويكسر البدور العجائز ويصنع منها نجوماً صغيرة. لايمكن أن تلوم أمي على هذا التفسير الخاطىء دون ريب لأنها، بالمعلومات الكاملة عن الفلك لاتستطيع أن تجعلني أفهم كل النظام الشمسي ونظام القمر والنجوم. وأنها ردت على سؤالي بطريقة شعبية محسوسة، وهو سؤال يتعلق بنطاق العلم. ومع ذلك فقد كان من الأفضل أن تؤخر التفسير إلى سن أكثر نضجاً أو على أقل تقدير ألا تتصور أكذوبة من الأكاذيب. لأني عندما وجدتني مع الصغيرة لوسي خلال ليلة يلمع فيها البدر في السماء وشرحت لها كيف

لايلبثون أن يصنعوا منه نجوماً صغيرة سخرت مني وقالت لي أن جدتها العجوز (أوميرا) قصت عليها أنهم يأكلون في جهنم البدور وكأنها بطيخ وأنهم يضطرون لأن السكر مفقود في جهنم إلى أن يتبّلوه بالكبريت والزفت. وجعلت لوسي تسخر من معتقداتي التي فيها شيء من سذاجة الانجيل. وضحكت أكثر منها من سذاجتها التي تعود إلى أكثر جوانب الكاثوليكية قتاماً، ثم انتقلنا من الضحك إلى نزاع وخصام جدي. وتبادلنا الشتائم وخرمشت إحدانا صاحبتها، وانخرطنا في الجدل حتى فرق بيننا (دونيل) الصغير الذي عاد من المدرسة.

لقد تلقى هذا الغلام معلومات أفضل من معلوماتنا في علم السماء، وعرف شيئاً من الرياضيات وأثبت لنا في هدوء خطأنا نحن البنتين، وجنوننا في نزاعنا. وماذا حدث؟ لقد أقمنا بيننا نحن الصغيرتين هدنة مؤقتة في حرب الرأي، واجتمعنا معاً على رأي مشترك في أن نقدم لهذا الغلام الرياضي العاقل علقة ساخنة. ــ يا ميلادي، أنا غضبان لأنك على حق. ولكن ماذا يمكن أن نعمل؟ سوف يظل الناس يتنازعون دائماً حول مزية الأفكار الدينية التي يتلقونها منذ الطفولة، والذي هو عاقل يمكن أن يتأثر بالجانبين العقلي والديني كليهما. لقد كان الأمر في الماضي غير ما يجري الآن ما من أحد كان يرغب في المغالاة بشكل خاص في العقائد وممارسة الدين أو في إزعاج الآخرين. كان الدين تراثاً غالياً وقصصاً مقدسة، وحفلات فخمة وعجائب منقولة من الأسلاف. لقد كان، إن صح القول، مقدسات العائلة تقدمها للأمة وكان موضوع استنكار عند اليوناني أن يعرض عليه أجنبي، ليس من عرقه، مشاركته في دينه. ومن جهة أخرى كان يرى في جلب أحد الناس إلى دينه بالحيلة أو بالقوة أمراً غير إنساني، وكذلك في إنكار دين آبائه لقبول دين آخر. ولكن في ذلك الحين وصل من مصر شعب، من مصر وطن التمساح والكهنوت ومع البرص والفضيات المستعارة حمل هذا الشعب كذلك أول دين موضوعي، وكنيسة وأكداساً من العقائد يجب الإيمان بها واحتفالات مقدسة تجب إقامتها. عندئذ توطدت في العالم الجبرية الدينية وعدم التسامح والنثرية العقلية وكل الأهوال المقدسة التي كلفت الجنس البشري كثيراً من الدماء والدموع... وصرخت الميلادي: ــ يا رب ألعن هذا الشعب الذي سبب كل هذه الكوارث: ــ يا ماتيلد، لاتكوني قاسية، ولاتطلقي لعنات ضد مخترعي اللعنات. إنهم هم أيضاً أشقياء بما فيه الكفاية، وإنهم يجرّون خلال العصور صليب عذابهم إلى ما لانهاية. أوه، يا لمصر هذه، إن منتجاتها تتحدى الزمن، وما تزال أهراماتها

قائمة، وموميات متاحفها ما تزال سليمة كما كانت في عهد الفراعنة ولاتقل عن هذه الموميات استعصاء على الخراب مومياء الشعب هذا الذي يطوف في الأرض كلها متلفعاً بشعاراته الدينية وأشباحه العقائدية المضحكة والمخيفة في آن واحد وهو لكي يدعم نفسه يمارس سندات الصرف والنظارات. . . انظري يا سيدتي، هذا الرجل العجوز بلحيته البيضاء التي تكاد منابتها تسوَّد من جديد وبعيونه الشبحية. . . ـ أليست خرائب من قبور الرومان القديمة؟ ـ نعم هنا يجلس هذا الشيخ يا ماتيلد، وهنا يؤدي في هذه الساعة صلاته، وهي صلاة مخيفة يندب فيها آلامه ويتهم الشعوب التي انقرضت منذ زمن بعيد من وجه الأرض ولا تعيش الآن إلا في حكايا المرضعات. . . ولكنه هو في ألمه لايكاد يلاحظ أنه جالس على قبور أعدائه أولئك الذين يطلب من السماء أن تدمرهم.

(١٤)

تحدثت في الفصل السابق عن الأديان الوضعية، حسب ما هي قائمة في كنائس وما هي كذلك تتمتع بمزايا تقدمها لها الدولة، تحت اسم أديان الدولة. ولكن هناك يا عزيزي القارىء نوعاً من الجدل الورع يتبدى في أقسى شكل عدو لمثل دين الدولة وهو كذلك عدو للدين وللدولة وعدو لله وللملك، ولكي نستعمل الكلمات المصوغة المألوفة عدو للهيكل وللعرش. ولكني أقول لك إن ذلكأكذوبة. أنا أحترم فكرة كل دين مقدسة وأخضع لمتطلبات الدولة، ثم إني لا أجل إجلالاً خاصاً مسألة التجسيد اليهودية ـ المسيحية بل إني مع ذلك أومن بقدرة الله الكاملة، يكون الملوك مجانين إلى حد مقاومة روح الشعب، أو صغاراً إلى حد إزعاج أدواتها بالدسائس والاضطهاد فأنا أظن مع ذلك، بسبب قناعتي العميقة، من أنصار المبدأ الملكي. لا أكره العرش ولكني أكره هذه الحشرات ذات الولادة القديمة التي تتخذ أعشاشها في شقوق الكرسي المغطى بالمخمل الأحمر. ولست أكره الهيكل ولكني أكره الأفاعي التي تختبىء تحت الخرائب المحترمة وإنها لأفاع ماكرة تعرف كيف تبتسم كأنها زهرات بريئة وهي تنفث سراً سمومها في كأس الحياة: إن ألفاظها الرقيقة تذكرنا بهذا البيت القديم:

Mel in ore, Verba lactis,
Fel in corde, fraus in factis.

ولهذا فأنا صديق للدولة وللدين، وأنا أكره هذا الغول الذي يسمونه دين

الدولة. وهو مخلوق مسخ، وُلد من الزنا بين السلطة الزمنية والنفوذ الروحي، بغل تولد بين حصان المسيح الدجال وحمارة المنقذ. لولا ديانات الدولة، لولا هذه الامتيازات لعقيدة ولديانة لأصبحت ألمانيا موحدة وقوية ولأصبح ابناؤها عظماء وأحراراً. ولكن وطننا ممزق بهذه الخلافات الدينية والشعب مقسم في أحزاب لأديان متعادية: الرعايا البروتستانت ينازعون الأمراء الكاثوليك. والكاثوليك ينازعون الأمراء البروتستانت. وليس ذلك إلا نتيجة شك في قبو الكاثوليكية أو في قبو البروتستانتية، في كل مكان اتهام بالالحاد وبالتجسس في الآراء وبالتقوى وبالتصوف وبالخصومات بين المجلات والصحف الكهنوتية. أحقاد في الفرق والمذاهب، تقوقع ديني نثري، وبينما نحن في نزاع من أجل السماء نبقى ضائعين على هذه الأرض. إن الحياد في موضوع الدين يمكن أن يكون الطريقة الوحيدة للإنقاذ، وضعف الإيمان يمكن أن يهب لألمانيا قوة سياسية.

إن في مصلحة الدين نفسه وطبيعته المقدسة ألاّ يكون مكسواً بالامتيازات وألاّ يكون الكهنة الذين يخدمونه متمتعين بهبات الدولة، مفضلين على سائر الناس وأن يجندوا أنفسهم للابقاء على هذه الهبة لخدمة الدولة ودعمها، وبهذه الطريقة تغسل يد أختها، الكهنة يغسلون الزمنية والعكس بالعكس، ومن هذا ينتج خليط يبدو لله وكأنه جنون ويبدو للإنسان شيئاً مقرفاً كريهاً. لايمكن أن يسقط الدين إلى مستوى جدّ واطىء إلا إذا رفعوه إلى مستوى دين الدولة، وعندئذ يبدو وكأنه فقد براءته وعذريته وجعل يفتخر أمام الناس جميعاً بأنه حظية مشهورة. لاشك أنه عندئذ يحظى بكثير من المدائح ومظاهر الاحترام، يحتفل كل يوم بانتصارات جديدة، يعرض في واجهات لامعة. بل ربما رأينا في سيره الظافر جنرالات مثل بونابرت يتقدمون إليه حاملين شموعاً، وعقولاً من أكثر العقول فخراً ومجداً تحلف الأيمان أمام أعلامه وراياته، وكثيراً من الملاحدة يعودون كل يوم إلى الإيمان ويُعمّدون... ولكن كل هذا الماء الزلال لايجعل الحساء أكثر دسمًا ولكن هؤلاء المتسببين الجدد لدين الدولة يشبهون الجنود الذين جندهم (فالستاف)، يملأون الكنيسة، أما التضحيات فليست واردة. إن المبشرين، وهم يشبهون أولئك السماسرة المسافرين يحملون بطاقاتهم ونماذج من بضاعتهم يدورون وهم يحملون كتب الدين الصغيرة، ليس في هذه المهنة ما هو خطير، وكل شيء يجري في مجراه التجاري والاقتصادي. إنه عندما تكون الأديان فقط في طور المنافسة مع الأديان الأخرى وعندما تكون أكثر تعرضاً للاضطهاد من أن تكون نفسها هي المضطهدة

تبقى محترمة وعظيمة. عندئذ تكون فيها حماسة وتضحية وشهداء وأكاليل نصر. ما أكثر ما كانت المسيحية في عصورها الأولى جميلة سامية مفعمة بالرقة القدسية عندما كانت ما تزال تشبه مؤسسها الخالد الإلهي في بطولة الألم.

كانت آنئذ الأسطورة الجميلة التي تخفى فيها الله تحت شكل شاب جميل يمضي تحت أشجار النخيل في فلسطين يبشر بالحب بين الناس وينشر عقائده في الحرية والمساواة، التي عرف المفكرون الكبار بعد ذلك سبب صدقها وروعتها والتي هزت عصرنا، عندما بشّر بها انجيل فرنسا. قارن بدين المسيح هذا المسيحيات المختلفات التي قامت كأديان للدولة في مختلف البلاد، كالكنيسة الرومانية مثلاً الرسولية الكاثوليكية أو من باب أولى هذه الكاثوليكية، الخالية من الشعر، التي نراها تسود كنيسة عليا في انكلترا. هذا الهيكل العظمي للايمان الذي تجرد من لحمه في شكل مخيف والذي خمدت فيه كل حياة ضاحكــة. إن الاحتكار مشؤوم في الأديان كما هو مشؤوم في الصناعات، والأديان والصناعات لاتتماسك في قوة إلا بالتنافس الحر، ولاتسترد روعتها الأولية إلا إذا تم سن التشريعات الضـرورية للمساواة السياسية، بين المذاهب، وكدت أقول حرية صناعة الآلهة.

إن أكثر قلوب أوروبا نبلاً أعلنت منذ أمد طويل أن الطريقة الوحيدة لانقاذ الدين من دمار كامل هي في إطلاق المساواة السياسية بين المذاهب وإلا فإن كهنتها عندئذ، يضحون بالهيكل ولايضحون بالجزء الصغير من الأشياء التي تقدم لهذا الهيكل، كما أن النبلاء يتركون للضياع الأكيد العرش والملك العادل الجالس فوقه ويفضلون ذلك على التنازل عن أكثر امتيازاتهم ظلمًا وعدواناً. إن هذا الاهتمام المحيط بالعرش وبالمذبح ليس بعد كل شيء إلا خدعة وتمثيلية تقدم أمام الشعب. وكل من أدرك أسرار المهنة يعرف أن الكهّان أقل احتراماً لله الذي يعجنونه من العلمانيين من الناس، فهم يعجنونه لمصلحتهم ويخضعونه لارادتهم خبزاً وكلاماً، كما أن النبلاء يمجدون الملك أقل بكثير مما يفعله عابر سبيل وإنسان عادي. نحن نعلم كذلك أن هذه الملكية التي يبدي لها النبلاء الاحترام أمام الجمهور، هذه الملكية التي يطالبون باحترامها عند الآخرين، يسخرون أكثر منهـا بين أنفسهم ويحتقرونها من أعماق قلوبهم. الحق أنهم يشبهون هؤلاء الناس الذين يبدون في سبيل المال في المعارض للجمهور الذاهل. سواء كانوا ذوي عضلات مثل هرقل أو مارداً أو قزماً، أو وحشياً أو بالع نار أو أي رجل له مزية خارقة، من أولئك الذين يقومون بأعمال استفزازية من قوة أو عظمة أو جرأة أو مناعة، أو الذين إذا

كانوا أقزاماً يبدون حكماء متعمقين. وهم في الوقت نفسه يقرعون الطبول ويلبسون قبعات لها ذيول مبرقشة. إن هؤلاء القيالين الجوالين لايضحكون في أعماق قلوبهم من تصديق الشعب المندهش لهم كما يضحكون من ذلك الصعلوك المسكين المبجل تبجيلاً فيه مغالاة والذي أفقدته زيارته اليومية لهم أو زيارتهم له كل مكانة في عيونهم وهم يعرفون تماماً كل مواضع الضعف والتفاهة في حيله وألاعيبه.

لا أدري إذا كان الله الطيب سيتحمل إلى أمد بعيد أن يقدمه الكهّان كأنه غول شرير وأن يقبضوا دراهم من هذه المهنة، ولكني أعلم على أقل تقدير أنني لن أدهش إذا قرأت ذات صباح في رسائل حيادية من (هامبورغ) إن إله إسرائيل الشيخ الإله الأب يكلف كل واحد ألا يثق بأي إنسان يتحدث باسمه، حتى لو كان ابنه. وأنا مقتنع أننا سنرى الزمن الذي يقف فيه الملوك موقف دمى المتاجر تحت تصرف محتقريهم النبلاء وأنهم سيكسرون روابط المجاملة واللياقة ويتخلصون من بيوت المرمر ويرمون في غضب، وبعيداً عنهم، كل هذه البهارج التي يفرضونها على الشعب، ذلك المعطف الأحمر الذي يخيف مثل معطف الجلاد، وتلك الحلقات من اللآلىء التي تمتد فوق الآذان لتصمها عن سماع أصوات الشعب، والعصا الخشبية الذهبية التي وضعوها في أيديهم رمزاً للعقاب العسكري، وأخيراً سيصبح الملوك المتحررون أحراراً مثلنا نحن الناس، يمشون بيننا رجالاً أحراراً ويشعرون رجالاً أحراراً ويتزوجون كرجال أحرار ويتحدثون كرجال أحرار وعندئذ سيحل عهد تحرير الملوك.

(١٥)

حاشية

ـ كتبت في تشرين الثاني عام ١٨٣٠ ـ

لا أدري أية تقوى عجيبة تمنعني من تلطيف بعض التعابير التي تبدو لي عندما أراجعها في الفصول السابقة قاسية جداً. لقد أصبحت أوراق مخطوطتي شاحبة جد صفراء، شاحبة شحبة الموت، وأشعر أني أبترها وأجدعها، كل قطعة مكتوبة ذات تاريخ قديم تكتسب حقها في عدم المساس بها وعدم انتهاك حرمتها وخاصة هذه الصفحات التي هي ملك إلى حد ما لماضٍ جدّ حالك. لأنها كتبت قبل عام تقريباً من هجرة آل بوربون الثالثة. في عهد أكثر قسوة من أشد تعابير

الكاتب قسوة، في عهد خيل للناس جميعاً أن من الممكن أن يؤجل انتصار الحرية على مدى قرن كامل. وذلك على أقل تقدير شيء يثير القلق، يعني أن نرى فرساننا الألمان يرفعون جباههم في اطمئنان، ويرسمون من جديد شعاراتهم الصفراء ذات المجن والحربة ويقفزون في فخر على صهوات خيولهم العالية وكأنهم أولئك الرجال ذوو الشهامة من فرسان القرون الوسطى، أو كأنهم أبطال المائدة المستديرة في بلاط الملك (أرثور)، والذي لايحتمل أكثر مما مضى هو منظر تلك الغمزات الخبيثات في عيون المرائين المنافقين الذين يعرفون كيف يخبئون تحت معاطفهم آذانهم الطويلة في حذق ومهارة تجعلنا نتوقع منهم القيام بأكثر الألاعيب مكراً. لانستطيع أن نتوقع أن يرمي الفرسان النبلاء رماحهم في طيش يستحق الرثاء بل أن يرميها أكثرهم في شكل دنيء. أو إلى خلف مثل البشكيريين حين يفرون. بل يمكن أن نشك قليلاً في أن مكر المرائين المنافقين سيرتد عاراً عليهم. وا أسفاه، إنه لأمر يستحق العطف أن نرى كيف يضيعون أفضل ما عندهم من سموم، إنهم يرمونت على رؤوسنا بكتل من الزرنيخ، بدلاً من أن ينشروها في كميات محدودة دراهم معدودة وفي لطف في حسائنا. إنه ليستحق العطف أن نراهم يلفون أسمالنا العتيقة من سراويلنا ليدفنوا فيها أقذارنا، بل وينبشون جثث آباء أعدائهم لكي يعرفوا أنهم ربما كانوا مصادفة مدعاة للريب. . . أوه ياهم من حمقى أولئك الذين يسرهم أن الأسد ينتسب إلى عرق السنوريات إلى زمرة القط، والذين يطبّلون ويزمرون لهذا الاكتشاف العظيم في التاريخ الطبيعي وإلى أمد طويل حتى إن القط الكبير يغضب ويثبت لهم ببراثنه أنه من زمرة ex ungue leonem أوه يا للمحتمين المساكين الذين لايرون في وضوح إلا عندما يعلقون بأعمدة المصابيح. يجب لكي نغنيهم غناء يليق بمقام هؤلاء المنافقين الأغبياء أن تكون قيثارتي معلقة في مصران حمار.

يا لها من نشوة عارمة تمسك بي. عندما كنت جالساً أكتب كانت الموسيقى ترن تحت نافذتي. وقد عرفت في هذا الغضب الرثائي في اللحن الجليل نشيد المارسيلييز الذي حيا به (باربارو) الجميل ورفاقه مدينة باريس، لحن أبقار الحرية الذي بعث في الحرس السويسري لقصر (التويلري) الحنين إلى بلادهم، هذا اللحن الظافر لـ(الجيروند) الميت، لحننا القديم الرائع الذي غنتنا به مرضعاتنا. . .

يا لها من أغنية . . . تتغلغل في نفسي ناراً وفرحاً وتتوقد فيها أكثر النجوم لمعاناً وحمية السخرية وصواريخها. كلا إن هذه الصواريخ لاتبدو أنها ناقصة في نيران

العصر الاصطناعية... إن سيول الحمية الرنانة تغمر أعلى قلبي في شلالات جريئة كأنها نهر الغانج يتدفق من جبال الهملايا. وأنتِ (يا ساتير) الممتازة، ابنة (تميس) العادلة و(بان) ذي أرجل الخنزير، أمديني بعونك، أنتِ تنحدرين كذلك من ضلع أسرته (تيتان) الأم ، وأنتِ تكرهين ، كما أكره ، أعداء عرقك محتكري (الأولمب) الأغبياء. أعيريني سيف أمك لكي أعاقب ذلك النسل الكريه وأعطيني قيثارة أبيك الصغيرة لكي أميتها بالصفير....

لقد سمعوا ذلك الصفير القاتل وحل بهم الرعب القاتل وجعلوا يفرون، تحت أشكال حيوانات، مثل ذلك اليوم الذي كومنا فيه (بليون) فوق (اوسا)...

لقد أساؤوا إلينا نحن فقراء (تيتان) وعندما يلوموننا على ذلك العنف الوحشي الذي كررنا به في ذلك الهجوم السماوي... وا أسفاه... ما أشد ما في (تارتار) من ظلم وفظاعة... نحن لا نسمع فيها إلا زئير (سيربير) ورنين الأغلال، ويجب أن يسامحونا إذا بدونا غلاظاً إلى حد ما بالمقارنة إلى أولئك الآلهة، الذين هم مرهفون ومهذبون كما ينبغي، والذين تذوقوا في ردهات (الأولمب) المضيئة العطر العبق وحفلات ربات الفن العذبة.

لا أستطيع أن أكتب أكثر مما كتبت، لأن موسيقى الشارع تثير دماغي وما يزال يصعد نحوي أشد قوة ذلك المقطع الغنائي المخيف الذي تعرفونه.

....

....

....

ما تزال تنقصني بعض الصفحات لأملأ آخر ورقة في هذا الكتاب، وأنا أنتهز هذه المناسبة لأقص عليكم قصة ما تزال تضغط عليّ منذ أمس... تلك قصة في حياة الأمبراطور (ماكسيمليان).. ولكني سمعتها منذ أمس بعيد ولست أتذكر تماماً ملابساتها. مثل هذه الأشياء تُنسى في سهولة عندما لاتتلقى مكافآت محدودة وأنت تقرأ في كل فصل على الدفتر نفسه القصص القديمة على الطلاب. ولكن ما يهمّ إن نسينا أسماء الأشخاص، وأماكن وتواريخ القصص عندما يظل في ذاركتنا مغزاها الخاص والأخلاقي.

وهذه القصة هي التي عادت إلى ذاكرتي وهزتني حتى استدرت دموعي وخفت أن أقع مريضاً.

الامبراطور المسكين وقع بين أيدي اعدائه وألقوه في سجن رهيب. أظن أنه في الـ(تيرول). كان يجلس هناك وحيداً مع أحزانه، يهجره فرسانه ورجال بلاطه، لم يهبّ واحد منهم لمساعدته. لا أدري إن كان وجهه إذ ذاك يحمل طابع الحزن الذي نراه في العهد الثاني من حياته. ولكن مما لاشك فيه أن تلك الشفة الضخمة السفلى التي تعلن الاحتقار للناس، والتي نجدها في كل أمراء أسرة هابسبرغ، تبدو في هذا العهد أشد بروزاً مما تبدو في صوره. أليس له الحق في احتقار اولئك الناس الذين كانوا يحفون به في شكل مخلص تحت سماء حظه السعيد اللامعة، والذين هجروه الآن ونبذوه في شقائه وظلمته؟ وفجأة فتح باب سجنه ودخل إلى غرفته رجل يتلفع بمعطف، وعندما ألقى معطفه عرف فيه الامبراطور(كونتز دي روزن) المخلص له، مجنون البلاط. وحمل إليه هذا المجنون التعازي والنصائح.

يا وطني الألماني، يا شعبي الألماني العزيز، أنا(كونتز دي روزن) الرجل الذي تنحصر وظيفته في أن يجعلك تزجي الوقت والذي يسرك في الأيام الطيبة، فإذا حل يوم الشقاء تسلل إلى سجنك: وهنا تحت معطفي أحمل إليك صولجانك الطيب وتاجكم الجميل.. ألا تعرفني يا امبراطوري. وإذا كنت لا أستطيع تحريرك وإنقاذك فأنا أريد أن أحمل إليك التعازي على أقل تقدير، وسيكون إلى جانبك واحد من الناس يحدثك عن آلامك الوخازة ويبث فيك الشجاعة. واحد يحبك ويضع تحت تصرفك أحلى فكاهاته وأنقى دمه، لأنك أنت يا شعبي الامبراطور الحقيقي سيد البلاد الحقيقي... إرادتك مطلقة وأكثر شرعية من تلك الدمية بألوان ثيابها الأرجوانية التي تدعي أن لها حقاً إلهياً دون أن تجد ضماناً لها إلا في أولئك الدجالين المرائين من الحرس... إن ارادتك يا شعبي هي المصدر الشرعي لكل سلطة. حتى إذا كنت مكبلاً بالأغلال فإن حقك سوف ينتصر عليها أخيراً. إن يوم الخلاص يقترب. ويبدأ عهد جديد... يا إمبراطوري... الليل انتهى وتلمع في الأفق بشائر الصبح القرمزية... -كونتز دي روزن، يا مجنوني، أنت مخطىء، أنت تحسب فأساً لامعة وكأنها شمس، والفجر ليس غير دم. — كلا يا امبراطوري، إنها الشمس، رغم أنها تشرق من الغرب... خلال ستة آلاف سنة رآها الناس دائماً تشرق من الشرق. وقد آن الأوان اليوم لتغير مسيرتها. — كانز دوروزان، يا مجنوني، لقد أضعت أجراس قبعتك الحمراء فأصبحت قبعتك الحمراء غريبة الشكل. — آه يا امبراطوري، لقد ألقتني كارثتك في حركات جدّ غاضبة، جدّ طائشة، حتى إن أجراس الجنون سقطت من قبعتي، ولكنها لم تعد أكثر سوءاً مما كانت. كونتز دي روزن، يا مجنوني، ما الذي يتكسر ويفرقع في الخارج؟ — كن

مطمئناً، إنه منشار الحطاب وفأسه، وعما قريب ستتكسر أبواب سجنك وستكون حراً يا امبراطوري. ـ هل أنا امبراطور حقاً؟ واأسفاه. إن المجنون هو الذي يقول ذلك. ـ أوه، لاتتنهد يا امبراطوري، إن هواء السجن جعلك جزعاً خائفاً وعندما تستعيد سلطتك فسوف يجري دم الامبراطور الجريء مرة أخرى في عروقك وسوف تغدو متكبراً مثل امبراطور، وفظاً ولطيفاً وظالماً ومبتسماً وناكراً للجميل مثل الأمراء. ـ كونتز دي روزن، يا مجنوني، وماذا ستعمل إذا أصبحت حراً. ـ سأربط عندئذ أجراساً جديدة في قبعتي. ـ وماذا علي أن أفعل لأكافئك على إخلاصك ـ آه، يا سيدي العزيز. لاتقتلني.

ليالي فلورنسا

(١)

وجد (مكسيمليان) الطبيب في الردهة وهو يلبس قفازيه الأسودين فقال هذا له في لهفة: ــ أنا مستعجل. السنيورة (ماريا) لم تنم طوال اليوم. وقد هومت الآن قليلاً. لست في حاجة إلى توصيتك بعدم إيقاظها مهما كانت الحجة. يجب ألا تتكلم مهما كلف الأمر. يجب أن تبقى هادئة ولاتتحرك، ولاتنفعل. حركة العقل وحدها تحسّــن وضعها. أرجوك أن تهيىء نفسك لتحكي لها كل الحكايا المجنونة لكي تصغي إليّ في راحة كاملة. وأجاب مكسيمليان في ابتسامة حزينة: ــ لاتقلق يا دكتور، لقد تدربت على مهنة القصّاص، ولن أدعها تتكلم. إن عندي من النوع الخيالي كثيراً من الحكايا أكثر مما تريد. ولكن إلى متى تظل حية؟ وأجاب الطبيب: أنا مستعجل. ثم مضى.

(ديبورا) الزنجية، ذات الأذن المرهفة عرفت القادم الجديد من خطاه ففتحت الباب في لطف وتركت الغرفة عند أول إشارة، ووجد مكسيمليان نفسه وحيداً مع صديقته ماريا. كانت الحجرة لاتنيرها إلا أنوار مصباح واحد، كأنها أنوار الغروب تلقي من حين إلى حين ظلالاً فيها شيء من الخجل وشيء من الفصول على وجه السيدة التي كانت ترتدي لباساً حريرياً، وتتمدد على الأريكة الحريرية الخضراء وتهوم.

وقف مكسيمليان مكتوف اليدين، صامتاً بضع لحظات أمام النائمة، وتأمل أشكالها الجميلة. التي كان الثوب الخفيف يظهرها أكثر مما يسترها. وكان قلبه يرتجف كلما أرسل المصباح لمحة نور على هذا الوجه الأصفر. وقال لنفسه في صوت

خافت: يا رب ما هذا، أية ذكرى تستيقظ في نفسي؟ نعم أنا أعرف ذلك الآن: هذا الوجه الأبيض على خلفية خضراء... نعم... عرفت الآن... في هذه اللحظة استيقظت المريضة وبحثت فيما حولها كأنها في حلم. عيناها الحلوتان الزرقاوان ألقتا على صديقها نظرات متسائلة متوسلة... وقالت في صوت حريري مخملي معروف عند المسلولين، فيه استهلال الوليد وزقزقة العصفور وحشرجة المحتضر: بماذا تفكر يا مكسيمليان. بماذا تفكر الآن يا مكسيمليان؟ ولم تلبث أن نهضت في سرعة حتى إن جدائلها الطويلة دارت حول رأسها كأنها شرائط من ذهب. وصرخ مكسيمليان، وهو يعيدها في لطف لتتمدد على الأريكة: أرجوك باسم الله أن تبقي مرتاحة. ولاتتكلمي... سأقول لك كل شيء، كل ما أفكر فيه، كل ما أعانيه حتى ما أزال أجهله أنا نفسي. واستمر قائلاً:

الواقع أني لا أعرف تماماً ما أفكر فيه وما أشعر به الآن... لقد انبثقت في نفسي صور من أيام طفولتي نصف منيرة في ذاكرتي. أفكر في قصر والدتي، في البستان المهمل، في التمثال الرخامي الجميل المقلوب على العشب... قلت قصر أمي، ولكن أرجوك ألّا تتصوري شيئاً من الفخامة أو الروعة، لقد تعودت منذ أمد طويل أن أطلق عليه هذه التسمية. كان أبي يرى في هذه الكلمات: القصر معنى خاصاً، ثم يبتسم إبتسامة خاصة. ولم أفهم معنى هذه الابتسامة إلا بعد ذلك عندما بلغت الثانية عشرة من عمري وقمت مع والدتي برحلة إلى القصر. كانت رحلتي الأولى. سافرنا طوال النهار في غابة كثيفة ظلت مخاوفها القاتمة ماثلة في ذاكرتي ... وعند المساء وقفنا أمام حاجز طويل يفصلنا عن المرج الكبير، وكان علينا أن ننتظر حوالي نصف ساعة قبل أن نرى الصغير يخرج من كوخ مجاور من الطين ليفتح لنا الحاجز. وقلت الصغير لأن العجوز مارث تطلق دائماً هذا اللقب على ابن اختها وهو في الأربعين من عمره. وكان هذا لكي يستقبل سادته المحسنين، يلبس الثياب التي ورثها من المرحوم عمه، وبما أنه مضطر سلفاً إلى نفض الغبار قليلاً عنها فقد كان علينا أن ننتظره طوال هذا الوقت. ولو أنهم وهبوا له أكثر مما وهبوا للبس جوارب، ولكن ساقيه العاريتين الحمراوين لم تكونا كثيرتي الملاءمة لثيابه البراقة. ولست أعرف هل كان يلبس سراويل. وجان، خادمنا، الذي سمع هو كذلك اسم «القصر» بدت على سحنته الدهشة عندما رأى الصغير يقودنا إلى البناء المتهدم الذي كان يسكنه السيد المرحوم. ولكنه ظل واجماً عندما طلبت أمي منه أن يأتي بالسرر. كيف يمكن الافتراض بأن السرر غير موجودة في القصر، ونسي نسياناً تاماً أمر أمي بحمل السرر، أو لعله رأى فيه احتياطاً لالزوم

له. البيت الصغير، الذي لم يكن إلا طابقاً واحداً لم يكن فيه حتى في الوقت الطيب غير خمس حجرات صالحة للسكنى، أصبح صورة مؤسفة للخراب. الأثاث مكسور، والسجاجيد ممزقة، وأكثر النوافذ دون زجاج، والستائر ممزقة في عدة جوانب تعرقل في حزن المرور في المعسكر الصاخب. قال الصغير في ضحكة بلهاء: لقد كان الجيش عندنا يتسلى ويلهو دائماً. أشارت أمي إشارة تدعو إلى تركنا وحدنا، وبينما كان الصغير مشغولاً مع جان ذهبت لزيارة الحديقة التي كانت مثل البناء في الخراب والإهمال، الأشجار الكبيرة تتمدد على الأرض مشوهة أو مكسورة، أعشاب طفيلية وقحة تغزو الجذوع المقلوبة. وهنا وهناك في الأماكن التي تغزوها أعشاب الطقسوس النامية نمواً غير منتظم تبدو آثار الممرات القديمة. ورأينا هنالك بعض التماثيل التي ليس لها أنوف، وليس لها أحياناً رؤوس. وأتذكر أني رأيت تمثال (ديانا) وقد اكتسى في شكل غليظ باغصان اللبلاب القاتمة، كما أتذكر إلهة الخصوبة وقد تجاوز قرنها نبات الشكوران في إبان ازدهاره. تمثال واحد إلهي نجا بإعجوبة من عبث الزمان والناس، لعلهم انتزعوه من قاعدته، ولكنه ظل سليماً فوق المرج. الإلهة الحلوة من المرمر بقسماتها الصافية المنسجمة الصافية في وجههـا، وبصدرها النبيل الموزع توزيعاً طيباً بين نهديها، تظل مسيطرة على ردائها الكثيف وكأنه إحدى رؤى الأولمب الأغريقي. كدت أخاف عندما رأيتها. هذا الوجه جعلني اضطرب اضطراباً غريباً، شيء من القلق السري التقي منعني من الاسترسال طويلاً في تأملاتي المغرية.

عندما عدت إلى والدتي كانت تقف عند النافذة وقد استغرقت في أفكارها، ورأسها يعتمد على يدها اليمنى، والدموع تسيل على خديها. لم أرها قط تبكي مثل هذا البكاء. ضمتني في حنان غامر، وسألتني العفو لأني لا أستطيع بسبب إهمال (جان) أن يكون لي سرير مريح. قالت: «العجوز مارث مريضة مرضاً شديداً ولاتستطيع يا ولدي العزيز أن تتخلى لك عن سريرها، ولكن (جان) سيمهد لك أرائك العربة حتى تنام فوقها وسيعطيك معطفه ليكون غطاء لك. أمّـا أنا فأستطيع أن أنام هنا على القش. هذه غرفة أبي، لقد كان هذا السكن أحسن حالاً. دعني وحدي.» وجرت الدموع من عينيها أكثر غزارة.

لم أستطع النوم إما لأن هذا السرير المؤقت لم يرق لي، أو لأن قلبي كان مضطرباً. كان ضوء القمر يدخل دون حاجز من النوافذ التي كُسّر زجاجها وكأنه يدعوني إلى التمتع بهذه الليلة الصيفية المنيرة . جعلت عبثاً أتقلب يميناً ويساراً

على فراشي وأغمض عيني وأفتحهما في نفاذ صبر وانزعاج. وأعود دائمًا إلى التفكير في ذلك التمثال المرمري الجميل الذي رأيته متمدداً على عشب المرج. لا أستطيع أن أشرح الارتباك المخجل الذي استبد بي عند هذا المنظر، ولا أقر هذه العاطفة الصبيانية الساذجة، وأقول لنفسي في صوت خافت: غداً غداً سنقبلك أيها الوجه المرمري الجميل، سنقبلك على زاويتي فمك، هناك حيث تضيع الشفاه في صحن الخد المنسجم. كان نفاذ الصبر الذي لم أشعر به من قبل، يدور في كل شراييني. ولم أستطع مقاومة هذه الجاذبية الغريبة طويلاً، فقفزت في حركة عنيفة وقلت: أراهن أيها الوجه الجميل أني سأقبلك هذا اليوم... سرت في خطوات خفيفة كيلا تسمعني أمي. وسهل علي الأمر أن البوابة رغم ما عليها من زخرفات وستائر ليس لها باب. وشققت طريقي في حيوية خلال النباتات البرية في البستان. ولم تصدر أية ضجة يمكن أن تسمع، واقتربت في هدوء بالغ تحت نور القمر الأخرس. كانت ظلال الأشجار وكأنها مسمرة في الأرض. وفوق العشب الأخضر ترقد الربة الجميلة دون حراك، ومع ذلك فليس هذا الجمـود جمود المـوت، إنه نـوم عميق يقيد أعضاءها الغضة، ولولا قليل لخفت وأنا أقترب منها، أن أوقظها من نومها بضجة ولو كانت قليلة. أمسكت بأنفاسي وأنا أنحني عليها لكي أتأمل خطوط ملامح وجهها الصافية: ولكن ارتباكاً مقلقاً أبعدني عنها، فقربتني مرة أخرى نشوة الطفل منها، وجعل قلبي يخفق كأني أكاد ارتكب جناية قتل، وأخيراً عانقت الربة الجميلة في نشوة وحمية ورقة وهذيان لم أشعر بها في هذا العنف طوال حياتي وأنا أقبل. لا أستطيع أن أنسى الرجفة الحلوة الجليدية التي جرت في روحي عندما مس برد هذه الشفاه المرمرية المثير فمي. وهكذا أنت ترين يا ماريا في اللحظة التي وصلت فيها أمامك ورأيتك في ثيابك البيضاء متمددة على أريكتك الخضراء أنك أثرت فيّ ذكرى التمثال الرخامي الأبيض الراقد على عشب المرج. ولو أنك نمتِ نوماً أطول مدى لم تستطع شفتاي مقاومة تقبيلك....

وصرخت الفتاة من أعماق روحها: ـ ماكس!. ماكس! هذا مخيف... أنت تعرف أن قبلة من فمك.. ـ كفى. أرجوك. أعرف أن مثل هذه القبلة ستكون مرعبة لك. ولكن لاتنظري إليّ بهذا الشكل المتوسل. لقد أدركت كنه عواطفك رغم أن سببها الخلفي يظل خفياً عني. لا أجرؤ قط على أن أطبع شفتي على فمك...

ولكن ماريا لم تدعني أكمل كلامي، أمسكت بيدي وغطتها بأشد القبلات،

وأضافت وهي تضحك: ــ «أرجوك، قصّ علي أخبار عشقك... ما الزمن الذي قضيته في حب تلك الجميلة المرمرية التي قبلتها في بستان أمـك؟». واستأنف مكسيمليان: ــ غادرنا البيت في اليوم التالي، ولكنها شغلت فكري خلال أربع سنوات. منذ تلك اللحظة تطور في روحي حب مدهش لتمثال المرمر، وشعرت هذا الصباح بقوته التي لاتقاوم. عندما عدت من (لورانزتانا)، مكتبة آل مديشي، دخلت، ولا أدري كيف، في القلعة التي أقام بها هذا العرق، وهو أكثر عروق أيطاليا بذخاً، وعمل على نحت أحجار غالية يغطي بها القبور التي يرقد فيها هادئاً. بقيت هنالك ساعة كاملة مستغرقاً في تأمل امرأة من المرمر تدل بنيتها القادرة على ما تتمتع به من قوة خارقة، بينما يرفرف الوجه في رقة أثيرية لم نعتدْ

وجودها في أعمال هذا النحات. في هذا المرمر تكمـن امبراطورية الأحلام وألوان السحر الصامتة، هدوء رقيق ناعم يستريح في تلك الأعضاء الجميلة، وكأن ضوء القمر ينساب في شرايينها... إنها لوحة ميكيل أنجلو بيوناروتي «الليلة.» أوه. ما أشد رغبتي في أن أنام نوماً أبدياً بين ذراعي تلك الليلة....

واستمر مكسيمليان في حديثه بعد توقف قصير. النساء المصورات في لوحات كن دائمًا موضع اهتمامي أقل من اهتمامي بطبيعة الرخام. مرة واحدة همت عشقاً بلوحة، إنها صورة العذراء الرائعة التي رأيتها في كنيسة في كولونيا على الرين. أصبحت زائراً مداوماً على الكنيسة، وغاصت روحي في صوفية الإيمان الكاثوليكي. في ذلك العهد أقررت بملء إرادتي وكأني فارس من فرسان الأسبان، وكل يوم، معركة قاتلة في سبيل إثبات طهارة مريم، ملكة الملائكة، أجمل سيدة في السماء وفي الأرض، وأصبحت بارد العاطفة نحو الآب، وهو شيء أستحق عليه الصفح في ذلك الوضع الخاطىء الذي وجدتني فيه أمامه، أما الابن فقد شعرت، على عكس ذلك، بميل عنيف إليه يكاد يكون عطف الوالد على ولده. أحب ما في سجيته من نبل وحماسة، أن يضحي بنفسه في مثل تلك اللامبالاة في سبيل خلاص الانسانية، لم أستطع إقرار ذلك تماماً بسبب ما نال أمه من ألم عظيم. اهتممت خلال ذلك بالعائلة المقدسة كلها، ووضعت قبعتي في إحتفال كبير تحية كلما مررت أمام صورة القديس يوسف. ولكن هذه الحال لم تستمر طويلاً، وتركت دون احتفاء تقريباً العذراء المقدسة، عندما تعرفت في متحف (كاسل) إلى جنية يونانية جعلتني أمداً طويلاً أسيراً بين أغلال المرمر. وقالت ماريا تثيره: ــ إذن فأنت لم تحبْ قط إلا النساء المنحوتات أو المرسومات. ــ أوه، لقد أحببت كذلك نساء ميتات. ذلك ما

أجاب به مكسيمليان وقد علت وجهه ملامح صرامة وجد، ودون أن يلاحظ أن هذه الكلمات هزت ماريا هزة رعب، استمر في هدوء يقول: نعم، إنه لأمر شاذ، ولكني أحببت مرة صبية ماتت منذ سبعة أعوام، عندما عرفت (فيري) الصغيرة أرضتني غاية الرضا، وشغلتني هذه الفتاة ثلاثة أيام متواليات. كنت أشعر بسرور شديد في كل ما تفعله وما تقوله، في كل تصرفات هذا المخلوق الصغير دون أن أشعر برعشة عطف بالغ. ولم أشعر كذلك بصدمة عنيفة عندما علمت بعد شهور أنها ماتت بالحمى العصبية. نسيتها تماماً وأنا على يقين أني بقيت سنوات دون أن تخطر في بالي مرة واحدة. مرت سبع سنين كاملة ووجدتني في (بوتسدام) لأتمتع بصيف جميل في عزلة هادئة. لم أزر أحداً ولم تكن لي علاقة إلا بتماثيل حديقة (سان سوسي)، وحدث لي يوماً أن ذاكرتي أعادت إليّ ملامح وجه من الوجوه، ورقة غريبة في اللغة والتصرفات، دون أن أستطيع تذكر الشخص الذي تعود إليه هذه الملامح. ولم يعذبني شيء مثل عذابي في البحث عنه وتلمسه في الذكريات العتيقة. وما أكثر عجبي ودهشتي عندما تذكرت بعد بضعة أيام (فيري) الصغيرة وشهدت هذه الصورة الحبيبة المنسية تعود لتدخل الاضطراب في خيالي، وكانت تلك صورتها. نعم لقد سرني هذا الاكتشاف كأني إنسان وجد في لحظة يائسة. صديقه الحميم. عادت الألوان التي محيت والصبية الصغيرة الرقيقة ظهرت من جديد في فكري، ضاحكة، ذكية، مقطبة، وحلوة على الخصوص أكثر مما كانت في يوم من الأيام. منذئذ لم تبرح هذه الصورة خيالي وملأت كل روحي. كانت تقف أو تمشي إلى جانبي في كل مكان أسير فيه وأينما ذهبت وتتحدث إلي، وتضحك معي في طهارة بريئة، وفي حنان بالغ. أما أنا فقد وقعت على عكس ذلك في سحر هذه الصورة التي جعلت تكتسب في عيوني واقعية تزداد وثوقاً يوماً بعد يوم. من السهل أن نستثير الأرواح، ولكن من الصعب جداً أن نعيدها إلى عدمها المظلم: إنها عندئذ ترمينا بنظرات جد مستعطفة حتى تشفع بها قلوبنا نفسها!... لم أستطع إلى الخلاص منها سبيلاً وأصبحت عاشقاً لـ(فيري) الصغيرة بعد موتها بسبع سنين. عشت هكذا طوال ستة أشهر من إقامتي في (بوتسدام)، مكبلاً تماماً بهذا الحب. وصرت أكثر رغبة مما كنت في الماضي في تجنب الاحتكاك بالعالم الخارجي، وإذا صدف أن مسني عابر سبيل شعرت بانزعاج كبير.

كنت أحس عند كل لقاء من هذا النوع الرعب نفسه الذي يمكن أن يحسّ به في مثل هذه الحالة الموتى أنفسهم في نزهاتهم الليلية، لأنهم يقولون إن الأحياء

يرعبون أرواح الأموات الذين يصادفونهم رعباً يعادل الرعب الذي يحسّ به الأحياء عند رؤية الأشباح. أرادت المصادفة أن يمر بمدينة (بوتسدام) سائح لم يكن في مقدوري تجنبه، إنه أخي. عند لقائه وخلال روايته للأحداث الأخيرة في التاريخ المعاصر استيقظت من حلم عميق، وعرفت في رعب مفاجىء العزلة المخيفة التي وضعت فيها آنذاك. تلك هي الحالة التي لم أنتبه خلالها إلى تبدل الفصول فإذا أنا ألاحظ في دهشة أن الأشجار قد تجردت من أوراقها منذ زمن بعيد واكتست بجمد الخريف. تركت (بوتسدام) و(فيري) الصغيرة فوراً ولم أرها منذ ذلك الحين، وفي مدينة أخرى ألقت بي الأعمال الهامة والعلاقات القاسية والظروف القاسية في غمار الواقع الفظ والحقيقة الفجة.

وتابع مكسيمليان! وعلى شفته العليا ابتسامة تختلط بها الكآبة:

يا رب السماء! يا رب السماء. كم امرأة حية كانت لي بها علاقة لامناص منها، ولكنهن كلهن لم يعذبنني هذا العذاب بتقطيبة وجوهن ولا برغبتهن الحسود ولا بطريقة امساكهن بي متقطع الأنفاس، ما أكثر حفلات الرقص التي كان علي أن أجرى إليها بهن. وكم ثرثرة ونزاع خضتهما من أجلهن. وأي زيف وباطل وأية سعادة في الأكاذيب، وأية قبلات خائنة، وأية زهرات مسمومة. هؤلاء السيدات انتهين بي إلى اعتبار الحب كرهاً، وخلال فترة أصبحت عدواً للنساء حتى إني أصبحت ألعن العرق كله. وجدتني في حالة تشبه حالة ذلك الضابط الفرنسي الذي نجا في حملة روسيا من جليد (بريزينا) فحمل في نفسه خوفاً ورعباً من كل أنواع الجليد، حتى إنه كان يكره، في رعب، أفضل أنواع الشراب والمثلجات طعماً وعطراً في (تورتوني). لاشك أن ذكرى (بريزينا) الحب الذي عانيته في ذلك العهد منعني خلال فترة من الزمن من تذوق أكثر السيدات كمالاً، النساء اللواتي يشبهن الملائكة والصبايا الحلوات مثل المثلجات بالفاتيليا. وصرخت ماريا: ـ أرجوك لا تسيء إلى النساء. إنها طريقة مبتذلة يستعملها الرجال، ولكنهم، لكي يكونوا سعداء لابد لهم من النساء. قال مكسيمليان وهو يتنهد: ـ أوه، لا أنكر ذلك، ولكن ليست للنساء وا أسفاه إلا طريقة واحدة لإسعادنا ولكنهن يعرفن ثلاثين ألف طريقة لإشقائنا. وأجابت ماريا وهي تخفي ابتسامة خفيفة: ـ يا صديقي العزيز أنا أتحدث عن التوافق بين روحين تحركهما عواطف واحدة. ألم تعرف مثل هذه النعمة؟ ولكني أرى خديك تجري فيهما حمرة غير عادية. قل لي إذن يا ماكس؟ واستأنف مكسيمليان حديثه: ـ هذا صحيح أنا أحسّ بارتباك طفل إذا بحت لك

بالحب الذي غمرني ذات يوم بالسعادة. هذه الذكرى لم تغادرني، وروحي ما تزال تأوي إلى ظلها الرطب عندما يصبح الغبار المحرق وحرارة الحياة اليومية شيئاً لايحتمل. ولكني لست في حالة تتيح لي أن أعطيك فكرة صحيحة عن تلك الخليلة، لقد كان ذات طبيعة أثيرية لاتستطيع أن تتجلى إلا في الأحلام. أظن يا ماريا أنك لاتعارضين الأحلام ولاتضمرين حكمًا عليها سخيفاً: هذه الرؤى الليلية لها من الحقيقة مثل رؤى النهار الفظة التي لانستطيع أن نمسكها بيدنا دون أن ندنس أنفسنا. نعم كنت أراها في المنام، أرى تلك المخلوقة الرائعة التي جعلتني أسعد إنسان في العالم. ما عندي إلا اليسير من الحديث عن شكلها الخارجي، بل إني لا أستطيع أن أفصل ملامح وجهها، إنه وجه لم أرَ له نظيراً من قبل، ولن أرى له نظيراً من بعد في حياتي. أتذكر فقط أنه لم يكن وجهاً أبيض ولا وردياً، ولكنه كان وجهاً له لون واحد بين البياض والصفرة، وكان شفافاً كأنه العنبر. وفتنة هذا الوجه لاتقوم لافي انتظام ملامحه الكامل ولا في حركته المذهلة. إن ما يميزه هو ذلك الصفاء المغري الساحر، بل الذي يكاد يكون مخيفاً، إنه وجه مفعم بحب وجداني وطيبة قدسية، إنه أقرب إلى الصفات الجسدية للشعب الايطالي. لقد استعادت الطبيعة هنا من الفنانين الرأسمال الذي كانت ادانته لهم، وانظري كيف استعادت مع هذا الرأسمال أحلى الفوائد. الطبيعة بعد أن قدمت النماذج للفنانين تستنسخ اليوم بدورها الروائع الفنية التي قدمت لها هذه النماذج خدماتها. إن الشعور بالجمال قد تغلغل في أعماق الشعب كله، وكما أن الحلم أثر في الماضي في الفكر، فالفكر اليوم يؤثر في الحلم. إنها عبادة غير عقيمة تلك العبادة المخلصة للعذراوات الجميلات، للوحات المعبد الجميلة التي تنطبع في روح الخاطب عندما تحمل الخطيبة في تقوى، في أعماق القلب، صورة قديس جميل. هذه العذابات المختارة خلقت أيضاً عرقاً أكثر جمالاً من الأرض الحلوة التي يزدهر فيها ومن السماء المنيرة التي تحيطهم بأشعتها كأنها إطار مذهب. الرجال لايهمونني كثيراً عندما لايرسمون ولاينحتون، وأترك لك يا ماريا كل ما تريدين من حماسة لأولئك الايطاليين الرشيقين الحلوين الذين هم أثيرون – سود – من رجال العصابات لهم أنوف كبيرة نبيلة وعيون يقظة حلوة. يقال إن رجال لومبارديا هم أكثر الرجال جمالاً. لم أقم بأبحاث في هذا الموضوع، ولكني قمت جدياً بدراسات نساء لومبارديا. إنهن – كما لاحظت – جميلات حقاً كما تقرر ذلك شهرتهن. يبدو أنهن عشن ما يكفي من أيامهن في القرون الوسطى. يحكى في الواقع أن شهرة النساء الميلانيات الجميلات كانت أحد العوامل الخفية التي دفعت الامبراطور فرنسوا الأول

إلى القيام بحملة ايطاليا. لقد كان الملك الفارس يتطلع دون شك إلى معرفة ما إذا كانت بنات عمه الذكيات المرحات، بنات عرابه ــ المركيز (تريفولس) جميلات كما يشاع عنهن. يا للأمير الشقي... لقد دفع ثمن فضوله غالباً في (بافي).

وما أكثر ما تصبح هؤلاء الايطاليات جميلات عندما تنير الموسيقى وجوههن: أقول تنير، لأن وقع الموسيقى كما لاحظت في الأوبرا على وجه النساء الجميلات يشبه تماماً السحر المتحرك للظلال والأنوار التي تلعب على التماثيل، عندما نتأملها ليلاً على ضوء المشاعل. هذه الوجوه المرمرية تكشف لنا، في حقيقة مخيفة، أرواحن الخاصة الحميمة وأسرارهن الصامتة. وعلى هذا الشكل أيضاً تتكشف لعيوننا حياة الايطاليات الجميلات عندما نراهن في الأوبرا. إن تتابع الألحان توقظ في أرواحهن سحر العواطف والذكريات والرغبات والآلام التي تبدو في كل لحظة في حركة ملامحن وسيماء وجوههن واحمرارها واصفرارها، وفي كل الفوارق الصغيرة في ابتساماتهن. ومن عرف القراءة أمكنه أن يقرأ عندئذ في هذه الوجوه الجميلة أشياء رقيقة ومثيرة، وقصصاً ساحرة مثل قصص (بوكاتشو)، ورقيقه مثل قصائد (بترارك)، ورجراجة مثل ثمانيات (أرسطو)، وربما قرأ كذلك أحياناً خيانات مخيفة وخبثاً رفيعاً شاعرياً مثل جحيم (دانتي). وفي بعض مقطوعات (روسيني) يكون روحاً لا وجهاً، ولذلك فأنا لا أستطيع أن أثبته تماماً في ذاكرتي. عيناها عذبتان كأنهما زهرتان، شفتاها شاحبتان قليلاً ولكنهما رقيقتا الانحناءة. تلبس ثوباً من الحرير لونه بني، كان كل لباسها. عنقها وقدماها عارية، وتحت ذلك النقاب الطري تبين في حذر كأنها تبدو سراً، رشاقة أطرافها. أما الحديث الذي كنا نديره بيننا فلست قادراً على إيراده، ولكني أعرف فقط أننا كنا نعقد بيننا أواصر الخطبة، وأن دعاباتنا كانت بريئة سعيدة رقيقة حميمة كأنها دعابات خطيبين، دعابات تكاد تكون أخوية. بل ما أكثر ما ظللنا صامتين لانتحدث، نمزج نظراتنا ونبقى آماداً طويلة في هذا التأمل المثير.... ولكن كيف حدثت اليقظة؟ لا أستطيع أن أقول ذلك. ولكني عشت طويلاً في لذات هذا الحب. طالما ظلت تمتصني الأفراح التي ليس لها صوت مسموع وكأن روحي تغوص في سلام وطمأنينة عميقة واهنة. وهناك نوع من الاكتفاء المجهول يحرك كل إحساساتي، فألبث سعيداً راضياً رغم أن حبيبتي العزيزة كفت عن زيارتي في أحلامي. ولكن ما أظل أمتح في نظرتها خلود سعادتي... إنها تعرفني معرفة جيدة حتى إنها لاتجهل إني لا أحب التكرار. وصرخت ماريا: أحقا ذلك. إنك امرؤ ذو حظ عظيم... ولكن قل لي هل كانت

الآنسة لورنس تمثالاً من المرمر أو لوحة من قماش. هل كانت ميتة أو حلمًا؟ وأجاب مكسيَميليان في جد كبير: ــ ربما كانت مجموعة من كل ذلك. ــ أتصور يا صديقي العزيز أن تلك الخليلة يجب أن تكون من مادة مشكوك فيها. ومتى تحدثني عن تلك القصة. ــ غداً، فهي طويلة وقد تعبت اليوم. عدت من الأوبرا وما تزال الموسيقى في أذنيّ. ــ أنت تشهد الأوبرا كثيراً في هذه الايام. وأعتقد ياماكس أنك تزورها لكي ترى أكثر مما تزورها لتسمع. ــ لستِ مخطئة يا ماريا. أنا أذهب حقاً لتأمل وجوه الايطاليات الجميلات. الحق أنهن جميلات بما فيه الكفاية في خارج المسرح، والشكل الجسماني لواحدة منهن يكفي في سهولة ليثبت، بما في ملامحه من مثل أعلى، تأثير الفنون الجميلة في الأشكال. يلذ لك أن تتطلع إلى الشرفات والمقاصير، ولو أن الرجال احترسوا خلال ذلك من التعبير عن عواطفهم وحماستهم بعاطفة من التصفيق. إن هذه الجلبة الغامرة في دور المسارح الايطالية لا أستطيع احتمالها. ولكن الموسيقى بالنسبة إلى هؤلاء الناس هي الروح والحياة والوطنية. لاشك أن في البلاد الأخرى موسيقيين يتمتعون بشهرة تساوي شهرة الموسيقيين الايطاليين الكبار، ولكن ليس فيها شعب موسيقي. إن الموسيقى تتمثل في ايطاليا لا بالافراد ولكن بالشعب كله التي تبدو فيه. الموسيقى هنا أصبحت شعباً، أما نحن ابناء الشمال فمن جنس آخر. الموسيقى يكتفي بأن تكون إنساناً، ويُسمى (موزارت). وعلاوة على ذلك إذا أمعنا النظر في روائع هذه العبقرية الشمالية وجدنا فيها شمس ايطاليا وعطر برتقالها، وهي تنتسب إلى ألمانيا أقل مما تنتسب إلى ايطاليا الجميلة وطن الموسيقى. نعم إن ايطاليا كانت دائمًا وطن الموسيقى حتى إذا كان موسيقيوها العظام سكنوا القصر أو أصبحوا صمــاً ، حتى لوحات (بيليني) وصمت (روسيني). قالت ماريا: ــ الواقع أن (روسيني) يلتزم صمتاً عنيداً. وها هي ذي ــ كما أظن ــ عشر سنوات تنقضي وهو صامت أخرس. وأجاب مكسيمليان: ــ لعل ذلك لمحة من لمحات ذكائه، لعله أراد أن يثبت أن لقب «تمّ بيسارو» الذي لُقب به لايليق به ولايناسبه. التم يغني حتى نهاية حياته ــ أما (روسيني) فقد كف عن الغناء في أوج مهمته، وأعتقد أنه أحسن فيما فعل، وأثبت بذلك أنه فعلاً عبقري. الفنان الذي لايملك موهبة يحتفظ بها حتى نهاية حياته بالاندفاع الذي يجعله يمارس هذه الموهبة. الطموح يخزه وخزاً ويشعر أنه يتقدم كل يوم. ويجهد نفسه للوصول إلى أوج الفن. أما العبقري، فعلى عكس ذلك. فهو، وقد أدرك مبكراً أعلى درجات الفن، راضٍ مطمئن، يحتقر العالم والطموح العامي، ويعود إلى بيته في (سترافورد على آفون) مثل وليم شكسبير، أو يتجول

متنزهاً ضاحكاً مازحاً في شوارع ايطاليا أو باريس مثل (حيواشيموروسيني). وعندما لاتكون بنية العبقري سيئة جداً يعيش على هذا الشكل أمداً طويلاً بعد أن يبدع روائعه أو ــ كما يقولون اليوم ــ بعد أن يكون قد ملأ رسالته. إنه لمن الأحكام السابقة أن نعتقد أن العبقري يجب أن يموت في سن مبكرة. أعتقد أنهم حسبوا المدى بين ثلاثين وخمسة وثلاثين عاماً، هو العهد الأوفق لكل عبقري.

طالما مزحت وآثرت في هذا الموضوع «بيليني» المسكين، وأنا أنبئه، بأنه بصفته عبقرياً يجب أن يموت سريعاً لأنه بلغ السن المعينة. والشيء الغريب أن هذه النبوءة رغم نغمته المرحة كانت تحمله على معاناة اضطراب غير إرادي، وكان يدعوني «عرافه» ولايكف عن رسم إشارة رد السحر... ما كان أكثر حرصه على الحياة. كلمة الموت تثير هذيانه المحموم، لايريد أن يسمع الحديث عن الموت... ويخاف كما يخاف الطفل النوم في الظلام... إنه حقاً طفل طيب محبوب... معجب قليلاً بنفسه ولكن يكفي أن تهدده بموته الغريب حتى يعود صوته متواضعاً متوسلاً، وأن تقوم أمامه، وأنت ترفع إصبعيك بإشارة رد السحر والتغريم... يا لبيليني المسكين! ــ إذن فأنت تعرفه شخصياً! هل هو حسن.. ــ ليس بشعاً. نحن الرجال لانستطيع أن نجيب في شكل إيجابي على مثل هذا السؤال عندما يتعلق بواحد من جنسنا. إنه رشيق القامة طويل، حركاته لطيفة وربما كانت مغرية، حسن الهندام دائماً، وجهه منتظم الملامح طويل ووردي، وشعره أشقر يكاد يكون ذهبياً، يتدلى في خصل خفيفة. جبهته نبيلة شامخة، وأنفه مستقيم، وعيناه شاحبتان زرقاوان، وفمه ذو نسب جيدة، وذقنه مدورة. ملامحه فيها شيء من الغموض لاصفة له، كأنها من الحليب، وهذا الوجه اللبني يتحول أحياناً إلى تعبير حاد، ناعم من الحزن. هذا الحزن يحل محل الذكاء على وجه (بيليني). ولكنه حزن لاعمق له، يترنح ضوؤه في عينيه دون شاعرية، ويرتجف دون عاطفة حول شفتيه. لعل الموسيقي الشاب يحاول أن يجمع في شخصيته هذا الألم الرجراج المتموج. وشعره يجدل في عاطفة جدّ حالمة، وثيابه تلتصق في وهن جدّ لدن حول جسده المشيق. ويحمل صولجانه الاسباني في شكل طريف يذكرني دائماً بأولئك الرعاة الذين رأيناهم يتظارفون في الكنائس والأديرة بعصيهم المعقدة وبسراويلهم الوردية. أما مشيته فهي مشية آنسة، مشية جدّ رشيقة، جدّ أثيرية. كل شخصيته لها شكل نفحة الخف. له نجاحات كثيرة عند النساء ولكني أشك أنه شعر بعاطفة كبيرة. في رأيي أن ظهوره فيه شيء من الإرضاء المزعج، يمكن أن نرجع سببه أولاً إلى لغته

الفرنسية الركيكة رغم أنه عاش في فرنسا سنوات عديدة، إنه يتحدث بالفرنسية في سوء يعدل ما يتكلمون بها في انكلترا، لايجوز أن أصف هذه اللغة إلا بأنها سيئة، رغم أن سيئة في هذا الموضع حسنة جداً، وينبغي أن أقول إنها مرعبة حتى يكاد الشعر يقف لها. عندما تكون في بهو واحد مع (بيليني) فإن جاره يشعر بشيء من القلق يختلط بشيء من الرعب الذي يبعده عنه ويمسكه به في اِن واحد. أما نكاته اللاأرادية فكانت غالباً ذات طبيعة مسلية وتذكّر بقصر مواطنه أمير (بالاغوني) الذي يصفه غوته في رحلته إلى ايطاليا ويشبهه بمتحف للتحف المنفرة والأشياء الشيطانية المكومة تكويماً دون فهم. وعندما يعتقد (بيليني) أنه في مثل هذه المناسبة أنه قال شيئاً بريئاً وجدياً يكون وجهه في وضع مناقض ومضحك لكل كلماته. إن ما يمكن أن يزعجني في ملامحه أنه ينبثق في كثير من القوة، ولكن ما يزعجني ليس تماماً ما يمكن أن يسمى خطأً أو عيباً ثم لا يمكن أن نشعر بهذا التأثير في درجة مساوية لما نجده في النساء. إن وجه (بيليني) مثل شخصه كله له تلك اللدونة الفيزيائية، له ذلك اللون الزهري، لون الوردة وكان ذلك يشعرني شعوراً مزعجاً أنا الذي أفضل لون الموت والمرمر. ولم يحدث، إلا بعد زمن طويل وعلاقات كثيرة، أن شعرت نحوه بميل حقيقي. وحدث ذلك بعد أن لاحظت أن طبعه طيب ونبيل حقاً. إن روحه لم ينلها دنس رغم ما في الحياة من صدامات وعلاقات ساقطة. إنه لم يكن محروماً من تلك الطيبة الساذجة الطفلية التي نحن على ثقة من لقائها عند ذوي العبقرية، والتي لاتبدو لأول قادم.

واستمر مكسيمليان، وهو يجلس على الكرسي الذي كان يعتمد على يده يقول: ــ أتذكر اللحظة التي بدا لي فيها (بيليني) في شكل جدّ محبوب، ونظرت إليه في شرور، ووعدت نفسي بالتعرف إليه معرفة حميمية. ولكن ذلك كان آخر لقاء به في هذه الحياة. كان ذلك ذات مساء بعد أن تناولنا الغداء معاً عند صديقنا المستشار (جوبير). كان مزاجنا طيباً والألحان العذبة تصدح على البيان... وكانت سيدة المنزل، الحورية الصغيرة الجميلة، تشع أكثر ما شعت ذكاء ومرحاً... ما أزال أرى (بيليني) الطيب منهكاً في تلك الكتلة من البيليينيات المسلية التي شرع فيها، جالساً على مقعد، وكان المقعد واطئاً جداً. أكثر انخفاضاً من مرقاة قصيرة حتى كأن (بيليني) يجلس عند أقدام امرأة ايطالية جميلة تتمدد على أريكة أمامه. كانت تحدق فيه في رقة خبيثة وهو يعمل على تسليتها ببضعة كلمات فرنسية، وهو عمل يجبره دائماً على أن يقرظ بلهجته السيسيلية ما كان يقوله لكي يثبت أنه لايقول

حماقات. وأنه على عكس ذلك يؤدي ثناء رقيقاً. وأعتقد أن الأميرة الجميلة لم تكن تصغي إلى تعليقات (بيليني)، أخذت من يديه صولجانه الاسباني الذي كان يستخدمه أحياناً في دعم فصاحته المتواضعة. واستخدمت الصولجان في تخريب اللمسة الرشيقة على عارضي الأستاذ الشاب. هذا الانشغال الخبيث هو الذي طبع على شفتي السيدة الجميلة ابتسامة لم أرَ لها مثيلاً في فم إنساني. هذا الوجه لم يغادر ذاكرتي. إنه وجه من هذه الوجوه التي يبدو أنها ملك لمملكة الأحلام الشعرية أكثر من حقائق الحياة الفظة. حنايا تذكرنا بليوناردو دوفانشي. هذا الوجه المستدير النبيل مع غمازات حلوة في الخدين، وذقن حادة عاطفي من مدرسة لومبارديا. أما اللون فهو على الأغلب لون العذوبة الرومانية، لمعة الجوهرة الخابية، صفرة متميزة. إنه وجه لايمكن أن نجده إلا في الصور الايطاليةالعتيقة التي تمثل إحدى تلك النساء العظيمات اللواتي كان الفنانون الايطاليون يهيمون بهن حباً في القرن السادس عشر عندما يبدعون روائعهم، واللواتي حلم بهن الأبطال الألمان والفرنسيون عندما كانوا يمتشقون السيوف ويجتازون جبال الألب... أوه، نعم إنه وجه تلك الأسرة التي تكمن فيها ابتسامة خبيثة جدّ رقيقة، وشيطانية من أرقى ذوق، عندما كانت السيدة الجميلة تخرب بصولجان أسبانيا لمسة (بيليني) الطيب الشقراء. في تلك البرهة بدا لي (بيليني) وكأنه أصيب بعصا سحرية. لقد طبعت ابتسامة مواطنته الجميلة على وجهه انعكاساً مثالياً. — في هذه اللحظة أصبح مخلوقاً محبوباً لطيفاً في نظري — وأحببته... واأسفاه مضى خمسة عشر يوماً وإذا أنا أقرأ في الصحف أن ايطاليا فقدت أحد أبنائها الأمجاد.

شيء غريب. لقد أعلنوا في الوقت نفسه موت (باغانيني)، لم أشك لحظة في هذا الموت. لأن لون العجوز (باغانيني) الشاحب كان دائمًا لون محتضر. ولكن موت (بيليني) الشاب الغض بدا لي أمراً لايصدق. ومع ذلك فإن نبأ موت الأول كان خطأً صحفياً. لقد وجدوا (باغانيني) سالماً معافى في(جنوى) أما (بيليني) فكان يرقد في قبره في (باريس). سألته ماريا: — هل تحب (باغانيني). قال مكسيمبليان: هذا الرجل زينة وطنه، ويستحق دون شك أكبر تنويه به. عندما نريد أن نتحدث عن أعيان الموسيقيين في ايطاليا. واستأنفت ماريا. — لم أره قط، ولكن مظهره الخارجي، حسب شهرته، لايرضي تماماً الشعور بالجمال. لقد رأيت صوره... قاطعها مكسيميليان قائلاً: وهي صور لاتشبهه واحدة منها. إما صوّروه فيها بشعاً أو جميلاً دون أن يوفقوا إلى تصوير سجيته الحقيقية. أعتقد أن رجلاً واحداً نجح في

تصوير هيئة (باغانيني) على الورق، تصويراً يجعلك تضحكين وتخافين في آن واحد: قال لي الرسام المسكين الأصم وهو يكشر ويحرك رأسه في طيبة ساخرة. كما هي عادته عندما يعلق على لوحاته: الشيطان هو الذي قاد يدي» هذا الرسام كان دائماً أصيلاً شاذاً. ورغم صممه فقد كان من أنصار الموسيقى ويظهر أنه يفهمها عندما يكون قريباً من الجوقة. ليقرأ على وجوه الموسيقيين ويحكم على حسب حركة أيديهم تفوقهم في الأداء قليلاً أو كثيراً. وهو يقوم بنقد الأوبرات في جريدة محترمة من جرائد(هامبورغ) وماذا في ذلك من عجب. الرسام الأصم يمكن أن يرى الأصوات في شكل العزف المنظور. هناك كثير من الناس ليست الأنغام نفسها عندهم إلا أشكالاً غير منظورة، يسمعون فيها الوجوه والألوان. قالت ماريا: — وأنت واحد من هؤلاء الناس. — آسف أني لا أمتلك صورة (ليزير) الصغيرة التي يمكن أن تعطيك فكرة عن مظهر (باغانيني) الخارجي. ملامح سوداء مخططة في عناد يمكن وحدها أن تمسك بهيئته الأسطورية التي يمكن أن تعود أفضل ما تعود إلى مملكة الظلال الكبريتية أكثر مما تعود إلى عالم الأحياء المضيء. ردد الرسام الأصم أمام جناح (ألستر) في (هامبورغ) قوله: «الشيطان هو الذي قاد يدي» وذلك في اليوم نفسه الذي قدم فيه (باغانيني) حفلته الموسيقية الأولى، وأضاف: «نعم يا صديقي إن العالم يدعم أمراً صحيحاً حين يقول إن (باغانيني) قد وهب نفسه جسداً وروحاً للشيطان لكي يغدو أحسن عازف على الكمان في أوروبا، ولكي يكسب الملايين بطرف قوسه. وأخيراً لكي يتحرر من السجون التي أصابه الوهن فيها خلال عدد كبير من السنين. ألا ترى يا صديقي أنه عندما كان سيد قلعة لوك، أصبح عاشقاً لأميرة في المسرح، وأخذته الغيرة من أحد الرهبان السود، وربما كان مخدوعاً، فطعن بالخنجر، كإيطالي صالح، حبيبته الخائنة، فأرسل إلى سجون (جنوى) وانتهى إلى أن يهب نفسه — كما قلت لك — للشيطان ليصبح طليقاً أولاً ثم أحسن عازف كمان في أوروبا، وأخيراً لكي يستطيع أن يفرض على كل واحد منا هذا المساء اشتراكاً قدره تاليران. ولكن انظر كل العقول الطيبة تحمد الله. انظر إليه ها هو ذا يمضي هناك في الممر مع نظيره (فامولوس). الواقع أنه كان (باغانيني) شخصياً، عرفته فوراً. كان يلبس معطفاً رمادياً غامقاً يسقط حتى عقبيه، وذلك ما أظهر قامته الطويلة، وكان شعره الطويل ينسدل على كتفيه في جدائل كثيفة، ويشكل إطاراً أسود حول وجهه الشاحب الذي يشبه وجه الجثة والذي يطبع عليه الحزن والعبقرية والجحيم شعارها الذي لايمحي. وحوله ينط وجه صغير سليم نثري في شكل واضح، وجه وردي مجعد وثوب رمادي فاتح له أزرار من فولاذ، يرسل

تحياته في كل صوب في لطف غير ثابت، وكأنه يلقي أحياناً نظرات مريبة قلقة على ذلك الوجه القاتم الذي يسير صاحبه إلى جانبه في هيئة جدية ومفكرة. يخيل إليك أنه يرى المنحوتة التي مثل فيها (ريتش) صورة (فاوست) يتنزه مع (فاجنر) أمام أبواب (ليبزيغ). الرسام الأصم علّق بأسلوبه تعليقاً مضحكاً على هاتين الشخصيتين، وجلب انتباهي على الخصوص إلى طريقة مشية (باغانيني) المتصنعة المديدة.

قال: ـ «ألا يبدو وكأنه ما يزال يحمل القيود في ساقيه. لقد اعتاد دائمًا هذه المشية. وانظر كذلك إلى الطريقة المحتقرة التي ينظر فيها إلى رفيقه عندما يضايقه هذا بقوقاته النثرية. ومع ذلك فهو لايستطيع الاستغناء عنه. عقد دموي يربطه بهذا الخادم الذي هو الشيطان. الشعب الجاهل يعتقد أن هذا المرافق هو السيد «جورج هاريس» كاتب المسرحيات الهزلية والنكات في (هانوفر)، الذي جاء به (باغانيني) ليشاركه في رحلاته ويهتم بالناحية المالية في حفلاته الموسيقية. الشعب لايعرف أن الشيطان لم يأخذ من السيد (جورج هاريس) إلا وجهه، وأن روح هذا الانسان المسكين تبقى خلال ذلك سجينة مع المباذل الأخرى في خزانة بيته في (هانوفر) حتى يعيد له الشيطان غلافه الجسماني وقد قرر أن يرافق معلمه (باغانيني) في طوافه في العالم تحت صورة أكثر ملاءمة، مثلاً في صورة كلب أسود.»

وإذا كان (باغانيني) بدا لي في ضوح النهار وتحت الأشجار الخضراء في حديقة (هامبورغ) في شكل خرافي أسطوري مقبول فما أكثر ما فاجأني في الليل، في الحفلة، بشكله السخيف المشؤوم. كانت قاعة مسرح (هامبورغ) الهزلي هي مسرح هذا الحفل، واجتمع الناس في ساعة مبكرة وفي عدد غفير حتى إني لم أستطع، إلا بعد عناء كبير، أن أحجز لي مكاناً صغيراً عند الجوقة. وفي مرصدي رأيت في الصفوف الأولى عالم التجارة، أولومبـاً كاملاً من رجال المصارف وأصحاب الملايين، أرباب القهوة والسكر مع رباتهن الشرعيات السمينات، بنات شارع فرانترام وفينوس في ممر دريكفال. كان صمت ديني يسود القاعة كلها، والعيون متجهة نحو المسرح، والآذان مستعدة للاستماع. وكان جاري، وهو يعمل في الفراء قد سحب من أذنيه الصمامات القطنية العتيقة لكي يصغي جيداً إلى الأنغام الغالية التي كلفته قطعتي (تالير) رسم دخول. وأخيراً تقدم إلى المسرح وجه قاتم وكأنه جاء من عالم الظلمات. إنه (باغانيني) في لباسه الأسود: معطف أسود وثوب أسود في تقاطيع مخيفة كما تقتضي الأعراف المكتوبة في بلاط (بروسيربين)، وسروال

أسود يخفق حول ساقيه الرخوتيـــن. وبدا ساعداه الطويلان وقد زادها الكمان، الذي يمسكه باحدى يديه، طولا، ويمسك باليد الأخرى قوس الكمان التي كادت أن تلمس الأرض عندما شرع يقدم تحياته المملة للجمهور. وبدت في الأعضاء البارزة من جسده ليونة فتاة من فتيات الاستعراض كريهة، وبدا في الوقت نفسه كذلك نوع من التبعية الحيوانية أثار فينا الرغبة في الضحك، ولكن وجهه، الذي أضفت أنوار الجوقة عليه صفرة مثل صفرة الجثث، كان فيه نوع من جدّ مستعطف، جدّ متواضع، جدّ مثير للشفقة خنق في نفوسنا كل رغبة في الضحك. أتراه تعلم هذه التحيات من إنسان آلي أو من كلب؟ وتلك النظرة المتسعطفة كانت نظرة مخلوق ضربوه حتى الموت أو لعلها كانت قناعاً يخفي وراءه سخرية بخيل. أتراه إنساناً حياً يوشك أن ينطفىء، والذي يستعد في نطاق الفن، مثل واحد من المصارعين الذين حكم عليهم بالموت، ليذهل الجمهور برعشاته الأخيرة؟ أم تراه ميتاً خرج من قبره كماناً ـ ثعباناً امتص دم قلبنا أو على أقل تقدير ما في جيوبنا من مال؟

كل هذه الاسئلة ازدحمت في رؤوسنا عندما كان (باغانيني) منصرفاً إلى تقديم ظرفه وتهذيبه عبر تحياته التي لاتنتهي، ولكن كل هذه الأفكار خرست عندما وضع هذا الموسيقي البارع العجيب كمانه تحت ذقنه وشرع يعزف. أما ما يؤثـر في نفسي، فأنتِ تعرفين نظرتي الثاقبة الموسيقية، وملكتي في اكتناه الوجه الملازم في كل نغمة أسمعها. حدث إذن أن (باغانيني) جعل يمرر أمام عيني في كل ضربة من ضربات قوسه وجوهاً واضحة ومواقف، وقصّ علي في صور رنـانة كـل أنواع القصص الغريبة، كان هو بموسيقاه يقوم بأهم أدوار شخصياتها. تحولت مقاصير المسرح، وكأنها مسخت مسخاً، منذ الضربة الأولى بقوسه، وبدا لي مع درجـــة عزفه مضيئة مزخرفة في فوضى محبوبة وفي أثاث قديم له ذوق (بومبادور). في كل مكان ألواح بلور، في كل مكان ألوان من الحب. وخزف صيني، وفوضى حلوة من الوشاحات، وأصص الأزهار والقفازات البيض والشقر الممزقة، والجواهر المزيفة، والأكاليل المموهة وغير ذلك من الزخارف الخالدة التي نجدها عادة في غرفة مكتب السيدة الأولى. مظهر (باغانيني) الخارجي أصابه المسخ أيضاً وفي شكل عجيب مدهش. كان يلبس سروالاً من الحرير الليلكي، وسترة بيضاء ذات أهداب، وثوباً من المخمل الأزرق الزاهي له أزرار من الفضة المزخرفة، وشعره مقسم في جدائل صغيرة تتلاعب حول وجهه الذي يلمع بالشباب والنضارة، وفي لطف عذب عندما يرمق السيدة الحلوة التي تقف إلى جانب درجه.

الواقع أني رأيت قربه مخلوقة، صبية جميلة تلبس لباساً على الطراز القديم، وتنورة منتفخة من الحرير، لها قامة ناعمة مثيرة، وشعر مجدول على شكل جبل يلمع تحته في شكل حر وجه جميل مستدير له عينان تبرقان وخدان صغيران مخضبان، وشعر ذو جدائل صغيرة وأنف صغير سفيه. تمسك بيدها درجاً من الورق الأبيض، وأستطيع أن أخمن من حركة شفتيها واهتزاز صدرها المغري أنها كانت تغني. ولكني لم أسمع من أغانيها شيئاً ولم أستطع أن أخمن إلاّ بعزف (باغانيني) الذي كان يرافقها بكمانه، ما كانت تغنيه وما كان يشعر به هو نفسه في أعماق قلبه وهو يسمعها تغني. أوه، إنها أغان مثل غناء العندليب في ظلال المساء عندما يهيج عطر الوردة قلبه برغبات الربيع. إنه طمأنينة الوهن وارتعاشات اللذة. إنها أنغام الحب التي تدغدغ وتفر في حرد مثير ثم تتواصل وتندفع وأخيراً تموت في وحدة مثيرة. نعم إن كل هذه الأنغام تستسلم في ألوان من العبث رائعة كأنها فراشات يلحق بعضها بعضاً ويجتنب بعضها بعضاً، وتختبىء وراء زهرة، ثم تجد أصحابها، ثم تتسلسل في سعادة هوائية وتضيع في نور السماء. ولكن هناك عنكبوتاً، عنكبوتاً كريهاً يترصدها ويُعدّ فجأة قدراً مأساوياً لهذه الفراشات العاشقات. إن القلب الفتي له مثل هذه المشاعر السابقة! أنشودة موجعة مثيرة كأنها إحساس سابق بمصيبة قريبة كانت تنزلق في رفق بين الأغاني التي تنبثق من كمان (باغانيني)... اغرورقت عيناه بالدموع... ولكنه وياللأسف عندما انحنى ليقبل قدميها أبصر تحت السرير Abbate صغيراً. لا أعرف ماذا يضمره ضد هذا الرجل المسكين، ولكن الجنوي أصبح شاحباً كأنه الموت، وأمسك المسكين بيدين يشنجها الغضب، وصفعه صفعات وركله برجليه ركلات وألقى به إلى الباب ثم أخرج من جيبه خنجراً طويلاً وأغمده في صدر الصبية الجميلة... ولكن القاعة دوت في تلك اللحظة بالتصفيق والاستحسان. إن شعب (هامبورغ) من ذكور وإناث يدفع ضريبة صاخبة من الحماسة للفنان الكبير الذي أنهى القسم الأول من معزوفته وانحنى في زيادة من الزوايا والانحناءات، وخيل إلّي أني أرى على وجهه تعبيراً من الخجل أكثر استعطافاً من قبل. كانت عيناه ثابتتين تحملان قلق مجرم.

صرخ جاري، الخبير بالفراء وهو يحك أذنيه: ـ يا رب. هذه المعزوفة وحدها تستحق التاليرين اللذين دفعتهما. ـ عندما بدأ (باغانيني) يعزف مرة ثانية أصبح كل شيء أكثر قتاماً في عيني، وتلفع وجه الموسيقي بظلال أكثر كثافة وكانت موسيقاه تخرج من بين هذه الظلمات في أنغام أكثر ألماً وأشد تمزيقاً للقلب. كان ‹دراً وعندما يضيء مصباح معلق فوق رأسه بنور شاحب هزيل أن أرى وجهه

الأصفر الذي لم ينطفىء مع ذلك فيه سحر الشباب، وبزته تنشطر في شكل مضحك إلى لونين أصفر وأحمر. وتثقل قدميه أغلال ثقيلة. ووراءه يتحرك وجه توحي ملامحه بطبيعة خنزير شهوانية، ويدت لي يداه الطويلتان ذواتا الشعر وكأنهما مساعدان يتمددان على ساعد كمان (باغانيني)، بل لعلهما يقودان أحياناً يده، وكانت الهتافات تساهم بما فيها من استحسان وضحك ترافق الأنغام التي تنساب من الكمان وهي أنغام تزداد شكوى ونزيف دم. إنها أنغام تشبه أغنية ملائكة أصيبوا بالخيبة بعد أن أحبوا فتيات من الأرض فطردوا من مملكة السعداء وأهبطوا في الهاوية، وحمرة العار تخضب جباههم. إنها أنغام لايلمع في أعماقها المظلمة أثر من آثار السلوى أو الأمل. عندما يسمع القديسون في السماء مثل هذه الأنغام يموت تسبيح الله على شفاههم الشاحبة ويضعون أيديهم وهم يبكون على وجوههم الكئيبة. أحياناً عندما تختلط ضحكة الخنزير المغتصبة بهذه العذابات الملحنة كنت أرى في عمق المسرح مجموعة من النساء الصغيرات يرجحن في فرح قاسٍ وجوههن البشعة ويعبرن عن خبثهن بفرك أصابعهن المتصالبة، وعندئذ تخرج من الكمان اهتزازات وارتعاشات من القلق مع تنهدات ممزقة وانتحابات قلّ أن سمعها الناس على ظهر الأرض، إلا ما يمكن أن يحدث في وادي Josaphat عندما ينفخ في الصور يوم الحساب وتخرج الجثث من قبورها وتنتظر حظوظها... ولكن الموسيقي سحب فجأة سحبة كبيرة بقوسه، ضربة من الهذيان واليأس حتى إن أغلاله تكسرت في ضجـة كبيرة واختفى مساعده الجهنمي، كما اختفت الساحرات الضاحكات.

في هذه اللحظة صرخ جاري خبير الفراء: يا للخسارة. لقد تكسرت أوتاره. لعل ذلك من عزفه المستمر. هل تكسر أحد الأوتار فعلاً في الكمان؟ لست أدري. كنت بكليتي مشغولاً بتقلبات الأنغام وبدا لي (باغانيني) مرة أخرى متبدلاً تماماً مع كل ما حواليه. كدت لا أعرفه إلّا في صعوبة في جبته الراهبية القاتمة التي تكسوه أقل مما تخفيه. رأسه يضيع نصفه في البرنس، خاصرته مطوقة بحبـل، قدمـاه عاريتان، وجهه المتفرد المتكبر يقف على نتوء صخري، على شاطىء البحر، وهو يعزف على الكمان. وكان ذلك، على ما خيل لي، ساعة الغروب. أشعة المساء القرمزية تنتشر على أمواج البحر البعيدة فتتلون بألوان تزداد حمرة، وتتدحرج في تمتمة تزداد فخامة، وهذه التمتمة تنسجم مع نغمات الكمان. وكلما زاد زئير البحر زادت السماء حمرة، وعندما بلغت الأمواج الصاخبة لون الدم الأرجواني أصبحت السماء شاحبة شحبة الجثث، بيضاء بياض الأشباح، وجعلت النجوم تثقبها متطورة تطوراً فيه وعيد وتهديد... وهذه النجوم سوداء وسوادها يلمع كأنه الفحم في

الأرض. وخلال ذلك أصبحت نغمات الكمان أكثر جرأة وأمـراً، ولمعت عينا العازف بظمأ ساخر من الخراب والدمار، وجعلت شفتاه الرقيقتان تختلجان في حيوية مرعبة كأنما يدمدم الصيغـة السحريـة القديمـة التي كانت تصلح لإثـارة العواصف وإطلاق سراح الأرواح الشريرة والعفاريت المكبلين بالأغلال في أعماق البحر. وعندما كـان يخرج ساعده العاري هذا الساعد الطويل الأعجف، من كم جبته الواسع كان يضرب الهواء بسوط قوسه، فيغدو ساحراً حقيقياً يأمر العناصر بعصاه. فتسمع زئيراً مجنوناً يرن في الفراغ والعدم، وترى الأمواج الدامية تقفز إلى علوٍ شاهق حتى يصل زبدها الأحمر إلى السماء الممتقعة اللون والنجوم السوداء. وتسمع زئيراً أو صفيراً وانهياراً كأن العالم يكاد ينهار والراهب يعزف على كمانه في عناد يزداد صرامة. إنه يريد بقوة إرادته المسعورة أن يكسر الأقفال السبعة التي وضعها سليمان على جرار الحديد التي سجن فيها العفاريت المنهزمين. لقد أغرق الملك الحكيم هذه الجرار في الحبر. عندما كان (باغانيني) يعـزف تصورت أني أستمع إلى أصوات هذه الأرواح السجينة تختلط بصوت الكمان وتكون قاعدتها الغاضبة، وخُيّل إليّ أني أميز أخيراً نشوة الخـلاص، ورأيت رؤوس العفاريت المحررين تخرج من الأمواج الدامية. وكلهم عفاريت بشعون بشاعة أسطورية: تماسيح لها أجنحة وطاويط، وثعابين لها حوافر أيائل، وقرود تغلفها أصـداف، وفقمات لها دقون بطريركية طويلة، ووجوه نساء لها ثدي مكان الخدود، ورؤوس جمال خضراء، ومخلوقات بحرية ذات أشكال تستعصي على الفهم، وكلهم يحدقون بنظرات ذكية ذكاء ثلجياً ويمدون إلى الراهب الموسيقي زعانف طويلة معقوفة... وهذا العازف، في نشوته المجنونة العارمة بالـوحي والإلهام تسقط عنـه جبته وبـرنسه ويرفرف شعره في الريح ويلف رأسه بأفاعٍ سوداء.

هذا التجلي هز مشاعري هزاً عنيفاً، حتى إني سددت أذني وأغمضت عيني كيلا أفقد عقلي. وفجأة اختفت كل الأشباح، وعندما فتحت عيني وجدت الجنوي المسكين في حالته العادية يقوم بأداء تحياته المألوفة والجمهور يصفق له تصفيقاً عنيفاً.

قال لي جاري: هذا الدور المشهور القوي على وتر (الصول). أنا أعزف على الكمان وأفهم ما فيه من عجيب عنـدما تسيـطر مثل هـذه السيطرة عـلى الآلة... ولحسن الحظ كانت الاستراحة قصيـرة وإلا فإن الخبـير بالفـراء كان سيخنقني ولاشك بملاحظاته التقنية. أعاد (باغانيني) الكمان تحت ذقنه ومع ضربة

القوس الأولى عادت التلاعبات العجيبة في الأنغام، ولكن الألوان كانت أقل قسوة والأشكال أكثر ترجحاً. سالت الأنغام في هدوء وجلال كانت تتموج وتفيض كما لو كانت نغمات أرغن تحت قبة كاتدرائية. كل شيء كان يتمدد حولها في نسب واسعة لاتستطيع إلا عيون الفكر الإحاطة بها. وفي وسط هذا المكان الواسع ترفرف كرة من نور يرقاها إنسان ذو قامة هائلة في مداها الأعلى يعزف على الكمان. أما الكرة فهل كانت هي الشمس؟ لا أعرف ولكني في ملامح الرجل رأيت (باغانيني) وقد اكتسى بجمال مثالي، يشع مجداً ويبتسم في فرح من الوجد والغفران. وتألق جسده في قوة خارقة، ولفع ثوب أزرق أعضاءه النبيلة: وحول كتفيه رفرفت جدائل شعره الأسود اللامعة. كان واقفاً في ثبات واطمئنان كأنه صورة رفيعة للخلود والألوهية يعزف على الكمان، وخيل إلّي أن كل ألوان الإبداع والخلق تخضع لمعزوفاته. إن الإنسان الكوكبي الذي يدور حوله الوجود في نسق رائع وايقاعات سماوية. أتكون هذه الأضواء الجميلة الهادئة التي تطوف حوله نجوماً من السماء، وهل هذا الانسجام المنغمّ الذي يشع في حركاتها أغنية الأفلاك التي تحدث عنها الشعراء والمتنبئون في رؤاهم؟ كنت أحياناً عندما تجهد عيناي في التغلغل بعيداً في الفضاء ذي البخار أعتقد أن هنالك معاطف بيضاء تتقدم مني، وأن تحت هذه المعاطف يمشي حجاج من العمالقة يحملون بأيديهم عصياً بيضاء. يا له من أمر عجيب! مقابض هذه العصي من ذهب والأغنية التي ترن في أفواههم، والتي خلتها أغنية الأفلاك، لم تكن إلا صدى الكمان المستمر. هنالك حمية مقدسة لاتوصف تبعث الحياة في هذه الأوتار التي تهتز أحياناً فلا تكاد تحس، كأنها تمتمة غريبة على المياه، ثم تشتعل وتنتفخ كأنها صرخة الصنور تحت ضوء القمر ثم تفيض في خفة مطلقة القيود كأن ألوفاً من الفرسان أمسكوا بأبواقهم وجمعوا أصواتهم ينشدون أغنية النصر. إنها موسيقى كأن أذناً ما لم تسمع مثلها قط، موسيقى لايحلم بها إلا القلب وحده عندما يستريح ذات ليلة على صدر حبيبته، بل ربما فهمها القلب في عزّ النهار عندما يضيع في نشوة في الخطوط الصافية والتكورات النبيلة لتمثال من روائع الفن اليوناني...

وقال فجأة صوت ضاحك انتزع صاحبنا القصاص من ذكرياته الحماسية، وكأنه قادم من عالم الأحلام. ــ أه كأنك شربت زجاجة شمبانيا.. والتفت مكسيمليان حوله فوجد الدكتور في صحبة (ديبورا) السوداء يدخل في هدوء إلى الغرفة ليعرف ما إذا كان دواؤه قد بدأ تأثيره في المريضة. قال الدكتور: ــ هذا

النوم لايعجبني. وأشار إلى الأريكة. أما مكسيمبليان، الذي كان ضائعاً في نشوته بسرد قصته، فلم يلاحظ أن ماريا نامت منذ مدة طويلة، فجعل يقضم شفتيه مقهوراً. وتابع الدكتور: ـ هذا النوم يعطي وجهها ملامح الموت. أليس لها شكل هذه الأقنعة البيض، هذه القوالب الجصية التي نحاول بها حفظ سيمياء الناس الموتى؟ وقال له مكسيمليان في صوت خافت: ـ أريد حقاً أن أحتفظ بمثل هذا القناع لوجه صديقتنا، فستكون بذلك أكثر جمالاً حتى بعد الموت. وأجاب الدكتور: ـ لا أنصحك بذلك. هذه الأقنعة تفسد علينا ذكرى من كان عزيزاً علينا. نحن نظن أننا نرى في هذا الجص شيئاً من حياته، وليس الذي نحتفظ به في ثناياه إلا الموت. إن الملامح الجميلة تأخذ في الجص عادة شيئاً من القسوة والسخرية والفظاظة يفزعنا. هذه القوالب ليست إلا مسوخاً حقيقية للوجوه التي يكمن سرها على الخصوص في طبيعتها الفكرية.. والتي تكون ملامحها مثيرة للاهتمام أكثر مما هي منتظمة. لأنها فور ما تنطفىء فيها نعم الحياة فإن الانحرافات الحقيقية في خطوط الجمال المثالي لايحل محلها تعويض فكري. ثم إن كل هذه الوجوه الجصية فيها شيء لا أدري كنهه من الغموض والسرية، حتى إنها بعد تأملها طويلاً تجمّد الروح تجميداً لايغتفر. إنها كلها لها شكل أناس مقدمين على رحلة متعبة. قال مكسيمبليان: ـ وإلى أين نمضي؟ ولكن الدكتور أخذ بذراعه وأخرجه من الغرفة.

(٢)

ـ ولماذا تعذبني بهذا الدواء الكريه ما دمت سأموت؟ هكذا تكلمت ماريا عندما دخل مكسيمبليان إلى غرفتها. كان أمامها الطبيب الذي يمسك بيده قارورة ويمسك بالأخرى كأساً صغيرة فيها شراب رمادي مزبد ذو مظهر كريه. وصرخ الطبيب بالقادم: ـ يا صديقي العزيز. حضورك الآن يسرني جداً. اسأل السنيورة أن تشرب بضع نقاط.. أنا مستعجل. وتمتم مكسيمبليان: أرجوك يا ماريا. كان صوته رقيقاً كأنما يخرج من قلب كسير حتى إن المريضة ذهلت ونسيت مرضها ووجعها وتناولت الكأس. وقبل أن ترفعه إلى شفتيها قالت له مبتسمة: ـ لكي تكافئني ستقص علي حكاية (لورنس) أليس كذلك؟ ـ سنيورة سأفعل ما تريدين. وشربت المريضة الشاحبة ما في الكأس، نصف مبتسمة ونصف مرتجفة. قال الطبيب وهو يلبس قفازيه الأسودين: ـ أنا مستعجل. سنيورة عودي إلى النوم في هدوء، ولاتتحركي إلا أقل ما يمكن، وترك الغرفة ترافقه (ديبورا) السوداء وتضيء

طريقه. عندما أصبح الصديقان وحيدين نظر كل منهما إلى صاحبه طويلاً في صمت. في روحيهما تتحدث أفكار يريد كل منهما أن يخفيها عن الآخر. ولكن المرأة أمسكت فجأة بيد الرجل وغطتها بقبلات محرقة. قال مكسيمليان: أسألك بالله ألا تتحركي هكذا. نامي في هدوء على الأريكة وعندما أطاعته ماريا غطى رجليها بالشال الذي لمسه من قبل بشفتيه، ولقد لاحظته دون شك، لأن عينيها كانتا تطرفان كما يفعل الطفل السعيد وسألته: ـ أكانت الآنسة (لورنس) جميلة جداً. ـ إذا لم ترغبي في مقاطعتي، يا صديقتي العزيزة ووعدتني بالاستماع إلى في هدوء وصمت حدثتك في تفصيل عن كل ما تريدين معرفته. وابتسم مكسيمبليان ابتسامة صديقة عندما رأى موافقة ماريا وجلس على الكرسي أمام الأريكة وشرع في سرد قصته على الشكل الآتي:

ـ لقد مرّ على سفري إلى انكلترا تسع سنين، لكي أدرس اللغة والشعب. لتخلط السماء الانكليز ولغتهم. إنهم يحشون في أفواههم اثني عشر مقطعاً أحادياً ويمضغونها ويكسرونها ويبصقونها في الوجه ويسمون ذلك لغة. لحسن الحظ أنهم قليلو الكلام بطبيعتهم، وإذا كانوا ينظرون إليك دائماً وأفواههم مفتوحة فهم على أقل تقدير يرحمونك فلا يرشقونك بأحاديث طويلة. ولكن الويل لنا لو وقعنا في يد ابن (آلبيون) الذي قام بجولة طويلة وتعلم في القارة الحديث باللغة الفرنسية. إنه يريد أن يغتنم المناسبة في ممارسته علومه اللغوية فيصب علينا أسئلة في كل الموضوعات فلا تكاد تجيب على سؤال حتى يدهمك سؤال ثانٍ عن سنك ووطنك ومدى إقامتك، وهو يعتقد أنه يسرنا جداً بهذا الاستجواب. قال أحد أصدقائي من باريس؛ وربما كان على صواب، إن الإنكليز يتعلمون حديثهم بالفرنسية من مكاتب جوازات السفر. وخير أحاديثهم ما يجري على المائدة وهم يقطعون شرائح (الروستو) الضخمة ويسألونك ماذا تفضل منها: داخلها الأحمر أو ظاهرها الأشقر. ما هو أكثر أو أقل طبخاً، ما هو سمين أو نحيل. إن الروستو وشواء الخروف هما خير ما يملكون. لتحفظ السماء كل مسيحي من حسائهم الذي يتكون ثلثه من الطحين وثلثاه من الزبدة، أو إذا تنوع، كان ثلثه من الزبدة وثلاثاه من الطحين. وليحفظ الله كل إنسان من خضارهم الساذجة التي يقدمونها مسلوقة في الماء كما خلقتها الطبيعة. وأكثر من مطبخ الانكليز كراهية شرب أنخابهم وخطاباتهم الإجبارية عندما يُرفع غطاء المائدة وتنسحب النساء ويحملون بدلاً منها عدداً متساوياً من قناني (البورتو) التي يظنون أنها خير ما يقوم مقام الجنس اللطيف. وأقول

الجنس اللطيف لأن النساء الانكليزيات جديرات بهذا اللقب، إنهن جميلات بيضاوات رشيقات. وشيء واحد مؤسف هو أن المدى بين الأنف والفم بعيد جداً، وهو عندهن موفور أكثر من الرجال وهذا ما يفسد في عيني أجمل الوجوه. هذا النقص في الجمال يسبب لي شعوراً بالانزعاج عندما أصادف الانكليز هنا في ايطاليا وتناقض نسب أنوفهم المسكينة وجوه الايطاليين القدماء الذين تنحني أنوفهم على النمط الروماني، أو تكون حادة على النمط الأغريقي، وتكون ذات نسب جد متطورة. لقد لاحظ مراقب ألماني في كثير من الصواب أن الانكليز الذين يتنزهون في أوساط الايطاليين لهم جميعاً ملامح التماثيل التي كُسرت أطراف أنوفها.

نعم إنك حين تلاقي الانكليز في البلاد الاجنبية تبدو لك نواقصهم أكثر تناقضاً. إنهم آلهة السأم الذين ينقلون البريد في كل البلاد في عجلات لامعة، ويخلفون وراءهم غبار الحزن القاتم. أضف إلى ذلك فضولهم الذي لاينفع، وثقلهم الواضح، وطيشهم الوقح، وأنانيتهم المزعجة، وهواهم البارد لكل الموضوعات الكريهة. منذ أكثر من ثلاثة أسابيع رأينا هنا في ساحة (كران دوكا) انكليزياً ظل طوال اليوم، فاغر الفم يتأمل هذا المشعوذ الخيال الذي يقتلع أسنان الفلاحين. هذا المنظر ربما كان يعوض النبيل ابن (آلبيون) عن الإعدامات التي أضاعها هذه الساعة في وطنه العزيز، لأنه لا مشهد أغلى بعد معارك المصارعين والديكة على الانكليز من مشهد احتضار شيطان مسكين سرق خروفاً أو قلد خطاً وهو معروض، والحبل في عنقه خلال ساعة أما واجهة (أولد بيلي) قبل أن يقذفوه إلى الخلود. ولست أبالغ حين أقول إن سرقة خروف أو التزييف، في هذه البلاد الفظيعة القاسية يعاقبان مثل الزنا بالمحارم أو قتل الأبوين. أنا نفسي عندما قادتني مصادفة حزينة إلى لندن رأيت إنساناً يشنق لأنه سرق خروفاً، ومنذ ذلك فقدت الشهية إلى كل خروف مشوي. وقرب هذا المشنوق رأيت أيرلندياً يشنق لأنه زيف توقيع مصرفي غني. ورأيت كذلك رعب المسكين (بادي) الساذج الذي كان خلال المحاكمات لايستطيع أن يفهم كيف يعاقبونه هذا العقاب القاسي لأنه قلد أحد التواقيع، وهو الذي يسمح لأول عابر أن يقلد توقيعه. ثم إن هذا الشعب لايكف عن الحديث عن المسيحية ولاينقطع عن حضور الاعترافات أيام الآحاد ويغرق الوجود بنسخ الأناجيل.

أعترف لك يا ماريا، أني إذا لم أستطع في انكلترا تذوق المطبخ والناس فذلك يعود قليلاً إلى خطئي. لقد حملت من بلدي ذخيرة من الطبع السيء،

وبحثت عن التسلية في شعب لايعرف هو نفسه قتل سأمه إلّا في زوبعة نشاطه السياسي والتجاري. التحسن والتقدم في الآلات التي تستعمل في كل مكان من هذا البلد لمساعدة الانسان في إتمام أعماله كانا يوحيـان إلّي بشيء من الكمد والتشاؤم معاً. هذه الحياة الاصـطناعيـة للدواليب والدوافـع والمسننات وألـوف الخطاطيف والرافعات والأسنان الصغيرة التي تتحرك في شيء يشبه الهيجان تفعمني رهبة. الدقة والصحة والقياس والسداد في حياة الانكليز ليست أقل تعذيباً لي. ذلك لأن الآلات في انكلترا تقوم بعمل الناس، فالناس يبدون فيها كالآلات. نعم إن الخشب والفولاذ والنحاس يبدو أنها استهلكت فكر الإنسـان حتى أصبحت مجنونة بهذه الدفعة من العقل، بينما أصبح الإنسان، وقد جردته من حياته العقلية يشبه شبحاً فارغاً، يتم مهمته العادية وكأنه آلة. في الدقيقة المعينة يأكل قطعته من (البفتيك)، ويلقي خطبته في البرلمان، ويقلم أظافره ويركب العجلة، أو يذهب كذلك لكي يشنق نفسه. تستطيع أن تتصور دون عناء كيف تصاعد سأمي في هذا البلد. ولكن كل ذلك لايبلغ ما حدث لي عندما أصبت ذات مساء بمزاج أسود على جسر واترلو، وكنت أحدق بنظراتي في نهر (التايمز)، خيل إلّي أني أرى فيه روحي وهي تفكر وتكشف لي في أعماق هذه المرآة كل ما أعانيه من جراح، ثم جعلت أتذكر كل الحكايا المرهقة. فكرت في الوردة التي كانت تُسقى بالخل كل يوم حتى فقدت أحلى عطورها وذبلت قبل الأوان. . . . فكرت في الفراشة الشاردة التي رآها عالم طبيعـة يقطع (الجبـل الأبيض) وهي ترفـرف وحيدة بـين أسوار الجليد. . . فكرت في القردة الأليفة التي كانت شديدة الاستئناس بالناس، تلاعبهم في مرح، ولكنها اكتشفت ذات يوم في الشواء الذي حملوه في صحن ليضعوه على المائدة ابنها فلذة كبدها فأمسكت به في حمية وحملته إلى الغابات ثم لم تظهر أبداً لأصدقائها الناس الطيبين. . . وا أسفاه لقد شعرت في روحي بمرارة شديدة حتى نفرت دموعي المحرقة من عيني فسقطت في نهر (التايمز) ومضت إلى المحيط الكبير فامتزجت بأدمع كثير من الناس، دون أن تحسب حساباً!

حدث في تلك اللحظة أن سحبتني موسيقى غريبة من أحلامي القاتمة، نظرت حوالّي فرأيت على الشاطىء مجموعة من الناس يبدو أنهم يشكلون حلقة حول مشهد مسل. اقتربت وميزت أسرة من الفنانين مؤلفة من أربعة أشخاص هم: ١ ـ عجوز صغيرة متهالكة. تلبس السواد، لها رأس صغير جداً وبطن كبير منتفخ، وعلى هذا البطن يتدلى طبل كبير تقرعه دون رحمة. ٢ ـ قزم يحمل، كأنه

مركيز فرنسي من العهد القديم، لباساً مطرزاً ورأساً كبيراً مزيناً، وأعضاؤه رقيقة ناحلة ويعزف على آلة نقر ثلاثية الشكل ويقفز هنا وهناك. ٣ ـ بنت صبية في حوالي الخامسة عشرة من عمرها تلبس سترة قصيرة ضيقة من الحرير، مخططة بالأزرق، وسروالاً مخططاً باللون نفسه. إنها مخلوقة ذات شكل هوائي شديدة اللطف. وجهها في جمال وجه الإغريق. أنف نبيل مستقيم، شفتان موزعتان في رشاقة، ذقن مكورة حساسة، لون زيتوني دافىء، شعر أسود لامع، مرفوع على الصدغين. كانت تقف منتصبة رشيقة جدية، بل ربما كانت صارمة كثيبة إلى حد ما وهي تنظر إلى الشخص الرابع من مجموعتها الذي يستعرض خفة روحه. ٤ ـ وهذا الشخص الرابع كلب عالم، كلب يبشر بمستقبل لامع الذي استطاع أن يؤلف بين سرور الجمهور الانكليزي البالغ جمع حروف من الخشب الذي قدموه له اسم اللورد (ولنجتون). وأضاف في الشكل المادح المطري نفسه لقب «البطل العظيم». وبما أن الكلب، نظراً لوضعه الذكي، لايمكن أن يكون بهيمة انكليزية وإنما جاء من فرنسا كما جاء الأشخاص الثلاثة الآخرون، فقد فرح أبناء (البيون) جداً حين رأوا مزايا قبطانهم العظيم تعترف بها على أقل تقدير كلاب فرنسا، وهو اعتراف يرفضه كل مخلوقات فرنسا في عنف.

الواقع أن هذه المجموعة كانت من الفرنسيين. والقزم الذي أعلن أن اسمه السيد (تورلوتوتو) بدأ الحديث باللغة الفرنسية وصاحب حديثه بحركات مثيرة حتى فغر الانكليز المساكين أفواههم ورفعوا أنوفهم أكثر مما اعتادوا رفعها. وكان أحياناً بعد فترة طويلة، يقلد صياح الديك، وهذه القوقأة، وكذلك أسماء عدد كبير من الأباطرة والملوك. والأمراء الذين كان يمزج أسماءهم في خطابه كان كل ما استطاع المشاهدون المساكين فهمه. هؤلاء الأباطرة والملوك والأمراء كانوا ـ كما قال ـ حماته وأصدقاءه. وأكد أنه منذ كان في الثامنة من عمره أجرى حديثاً طويلاً مع المرحوم جلالة لويس السادس عشر، الذي كان يطلب نصائحه في مناسبات هامة. ومنها أنه اختفى بفراره عن عيون عهد الارهاب الثوري، وأنه لم يعد إلى وطنه العزيز إلا في عهد عودة الامبراطورية ليساهم بنصيبه في مجد الأمة العظيمة. قال: إن الامبراطور نابوليون لم يحبه قط، وعلى عكس ذلك كاد يعبده قداسة البابا (بيوس) السابع. وأعطاه الامبراطو الكسندر سكاكر وحلوى، والأميرة غليوم كورتز كانت تحمله على ركبتها، وكان صاحب العطوفة الدوق شارل (برونزفيك) كان يجعله يحمل أحياناً على كلابه، أما جلالة الملك لويس(البافاري) فكان يقرأ عليه قصائده الحكيمة. وأمراء (بويس) و(شليتز) و(كرويتز) وأمراء شفارتسنبرغ، سوند

رشوزن) يحبونه مثل أخ، وطالما دخنوا في الغليون الذي يدخن به. وإذا سمعنا كلامه علمنا أنه لم يعش منذ طفولته إلا في كنف الحكام، الملوك الحاليون نشؤوا وكبروا معه، وهو ينظر إليهم كأنهم أهله وخاصته، وكان يلبس الحداد إذا أدى واحد منهم ضريبة الطبيعة. ويعد هذه الكلمات الكبيرة غنى غناء الديك.

لقد كان السيد (تور لوتوتو) أحد الأقزام الأكثر إثارة للفضول الذين رأيتهم. إن وجهه المجعّد العجوز يناقض مناقضة مضحكة جسده الصغير الطفولي، وكل شخصيته تكون تناقضاً واضحاً حركات الرشاقة التي يجيدها تماماً. واحتل مكانة في أجرأ مواضع اللعب بالسيف، وجعل بسيفه الحاد الطويل طولاً مفرطاً يضرب في الهواء كيفما اتفق وهو يقسم بشرفه أن هؤلاء الأربعة أو الثلاثة من جماعته لايقاومون، وأنهم بفضله يستطيعون اتقاء كل خطر من كل إنسان، وأراد أن يبرهن على ذلك فدعا كل المشاهدين إلى منافسته في فن السيف النبيل. واستمر القزم في هذه اللعبة أمداً طويلاً لم يجد فيه أحداً يريد أن ينافسه في مهنته فانحنى في لباقة الفرنسيين المعهودة، وشكر الحاضرين على استفتائهم الذي شرفوه به، وأخذ حريته في أن يعلن للجمهور المحترم أغرب المشاهد التي يمكن أن يعجبوا بها على أرض انكلترا. قال بعد أن وضع قفازات متجمدة وسخة، وقاد في مودة واحترام إلى وسط الحلقة الصبية التي هي أحد أعضاء المجموعة، والتي هي الابنة الوحيدة لتلك السيدة المحترمة جداً والمسيحية جداً التي ترونها هناك مع صندوقها الكبير والتي ما تزال تلبس الحداد على زوجها العزيز، أكبر من يتكلم من بطنه في أوروبا:
ـ الآنسة سوف ترقص، فأبدوا الآن إعجابكم برقصة الآنسة (لورنس). وعند ذلك عاد ليقلد صياح الديك. بدا لي أن الفتاة لاتصغي إلى هذه الكلمات ولا إلى نظرات المشاهدين. ظلت دون حراك، ضائعة في أحلامها حتى مدّ القزم تحت أقدامها سجادة كبيرة وجعل ينفخ في مزماره الثلاثي يُرافقه قرع الصندوق. كانت الموسيقى غريبة، مزيجاً من الدوي الثقيل ومن الزقزقة اللذيذة: ميزت فيها نغماً مرضياً مجنوناً. يعلو في شكل غريب حزين، رغم أنه كان في بساطة مثيرة للفضول، ولكني لم ألبث أن نسيت هذه الموسيقى عندما شرعت الفتاة في الرقص.

لقد استبد الرقص والراقصة في قوة بكل انتباهي. إنه ليس رقصاً تقليدياً نراه في حفلاتنا الموسيقية الكبرى. وليس مثل هذه الرقصات الاسكندرية وتلك القفزات المعبّرة، وهذه التقلبات المتناقضة، وهذه العاطفة النبيلة التي تذهلك حتى تصاب بالدوار حتى لاترى إلا السماء واللون، إلا المثل الأعلى والأكاذيب. الواقع

أن شيئاً ما لم يهزني أكثر من حفلة الباليه في أوبرا باريس التي احتفظت بكل صفاء التراث، وبذلك الرقص التقليدي، بينما قلب الفرنسيون نظام الفنون الأخرى القديم في الشعر والموسيقى والرسم، ولكن من الصعب أن تحدث في فن الرقص مثل هذه الثورة، ولاسيما وأنهم لم يلجأوا إلى العنف في هذا الميدان، كما لجأوا إليه في الثورة السياسية، ولم يقطعوا سيقان الراقصين التي دربت في النظام القديم. لم تكن أطراف أقدام الفتاة كثيرة المرونة، ولم يكن ساقاها تتكسران عند كل تخلع مُمكن. كانت لاتعرف شيئاً من الرقص كما يعلم الرقص. كانت كل شخصيتها منسجمة مع خطواتها. لم تكن أقدامها وحدها، بل كان جسدها كله يرقص.. بل إن وجهها يرقص.. قد تشحب أحياناً، ولكنه شحوب الموتى وتتفتح عيناها كبيرتين كعيون الاشباح وحول شفتيها يرفرف الفضول والخوف، وشعرها الأسود الذي كان يؤطر صدغيها في جدائل بيضوية يتطاير كأنه جناحا غراب. لم يكن ذلك حقاً رقصاً تقليدياً ولا رقصاً إبداعياً، كما يفهمه شباب فرنسا. لم تكن الرقصة من رقصات القرون الوسطى، ولا من فينسيا، ولا رقصة حدباء ولا رقصة جنائزية ولا أخلاقية ولا رقصة ضوء القمر، ولا رقصة حشرة... كانت رقصة لاتستهدف الإرضاء بأشكال الحركات الخارجية، ولكن هذه الأشكال تبدو وكأنها على عكس ذلك كلمات لغة خاصة. ولكن ماذا تقول هذه الرقصة؟ لم أستطع فهمها، عن أية عاطفة تعبر هذه اللغة. تصورت أحياناً أنها موضوع تساؤلات عن أشياء مؤلمة قاتمة... وأنا الذي، أفهم، عادة، وفي يسر مغزى الأشياء لم أستطع اكتناه سر هذه الرقصة ــ اللغز. لاشك أن الخطأ في ذلك يعود إلى الموسيقى التي تحرفني عن قصد وتجعلني اضطرب دون هواده. إن المزمار الثلاثي للسيد تور لوتوتو كان يسخر ويقهقه أحياناً في شكل خبيث. والسيدة الأم تقرع صندوقها في غضب يجعل وجهها يلمع تحت غمامة قبعتها السوداء كأنه قمر دامٍ.

عندما ابتعدت الجوقة بقيت في مكاني أمداً طويلاً أحلم بمعنى تلك الرقصة. أهي رقصة من أواسط فرنسا أو رقصة وطنية من إسبانيا؟ إن الطابع الأوسطي يرتسم في النزق الذي كانت الراقصة ترمي فيه قامتها اللدنة من جهة إلى جهة، وفي حركة رأسها المسعورة وطريقة انقلابها إلى وراء، وفي تلك التخلعات المشعثة التي نراها في دهشة في ثنايا القصص القديمة. عندئذ تبدو رقصتها وكأن فيها شيئاً من اللاإرادة، من الهيجان، من القدر، إنها ترقص كأنها منذورة. أليست أشلاء من تمثيلية ايمائية قديمة، أو لعلها من حكاية خاصة؟ كانت الصبية تميل نحو

الأرض وكأنها تريد أن تصغي إلى صوت يصعد من الأرض نحوها فهي تحب أن تسمعه. . . وعندئذ تهتز كأنها ورقة نخيل فتميل في سرعة إلى الجهة المعاكسة وتقوم بقفزات خارقة، غير منتظمة، ثم تصيخ بأذنها إلى الأرض أكثر قلقاً من قبل، وتومىء برأسها إيماءة وتصبح أكثر حمرة ثم تغدو شاحبة فترتجف وتبقى لحظة مستقيمة القوام كأنها شمعة جامدة كأنها صخرة وتحرك يديها كأنها تغسلهما، أتراها تظن أنها تمسح دماً بكل عناية؟ وتصاحب هذه الحركة بنظرة جدّ مستعطفة، جدّ رقيقة. . . وشاءت المصادفة أن تقع هذه النظرة علي.

ظللت طوال الليلة التالية أفكر في تلك النظرة، في تلك الرقصة، في تلك الصحبة الغريبة، وعندما انطلقت الغداة كالعادة في شوارع لندن شعرت بالرغبة الحارة في لقاء الصبية الراقصة مرة أخرى، وكنت أصغي دائمًا أتوقع سماع موسيقى الصندوق الكبير والزمارة الثلاثية في مكان ما. وأخيراً وجدت في لندن ما يسليني. وبت أتشرد في شوارعها المتشابهة دون هدف، خرجت من البرج وحدقت في انتباه إلى الفأس التي قطعت رأس (آن دوبولين) وجواهر تاج انكلترا. وكذلك الأسود عندما رأيت في موقع البرج، وفي وسط جمهرة كبيرة، السيدة الأم وصندوقها الكبير وسمعت السيد (تور لوتوتو) يصيح صياح الديك. والكلب العالم يؤلف بطولة اللورد (ولينجتون) والقزم يبدي وجهات نظره التي لاتقاوم، والآنسة (لورنس) تشرع في أداء رقصتها العجائبية. إنها ما تزال تحتفظ بتلك اللغة الخرساء التي تريد أن تقول شيئاً لست أفهمه، وبتلك الردة العنيفة لرأسها الجميل، وبالأذن المصغية المنحنية على الأرض، وبذلك الرعب الذي تريد أن تتخلص منه بقفزاتها المجنونة، ثم مرة أخرى بالأذن التي تصغي إلى ضجة صادرة من تحت الأرض، وبالرجفة، وغسيل اليدين العجيب الغامض وأخير بتلك النظرة المنحرفة المستعطفة التي أوقفتها علي، هذه المرة، مدة أطول.

يا للنساء، ويا للصبايا فهن مثل سائر النساء يعرفن أولاً أنهن يستأثرن بانتباه الرجل. ورغم أن الآنسة (لورنس) عندما لاترقص تبقى دائمًا دون حراك دون أن توجه عينيها إلى غير أحلامها الداخلية، ورغم أنها لاتلقي عندما ترقص إلاّ نظرة واحدة على الجمهور فليس من المصادفة ألا تسقط هذه النظرة دائمًا إلا عليّ، وكلما رأيتها ترقص زادت هذه النظرة لألاء وتعبيراً، وتصبح أكثر غموضاً. كنت كالمسحور بهذه النظرة، وظللت خلال ثلاثة أسابيع أضرب في شوارع لندن منذ الصباح حتى المساء. أقف حيث ترقص الآنسة (لورنس) حتى صرت أميز خلال

التمتمات وصخب الجمهور وفي الأقاصي نغمات الصندوق الكبير والمزمار المثلث. وكان السيد (تور لوتوتو) عندما يراني يزيد في فرح في تقليد صياح الديك. ويبدا أني أصبحت عضواً في المجموعة دون أن أتبادل كلمة واحدة معه ولامع السيدة الام، ولا مع الآنسة (لورنس) ولا مع الكلب العالم. وعندما كان السيد (تور لوتوتو) يلم التبرعات، كان لبقاً جداً عندما يقترب مني ويدير رأسه إلى الجهة المقابلة عندما أضع قطعة صغيرة من العملة في قبعته ذات القرون الثلاثة. الحق أنه كان مثال اللباقة ويذكرني بطرائق السلوك في العهد الماضي. يمكن أن نلاحظ في هذا الرجل الصغير أنه نشأ وشب بين الملوك، ولعل من الأمور الغريبة أن نراه وقد نسي أحياناً مركزه، وجعل يصيح مثل الديك.

لا أستطيع أن أصف العناء الذي عانيته بعد أن ظللت أفتش عبثاً عن هذه المجموعة الصغيرة خلال ثلاثة أيام في كل شوارع لندن، وفهمت أخيراً أنها غادرت المدينة. لقد أمسك السأم بتلابيبي بذراعيه الرصاصيتين وقبض على قلبي. وكان من المستحيل عليّ أن أحتمل ذلك فترة أطول. فقلت وداعاً يا (موب) ويا (بلاك جارد) ويا ظرفاء لندن ويا (مزعجي انكلترا) ويـا أيتها الحكـومات الأربـع في الامبراطورية الانكليزية وعدت إلى القارة المتمدنة التي ركعت على ركبتي عبودية أمام تنورة أول طباخ بيضاء لقيته. هنا يمكن أن آكل مرة أخرى مثلما يأكل مخلوق عاقل، وأمتّع روحي أمام طيبة هذه الوجوه النزيهة. ولكني لم أستطع نسيان الآنسة (لورنس) تماماً، ظلت ترقص فترة طويلة في ذاكرتي، وفي ساعات خلوتي، وظللت أفكر أغلب الأحيان في ايماءاتها الملغزة، وخاصة في حركتها عندما تصيخ بأذنها كأنهـا تستمع إلى ضجة من تحت الأرض. ومر زمن غير قليل قبل أن تزول من ذاكرتي نغمات المزمار المثلث والصندوق الكبير.

صرخت ماريا في نفاذ صبـر وهي تنهض: ــ أهذه كـل قصتك؟ ولكن مكسيميليان رجاها أن تعود فتستلقي على فراشها، وأضاف إلى ذلك حركته المعبرة بسبابته على فمه وقال: ــ رفقاً رفقاً. اهدئي وسأقص عليك نهاية الحكاية. ولكني أرجوك، بحق السماء ألا تقاطعيني. ثم غرق في أريكته في شكل مناسب مريح وتابع قصته على الشكل الآتي: ــ بعد خمس سنين من هذه الحادثة زرت باريس أول مرة وفي عهد متميز. كان الفرنسيون قد أتموا ثورة تموز وكان العالم يصفّق لهم. إن هذه المسرحية لم تكن مرعبة مثل ما سبق من مآسي الجمهورية والملكية. لم تبق في ساحة القتال إلا بضعة آلاف من الجثث. والثوريون الابداعيون لم يكونوا

جدّ مسرورين فأعلنوا عن مسرحية ثانية تسيل فيها دماء أكثر، ويشغل فيها الجلاد بشغل أكبر.

سرتني «باريس» سروراً بالغاً بما فيها من مرح يبدو واضحاً في كل شيء ويمارس تأثيره في أكثر العقول والأرواح قتاماً. شيء غريب. باريس هي مسرح تدور عليه أكثر المسرحيات مأساوية في التاريخ العالمي، مسرحيات تهز ذكرها وحدها القلوب وتبكي العيون في أكثر البلدان بعداً عنها، ومع ذلك فإن مشاهد هذه المأساويات يشعرني في باريس بما شعرت به أنا ذات مرة عند باب سان مارتان، حيث شهدت تمثيل (برج نيسل) لألكسندر دوماس. كنت جالساً وراء سيدة تلبس قبعة من الشاش الوردي، وكانت هذه القبعة عريضة جداً تحول بيني وبين المسرح الذي لم أكن أشهد روعاته إلا من خلال ذلك الشاش الوردي، حتى ان كل المشاهد المحزنة في مسرحية (برج نيسل) بدت لي تحت لون من أكثر الألوان تبسمًا. نعم إن في باريس صبغة موردة تحيل كل المآسي في عين المشاهد المباشر، حتى لايهتز فرح الحياة ويتكدر. الأفكار السوداء التي يحملها في قلبه في باريس تفقد طابع القلق والسخط، بل إن أحزاننا تتخذ شكلاً لطيفاً وتخف في وضوح. في جو باريس هذه تلتئم كل الجراح في سرعة تفوق سرعتها في كل مكان. في هذا الجو شيء من الكرم والملاطفة والحلاوة مثل ما في الشعب نفسه، وأكثر ما يسحر في هذا الشعب طرائقه المهذبة المتميزة. يا عطر التهذيب، يا عطر الأناناس طالما نعشت روحي المسكينة المريضة التي تجرعت في ألمانيا كثيراً من الأبخرة المشبعة بالتبغ ومن رائحة الملفوف والكرنب والغلاظات. إن موسيقى روسيني لاترن في أذني أطيب نكهة من الاعتذارات الانيقة التي قدمها لي فرنسي في أول يوم وصلت فيها عندما اصطدم بي صدمة خفيفة في الشارع. لقد تراجعت في وجه هذه المدينة العذبة، أنا الذي صيغت أضلاعي من الاشتباكات الألمانية الصامتة. وخلال الأسبوع الأول من إقامتي في باريس دبرت أموري حتى اصطدم بهذه الموسيقى من الاعتذارات. ولكن ذلك لم يكن بسبب هذا التهذيب فحسب، بل كذلك بسبب تلك اللغة التي ظهر لي فيها الشعب الفرنسي في عيني في أحسن حال، لأنك تعرف أن اللغة الفرنسية عندنا في الشمال هي من خصائص طبقة النبلاء الرفيعة، ولقد امتزجت اللغة الفرنسية في ذهني منذ طفولتي بفكرة النوع. ولقد سمعت سيدة في سوق (هال) باريس تتكلم بالفرنسية خيراً مما تتكلم بها راهبة ألمانية راقية في الأحياء الأربعة والستين.

هذه اللهجة التي تهب الفرنسيين شكلاً مقبولاً، تهب له أيضاً في تصوري شيئاً من العذوبة الأسطورية. وهذا خالجني من ذكرى ثانية في طفولتي. الكتاب الأول الذي قرأته بالفرنسية كان كتاب أساطير (لافونتين). الصيغ في هذه اللغة المعقولة الساذجة انطبعت في حروف لاتّمحي في ذاكرتي. وعندما وصلت باريس وسمعت الحديث بالفرنسية في كل مكان تذكرت في كل لحظة هذه الأساطير، ظننت دائمًا أني أستمع إلى الأصوات المألوفة لحيواناتها. فالأسد يتحدث تارة والذئب يتكلم تارة أخرى ثم الحمل ثم اللقلق أو الحمامة. وكثيراً ما خيل إلي أنني أسمع الثعلب يقول:

صباح الخير يا سيدي الغراب
ما أجملك.. ما أكثر ما تبدو لي جميلاً.

ولكن هذه الذكريات الأسطورية كانت أكثر انبثاقاً في روحي عندما أوغلت في تلك المنطقة العليا التي يسمونها العالم.. إنه في الواقع كان العالم نفسه الذي قدم لـ(لافونتين) نماذج عن طباع الحيوانات. بدأ فصل الشتاء فور وصولي إلى باريس وشاركت في حياة «الصالونات» التي يتدفق إليها الناس في كثير أو قليل من الإلحاح. وأكثر ما بدا لي مثيراً للاهتمام والانتباه ليس في المساواة القائمة في طرائق السلوك المتبعة فيها، بل في تنوع، الأطراف التي تتكون منها. طالما لاحظت في «صالون» الناس الذين يجتمعون في هدوء وظننت أني في مخزن من هذه المخازن التي تضم التحف والأشياء النادرة والتي تتكوم فيها النفائس التي خلفتها كل الأزمان مختلطة يقوم بعضها إلى جانب بعض: (آبولون) اغريقي قرب معبد صيني، (فيتزليبوتسلي) مكسيكي إلى جانب غوطي، وأوثان مصرية لها رؤوس كلاب، وقديسون منحوتون في الخشب والعاج والمعدن الخ... رأيت فيها فرساناً رقصوا مع ماري انطوانيت، وعلماء إنسانيين أحبتهم حتى العبادة المجموعات الوطنية، وجبليين دون رحمة ودون مهمة، وجمهوريين متميزين ظهروا في لوكسمبرغ تحت حكم الإدارة، ومسؤولين كباراً ارتجفت أمامهم أوصال أوروبا كلها، ويسوعيين كانوا سادة عصر النهضة، وكثيراً من الخالدين الذين انطفأوا أو شُوهوا أو أكلهم السوس خلال العصور المختلفة والذين لم يبق من يؤمن بهم.

كانت الأسماء تزأر عندما يلتقون، ولكنا نرى الآن الناس يبقون هادئين أصدقاء بعضهم إلى جنب بعض، كأنهم آثار عتيقة في مخازن شارع (فولتير). في البلاد الألمانية التي تكون فيهاالعواطف أقل خضوعاً للتنظيم من المستحيل أن

تعيش في مجتمع واحد كل هذه الشخصيات المتناقضة. ثم إننا في بلادنا الباردةالشمالية لانحسّ بالحاجة إلى التكلم كما يحسون بها في فرنسا الدافئة، التي إذا التقى فيها الأعداء الألداء ذات يوم في (صالون) لايستطيعون البقاء صامتين صمتاً قائماً على مدى طويل. ثم إن الرغبة في الإرضاء شديدة في فرنسا حتى إنهم ليجهدون أنفسهم في إرضاء أعدائهم وأصدقائهم على حد سواء. وهم دائماً مشغولون في الكسوة والتظرف. والنساء مشغوفات هنا في تجاوز الرجال في الفتنة والأناقة. وهن يبلغن ذلك آخر الأمر.

ليس في هذه الملاحظة، دون شك، شيء من سوء النية للنساء الفرنسيات ولاسيما للباريسيات. أنا على عكس ذلك أكثر عبادهن إعلاناً، أعبدهن لما فيهن من نقائص أكثر مما أعبدهن لما فيهن من مزايا وفضائل. ولا أعرف أسطورة أفضل من الأسطورة التي تجعل الباريسيات يأتين إلى العالم مع كل ألوان النقائص، والتي تفترض عندئذ أن جنية طيبة أشفقت عليهن وألصقت بكل نقيصة من هذه النقائص إغراء جديداً، وهذه الجنية المحسنة هي اللطافة. هل الباريسيات جميلات؟ من يدري؟ من يستطيع التغلغل في مهارات الزينة وحيلها، وتمييز ما هو صادق فيما يكشفه القماش (التول) أو المزيف فيما يعرضه الحرير المنفوخ؟ العين تخترق القشرة، فهل يمكن أن تتغلغل إلى لب الثمرة وإذا استطاعت فإنهن يتوشمن فوراً بقشرة جديدة، ثم بقشرة أخرى، وبمساعدة هذا التبديل الذي لاينقطع في الطرز يصلن إلى التخفي عن عيون الرجال. هل وجوههن جميلة؟ هنا أيضاً يصعب علينا أن نصل إلى الحقيقة. ذلك أن ملامحهن في حركة مستمرة. الباريسية لها ألف وجه، كل وجه أكثر ضحكاً ومرحاً وخفة وقبولاً من الوجه الآخر، وهي تربك جداً من يريد أن ينتقي وجهاً من هذه الوجوه أو يكتنه أكثرها صدقاً. هل عيونهن واسعة؟ من يدري نحن لانرى عيار المدافع حين تنطلق القنبلة وتطيح برؤوسنا، ومع ذلك فإن هذه العيون عندما لاتصيب فلا أقل من أنها تبهرنا بنارها. ونجد أنفسنا جدّ سعداء إذا كنا خارج مرماها ومداها. هل الفاصل بين أنوفهن وأفواههن عريض أو ضيق؟ إنه أحياناً عريض عندما يرفعن أنوفهن في الهواء، وإنه أحياناً ضيق عندما تنتصب شفاههن في حركة احتقار واشمئزاز. هل أفواههن صغيرة أو كبيرة؟ من يعرف أين ينتهي الفم وأين تبتدىء البسمة؟ لكي يحكم الإنسان حكماً عادلاً يجب أن يكون القاضي وموضوع القضاء معاً في حالة هدوء لا حركة. ولكن من يستطيع أن يبقى ساكناً قرب باريسية، وأية باريسية كانت مرة هادئة؟ هناك

أناس يعتقدون أنهم يستطيعون أن يفحصوا كما يريدون فراشة إذا أمسكوا بها وأثبتوها على الورق بدبوس. وذلك جنون وقسوة. الفراشة المربوطة التي لاتتحرك ليست فراشة. . يجب ملاحظة الفراشة وهي تلعب وتحوم حول الأزهار والباريسية ليس في داخل بيتها والدبوس يخترق صدرها، ولكن في (الصالون)، في السهرات وحفلات الرقص، حين ترفرف بأجنحة من الحرير أو الملابس الشفافة، تحت أنوار المصابيح اللماعة يجب أن ترى وتلاحظ ويحكم عليها. هنا تبدو وتتكشف عن حب لايفتر للحياة، عن حمية عشواء، عن ظمأ للنشوة. هنا تبدو جميلة في شكل يكاد يكون محزناً، هنا تكتسب سحراً يسمر روحنا ويخيفها في آن واحد.

هذه الحاجة العاطفية إلى التمتع بالحياة كأن الموت يكاد يدعوهن فوراً إلى نبع السرور الدفاق، أو كأن هذا الينبوع سوف يجف وينضب فوراً، هذا الالحاح، هذا الغضب، هذه الحمى، وهذا الدوار في الباريسيات تبدو جميعاً في الحفلات الراقصة وتنفجر، وتذكرني دائماً بأسطورة الراقصات الليليات اللواتي يسمونهن عندنا (الفيليس Willis) إنهن المخطوبات، الصبايا اللواتي متن قبل يوم الزفاف، ولكنهن احتفظن في قلوبهن بحب الرقص الذي لم يشبع، فهن يخرجن من قبورهن في الليل ويجتمعن زرافات في الطرقات وينصرفن إلى رقصات غاية في العاطفة والهيجان. إنهن في لباس أعراسهن مكللات بالأزاهير وأيديهن البضة محفوفة بالخواتم المتلألئة، ضاحكات حتى الرجفة، جميلات إلى حد لايقاوم أولئك هن (الفيليس) كاهنات باخوس الميتات. يرقصن في ضوء القمر ويرقصن في كثير من الحمية والانطلاق والطيش يرقبن اقتراب منتصف الليل، وعليهن في هذه الساعة أن يعدن إلى قبورهن وينزلن في بردها الجليدي.

دارت هذه الأفكار في نفسي ذات مساء على رصيف (آنتان). كانت تلك الأمسية لامعة، وكل الشروط اللازمة العادية لمثل هذا الحبور لاتنقصني. مايكفي من الأنوار لأستضيء بها، وما يكفي من الجليد لأتراءى في صفحاته، وما يكفي من الناس لأختنق حراً، وما يكفي من الشراب والسوائل لأرطب بها جسمي. بدأوا بعزف الموسيقى، مضى فرانز ليست إلى البيان، رفع شعره فوق جبهته الذكية وخاض إحدى معاركه اللامعة. بدت اللوامس وكأنها تنزف دماً، وإذا لم أخطىء فقد كان يعزف مقطعاً من مقاطع (الولادة الثانية لبالانش) التي كان يترجم أفكارها إلى الموسيقى، وذلك أمر نافع جداً لمن لايستطيعون قراءة النص الأصلي لمؤلفات هذا الكاتب الشهير. ثم عزف قطعة من هذه «السمفونيات» الخيالية لـ(برليوز)

بدت فيها عبقرية الموسيقى الفرنسي مساوية لعبقرية (بيتهوفن) الذي يفوقه أحياناً في النوبة والجنون ـ في الغضب ـ إن برليوز هو دون شك أكبر وأكثر الموسيقيين الذين أنجبتهم فرنسا وأهدتهم للعالم. أما قطعة (ليست) فقد كان لها تأثيرها. فلست ترى في الصالة كلها إلا وجوهاً شاحبة وصدوراً مثقلة وأنفاساً متسارعة خلال الاستراحات ثم تصفيقاً لاهباً. ثم شرعوا في سرور أكثر جنوناً في الرقص، (فيليس) الصالون، ووجدت عناء في وسط هذه الجلبة في اللجوء إلى غرفة مجاورة. كانوا يلعبون فيها بالميسر. وعلى آرائك كبيرة كانت تجلس بضع سيدات يراقبن اللاعبين أو يظهرن أنهن مهتمات باللعب. عندما مررت باحدى هؤلاء السيدات لامست يدي ثوبها وشعرت من كفي إلى كتفي برعشة تشبه رجفة كهربائية خفيفة، وهزتني هزة مماثلة لها في طبيعتها، ولكنها أقوى منها، حركت قلبي عندما رأيت وجه هذه السيدة. أتكون هي أم أنها ليست هي؟ إنه الوجه نفسه الذي يشبه الأثر القديم بشكله ولونه، إذا لم يكن قد فقد قليلاً من صفائه ومن لألاء المرمر. العين الماهرة يمكن أن تميز على الجبهة وعلى الخدين نقائص صغيرة. ربما كانت آثاراً خفيفة لجدري مائي، الذي يترك لطخات غير مألوفة مثل التي نراها في التماثيل التي تتعرض فترة ما للعرض في الهواء الطلق. ثم إن هذا الشعر الأسود الذي يهبط في جدائل بيضوية على الصدغين مثل جناحي غراب هو شعرها. وعندما التقت عيناها بعيني في نظرة منحرفة معروفة جداً يهز نورها البراق النفس هزاً فيه كثير من اللغز عرفت دون شك أنها الآنسة (لورنس). كانت تتمدد مرتاحة على أريكتها تمسك بيدها باقة وتستند بالأخرى على ذراع الأريكة، كانت قرب منضدة ويبدو أنها توجه كل انتباهها للورق. كانت زينتها رشيقة متميزة، رغم بساطتها، وكل لباسها من (الساتان) الأبيض، ولاتلبس شيئاً من الجواهر غير عقد من اللؤلؤ. كمية كبيرة من المطرزات تغطي صدرها الفتي وتغطي في شكل يكاد يكون ظاهراً عنقها. في هذه البساطة الساذجة من اللباس كانت تشكل تناقضاً محبوباً رائعاً مع السيدات العجائز المتلألئات بالألماس والزينات المسرفة، اللواتي يجلسن في جوارها ويعرضن في عري حزين خرائب روعتهن السالفة في باحة (تروا). وجهها يحمل دائماً ذلك الملمح الساحر من الحزن، وشعرت أني مجذوب نحوها بجاذب لايقاوم. وأخيراً وقفت وراء أريكتها، تحرقني رغبتي في التحدث إليها ويمسك بي احترامي للتقاليد والأعراف.

بقيت فترة ما صامتاً وراءها عندما سحبت فجأة من باقتها زهرة، ودون أن

تدير نظرتها نحوي مدت الزهرة لي من فوق كتفها. كان شذى هذه الزهرة غريباً وسبب لي نشوة جدّ خارقة. شعرت أني تجاوزت كل عرف اجتماعي، كأني في حلم أقوم فيه وأقول أشياء غير معتادة. أكون أول من يتعجب منها، وتأخذ فيه كلماتنا صفة بسيطة في شكل عجيب طفولية أليفة . وفي هدوء وعدم اكتراث وإهمال ، كما يحدث عادة بين الأصدقاء القدماء، انحنيت على ذراع الأريكة وقلت للصبية : أين إذن أمك ذات الكيس الكبير يا آنسة لورنس ؟ أجابت في نبرة تضارع نبرتي في الهدوء وعدم الاكتراث والاهمال. ــ ماتت وبعد وقفة قصيرة انحنيت مرة أخرى على ذراع الأريكة ووشوشت في أذن الصبية ــ يا آنسة لورنس وأين الكلب العالم إذن؟ وأجابت في النبرة نفسها في هدوء وعدم اكتراث وإهمال: ــ مضى يجول في العالم. ثم بعد وقفة قصيرة أخرى انحنيت على ذراع الأريكة ووشوشت في أذن الصبية: ــ آنسة لورنس وأين السيد (تور لوتوتو) القزم؟ ــ إنه مع العمالقة في شارع (التامبل) ولم تكد تقول هذه الكلمات وفي نفس النبرة من الهدوء وعدم الاكتراث والاهمال حتى دنا منها سيد عجوز جدي، ذو قامة عسكرية، وأعلن لها أن عربتها في انتظارها. ونهضت في بطء من أريكتها واعتمدت على ذراع ذلك الرجل، ودن أن تلقي علي نظرة واحدة وخرجت معه من الغرفة.

ذهبت لألقى سيدة المنزل التي بقيت طوال المساء عند مدخل الصالون الأول تقدم ابتسامتها للداخلين والخارجين. وعندما سألتها عن اسم الصبية التي خرجت مع السيد العجوز أطلقت ضحكة محيبة وصرخت: يا رب. ومن يعرف كل الناس. أنا أعرفها معرفة جدّ قليلة . . .مثل. . . . . . ثم توقفت، لأنها أرادت أن تقول دون شك مثل معرفتي لك وقد رأتني أول مرة في ذلك المساء. وقلت لها: ربما يستطيع السيد زوجك أن يقدم لي بعض المعلومات: أين أجده؟ أجابت في ضحكة أقوى: ــ في الصيد في (سان جيرمان) لقد ذهب هذا الصباح ولن يعود إلا غداً مساء. . . ولكن انتظر. . . أعرف شخصاً تحدث طويلاً مع هذه السيدة. . . لا أعرف اسمه، ولكنك تستطيع أن تلقاه في سهولة إذا سألت عن الشاب الذي ركله الوزير الأول برجله في مكان لا أعرفه. ورغم أنه من الصعب أن تعرف رجلاً بركلة رجل الوزير الأول فقد استطعت اكتشاف هذا الشخص وطلبت منه بعض المعلومات عن تلك المخلوقة العجيبة التي أثارت اهتمامي، واستطعت أن أعينها له في وضوح. قال الشاب: ــ نعم، أنا أعرفها جيداً وطالما تحدثت إليها في

السهرات. ثم ذكر لي أشياء كثيرة لامعنى لها تحدث فيها. وما أثار استغرابه كان تلك النظرة الجدية التي تتخذها عندما يقول لها أموراً غزلة ظريفة. واستغرب كثيراً أنها رفضت دائمًا دعوته إلى رقصة (الكوريل المخالفة) وهي تؤكد له أنها لاتعرف الرقص. ثم إنه لايعرف لا اسمها ولا وضعها الاجتماعي. ولم يستطع أحد في أي مكان حاولت فيه الاستعلام عنها إخباري أكثر مما عرفت. عبثاً حضرت كل الأمسيات الممكنة ولم أجد فيها مرة أخرى الآنسة (لورنس).

وصرخت ماريا، وهي تدور في بطء وتتثاءب في نعاس: أهذه كل القصة؟ أهذه كل القصة العجيبة؟ وأنت لم تر مرة أخرى الآنسة لورنس، ولا أمها ذات الصندوق الكبير ولا القزم (تور لوتوتو) ولا حتى الكلب العالم؟ قال مكسيمليان: — كوني هادئة، لقد رأيتهم جميعاً، حتى الكلب العالم. كان ذلك في الواقع في فترة مخيفة له، رأيته في باريس، يا له من بهيمة مسكينة. كان ذلك في البلد اللاتيني. كنت أمر أمام (السوربون) عندما رأيت كلباً يندفع من الباب ووراءه حوالي اثني عشر طالباً يحملون عصياً ثم اثنتا عشرة امرأة من العجائز يصرخن معا: كلب مسعور. وكان الكلب المسكين في خوفه من الموت ينظر نظرة تكاد تكون إنسانية، والدموع تسيل من عينيه. وعندما مر أمامي وهو يضغط ذنبه، وعندما رمقتني عينه الدامعة عرفت فيه الكلب العالم، مقرظ اللورد (ولنجتون) الذي مـلأ الشعب الانكليزي اعجاباً به. أيكون حقاً مسعوراً. ربما أضاع عقله لوفرة ما تلقى من علوم وهو يستمر ويتابع دراسته في البلد اللاتيني. ربما نبح نباحاً مستنكراً الرياء والدجل الذي ينفثه بعض المدرسين. وتصور هذا أن يتخلص من هذا المستمع المدقق بإعلان أنه مسعور. وا أسفاه، الشباب لايبحثون طويلاً هل التحذلق المهان أو حسد المهنة هو الذي دفع إلى إعلان أن الكلب مسعور فجعلوا يضربون الكلب ضربات هوجاء، وجعلت النساء العجائز يزأرن ويصرخن مستعدات لتغطية صوت البراءة والعقل. وانهار صديقي المسكين، سقط أمام عيني قتيلاً مدمى، ثم ألقي به على كومة الزبالة: يا له من شهيد مسكين للعلم والمعرفة.

وحظ القزم السيد (تور لوتوتو) لم يكن أكثر ابتساماً. رأيته في شارع (تامبل) قالت لي الآنسة (لورنس) إنه اتخذ مكانه بين العمالقة. ولكن مر بي زمن طويل، إما لأني لم أتوقع فعلاً وجوده بين هؤلاء العمالقة أو لأني أزعجني مرور الجماهير، حتى استطعت أن ألاحظ الحانوت الذي يقيم فيه العمالقـة. دخلت الحانـوت ووجدت عملاقين طويلين يستلقيان في كسل على سرير خشبي وهبا في سرعة ليقفا

أمامي في وضع العمالقة. لم يكونا في الحقيقة كبيرين جداً كما تعلن لوحة الإعلانات، كانوا وغدين كبيرين يلبسان لباساً مطرزاً وردياً لهما عارضان كثيفان أسودان لعلهما مزيفان، ويرفعان على رأسيهما هراوتين من الخشب المحفور. وعندما سألتهما عن القزم الذي تضمنه الإعلان عند الباب أجابا أنهم لايعرفونه منذ شهر بسبب حالته المرضية التي تزداد حرجاً كل يوم: ولكني يمكن مع ذلك أن أراه إذا أردت دفع ضعفي رسم الدخول. وكيف لا أدفع ضعفي رسم الدخول لرؤية صديق؟ ولكنه كان، وياللأسف صديقاً على فراش الموت. وكان فراش الموت هذا في مهد طفل يرقد فيه القزم المسكين بوجهه الشاحب الأصفر المجعد. تجلس قربه طفلة صغيرة في الرابعة من عمرها تهدهد المهد برجلها وتغني مكشرة. نم يا تور لوتوتو نم. . . عندما رآني المخلوق الصغير فتح عينيه المطفأتين الشفافتين قدر ما يستطيع وارتسمت بسمة مؤلمة على شفتيه الشاحبتين، وخيل إلي أنه عرفني، ومد لي يده الصغيرة اليابسة وقال في صوت منطفىء: ـ يا صديقي القديم!

لقد كان موقفاً مرعباً قاسياً هذا الموقف الذي أجد فيه الإنسان الذي كان منذ السنة الثامنة من عمره يتحدث مع لويس السادس عشر حديثاً طويلاً، والذي كان يحشوه القيصر الكسندر بالسكاكر والملبس، والذي وضعته أميرة (كيريتس) على ركبتيها، والذي امتطى صهوة كلاب دوق (برونزفيك)، والذي قرأ له ملك (بافاريا) أشعاره والذي دخن في غليون الأمراء الألمان، والذي عبده البابا، والذي لم يحبه نابوليون قط. هذه المناسبة الأخيرة زادت في حزن البائس على سرير الموت أو كما قلت على مهد الموت. وبكي على حظه الامبراطور العظيم الذي لم يحبه والذي انتهى تلك النهاية الحزينة في جزيرة (سانت هيلانة). قال القزم المسكين: تماماً مثلي، وحيداً مجهولاً مهجوراً من كل الملوك والأمراء، صورة ساخرة لماضٍ مجيد.

ورغم أني لا أفهم تماماً كيف يمكن لقزم يموت بين عملاقين أن يقارن نفسه بعملاق يموت بين أقزام. فإن كلمات (تور لوتوتو) المسكين أثرت في نفسي كثيراً وخاصة ما يلاقيه من هجران وإهمال في ساعاته الأخيرة. ولم أستطع منع نفسي من إبداء دهشتي من أن الآنسة (لورنس) التي هي الآن سيدة عظيمة لاتهتم به. ولم أكد أنطق باسمها حتى عرت القزم ارتعاشات وحركات، فقال في صوت يئن أنيناً: يا لها من ولد عاق. لقد رعيت شبابها وأردت رفعها إلى مستوى زوجة، وعلمتها كيف ينبغي أن تسلك وتتحدث بين الرجال العظام في هذا العالم، وكيف تبتسم،

وكيف تتم التحية في البلاط، وكيف تقدم نفسها... ما أكثر ما استفدت يا ابنتي من دروسي حتى أصبحت سيدة عظيمة وعندك الآن عربة وخدم وكثير من المال وكثير من الكبرياء ولكن ليس لك قلب. لقد تركتني أموت هنا وحيداً بائساً مثل (نابوليون) في (سانت هيلانة). يا نابوليون... إنك لم تحبني قط..... ولم أفهم بقية كلامه. رفع رأسه وقامت ذراعه بحركات كأنه ينازع إنساناً أو شخصاً لعله الموت. ولكن منجل هذا الخصم لم يلق أية مقاومة لا عند نابوليون ولا عند (تور لوتوتو) وأشباههما.. إن كل استعراض للعضلات لايجدي عنده فتيلاً. أرهق القزم وسحق وترك رأسه يميل، ورمقني طويلاً بنظرة لايمكن أن تكتنه، هي نظرة محتضر، وفجأة قلد صياح الديك ولفظ أنفاسه.

أحزنني هذا الموت وأوجعني ولاسيما أن المرحوم لم يوضح لي شيئاً من أمور الآنسة (لورنس). أين أجدها الآن؟ لست عاشقاً لها ولا أشعر نحوها بأي ميل لا يقاوم، ومع ذلك فإن رغبة غامضة تدفعني إلى البحث عنها في كل مكان. لا أكاد أدخل (صالوناً) واستعرض من فيه دون أن أجد هذا الوجه الماثل أبداً في ذاكرتي يصيبني نفاذ الصبر ويدفعني إلى خارج (الصالون). ذات ليلة وفي منتصف الليل كنت أفكر وحيداً في هذا الشعور وأنا أنتظر عجلة عند خروج المشاهدين في (الأوبرا) ولكن لم تأتِ أية عجلة بل لم تأتِ إلا عجلات للآخرين، يجلسون فيها راضين عن أنفسهم كل الرضا. وعمّ الفراغ ما حولي دون أن أشعر، وأخيراً سمعت سيدة تقول: إذن فيجب أن تركب في عجلتي، كانت السيدة تتلفع بمعطفها الأسود وانتظرت قربي فترة من الزمن واستعدت لركوب عجلتها. ارتعش قلبي عند سماع صوتها، وما رمت النظرة المنحرفة المعتادة سحرها من جديد، ووجدتني كأني في حلم عندما رأيتني جالساً قرب الآنسة (لورنس) في عجلة دافئة ناعمة. لم نتبادل كلمة واحدة لأننا كنا نجري في ضوضاء الرعد على شوارع باريس. جرينا طويلاً ثم توقفنا أمام بوابة كبيرة.

جاءنا خدم في ألبسة مزركشة لامعة ينصبون لنا السلم وشريطاً طويلاً من الحجرات. وجاءت سيدة غرفتها في وجه نائم وتمتمت في كثير من الاعتذارات أنهم لم يشعلوا النار إلا في الغرفة الحمراء. أشارت (لورنس) للمرأة بالابتعاد، وقالت لي وهي تضحك: «المصادفة قادتك اليوم بعيداً. ليس في غير غرفة النوم نار».

في تلك الغرفة التي بقينا فيها وحيدين تشتعل نار طيبة في الموقد كانت أثمن من تلك الغرفة الواسعة الثمينة. في هذه الغرفة الكبيرة شيء مقفر غريب. الأثاث

والزخرف يحملان طابع عصر يبدو لنا لمعانه الآن جدّ ساذج، جدّ خطابي، جدّ مبالغ مثل أنقاض ضحكة مصطنعة. كان ذلك عصر الامبراطورية، عصر النسر الذهبي، والرياش المتكبرة المتطايرة في الزينات الأغريقية، في مجد وطبول (تي دوم TE DEUM)، في الخلود الرسمي الذي رسمه الـ(مونيتور)، في مقهى القارة الذي يصنع ورق الهندباء والسكر السيء الذي يصنع من الشوندر المسكين، ومن الأمراء الأدوات الذين صنعوا من لاشيء. لقد كان لهذا الزمن من المادية المحزنة سحره مع ذلك: (تالما) يعلن و(موري) يرسم، و(بيجوتيني) يرقص و(غراسيني) يغني و(موري) يعظ، و (روفيجو) يملك الشرطة، والامبراطور يقرأ (أوسيان) و(بولين بورغيز) تتحول إلى فينوس، فينوس عارية، لأن الغرفة دافئة جداً كما هي الغرفة التي أجد نفسي فيها مع الآنسة (لورنس).

جلسنا أمام الموقد نثرثر في ألفة، وحدثتني وهي تتنهد أنها تزوجت جنرالاً من جنرالات (بونابرت) يعاقبها كل مساء، قبل النوم بوصف معركة من معاركه، وأنه قص عليها في السهرة قبل أن يمضي قصة معركة (يينا)، وأنه كان هزيل الجسم وعاش في صعوبة بعد معركة روسيا. وعندما سألته منذ متى مات والده ضحك وصرح لي أنه لم يعرف قطّ أباه، وأن أمه المزعومة لم تتزوج أبداً. وصرختُ: لم تتزوج أبداً، ولكني مع ذلك رأيتها بعيني هاتين في لندن تلبس لباس الحداد على زوجها. وأجابت لورنس: لقد ظلت تلبس السواد على مدى اثنتي عشرة سنة لتثير اهتمام الناس بصفتها أرملة تعيسة، وربما لتغري بعض الراغبين البلهاء في الزواج، رجت أن تدخل تحت جناح أسود في سرعة أكبر من دخولها إلى شاطىء الزفاف. ولكن الموت وحده هو الذي أشفق عليها وماتت بالنزيف. لم أحبها قط لأنها كانت تكيل لي الضربات وتعطيني قليلاً من الطعام. وكان من الممكن أن أموت جوعاً لولا أن السيد (تور لوتوتو) كان يقدم لي سراً كسرات من الخبز، ولكن القزم طلب مقابل ذلك أن أتزوجه. وعندما خابت آماله تحالف مع أمي، وأنا أقول أمي بمقتضى العادة وشرعا معاً في تعذيبي. قالا دائماً إني مخلوقة لا نفع يرتجى منها، وأن الكلب العالم يتمتع بمزايا أكثر مني ألف مرة لرقصته الكريهة، وأفاضا بالثناء على الكلب على حسابي، ورفعاه إلى الغيوم وداعباه وأطعماه الشطائر وألقيا ببقاياها إلي. قالا: إن الكلب سندهما الحقيقي وإنه هو الذي يسحر الجمهور، وإن المشاهدين لا يهتمون بي على الإطلاق، وإن الكلب يضطر إلى إطعامي من عمله، فأنا آكل صدقة الكلب... الكلب اللعين. ـ قلت أوقف تعبيرها عن الاشمئزاز

والكراهية: ـ لاتلعنيه. لقـد مـات. رأيته يموت. صرخت (لورنس) وهي تقفز في سرور غمرها بالحمرة: ـ هل مات ـ ذلك البهيمة التافه..؟ وأضفت: ـ والقزم مات أيضاً.. وصرخت (لورنس) كذلك في سرور: ـ السيد تور لوتوتو؟ ولكن هذه الفرحة لم تلبث أن غابت وأخلت مكانها لملامح حزينة عذبه وقالت: ـ مسكين يا تور لوتوتو! ولم أخف عنها أن القزم في ساعته الأخيرة شكا منها في مرارة، استبد بها قلق عنيف وأكدت لي بعدة أيمان أنها عنيت عناية كبرى بمستقبل القزم، وأنها عرضت عليه بدل سكن وعيش إذا أراد أن يحيا في هدوء وفي رزانة في الريف ـ وتابعت (لورنس) ولكنه، وهو على ما هو عليه من طموح، طلب أن يبقى في فرنسا وأن يسكن في قصري، فقد يمكنه بوساطتي إعادة علاقاته القديمة في ضاحية (سان جيرمان). وأن يستعيد في المجتمع وضعه القديم اللامع، وعندما رفضت ذلك رفضاً قاطعاً قال إني شبح لعين وإني افعى وابنة ميت...

توقفت (لورنس) فجأة ، يرتجف جسمها كله وقالت أخيراً في تنهيدة عميقة: وا أسفاه. ليت الله قدر لي أن يتركوني في القبر قريبة من أمي.

حاولت أن أحركها لتفسير كلماتها هذه السرية، فسكبت سيلاً من الدموع وارتجفت وارتعشت وصرّحت لي أن المرأة السوداء ذات الصندوق الكبيـرة التي حسبت أنها أمها صرحت لها يوماً أن الضجة التي تثار حول ولادتها ليست إلا قصة للتسلية. قالت لورنس: في المدينة التي كنا نسكنها كانوا يسمونني «بنت الميت» والحائكات العجائز يزعمن أني ابنة كونت في ذلك البلد كان يعذب دائمًا زوجته، وعندما ماتت دفنها في فخامة ولكن المرأة كانت حاملاً في شهورها الأخيرة وأنها ماتت موتاً ظاهرياً، وأن لصوص المقابر عندما فتحوا قبرها ليجردوا جسدها من زيناته الغنية وجدوا الكونتسة حية وقد ولدت طفلة، وماتت حقاً خلال الطلق، فأعادوها في برود إلى قبرها وانتزعوا الطفلة التي نشأت في رعاية المرأة التي كانت تخبىء الأشياء المسروقة خليلة البطين الكبير. وهذه الطفلة المسكينة التي دفنت قبل أن تولد كانوا يطلقون عليها في كل مكان اسم بنت الميت. وا أسفاه، إنك لاتفهم الألم الذي عانيته منذ طفولتي عندما أطلقوا علي هذا الاسم، وما كان ذلك نادراً، وطالما صرخوا: يا بنت الميت اللعنة، ليتنا تركناك مدفونة في مقبرتك. وكان ذلك البطين ماهراً يغيرّ لهجة صوته في شكل لا أستطيع معه إلا أن أعتقد أنه يخرج من الأرض، وكان يقنعني آنئذ أن أمي المرحومة هي التي تقص علي حياتها. وكان يعرف هذه الحياة البائسة الحزينة تماماً لأنه كان خدام غرفة الكونت. وكان يفرح

فرحاً قاسياً بالذعر الذي أقاسيه، أنا الطفلة الصغيرة المسكينة، عندما أسمع الكلمات التي يبدو أنها تخرج من الأرض. هذه الكلمات التي تخرج من تحت الأرض كانت تقص علي حكايات مفزعة، حكايات لا أستطيع إدراك مغزاها العام، وقد نسيتها بعد ذلك دون أن أحس بذلك، ولكنها تعود إلي أحياناً في ألوان حية عندما أرقص. نعم عندما أرقص تمسك بي فجأة ذكرى غريبة، أنسى نفسي وأتصور أني شخص آخر وأظل بصفتي هذا الشخص الآخر معذبة مرهقة بأسرار هذا الشخص نفسه. وعندما أتوقف عن الرقص، يمحي من ذاكرتي كل شيء.»

عندما كانت (لورنس) تتحدث في لهجة بطيئة متسائلة وقفت منتصبة أمام الموقد الذي تتوهج فيه النار وتزداد نوراً ومرحاً وكنت أغوص في المقعد الذي ربما كان مقعد زوجها عندما كان يقص عليها معاركه مساء قبل النوم، كانت ترمقني بعينها الواسعتين وكأنها تسألني نصيحة، وأوحت إلي بشعور دافق من الحنان والرحمة، كانت رشيقة فتية جميلة تلك الزهرة، تلك الزنبقة التي خرجت من القبر، بنت الموت هذه، هذا الشبح بوجه ملاك وجسد راقصة هندية. لست أدري كيف حدث ذلك؟ ربما كان تأثير المقعد الذي أجلس فيه هو الذي جعلني أتصور أني الجنرال العجوز الذي قص عليها في تلك العشية معركة (يينا) والذي سوف يتم غداً قصته وقلت:

بعد معركة (يينا) يا صديقتي العزيزة. كل القلاع البروسية تستسلم في مدى بضعة أسابيع. دون مقاومة. و(ماجدبورج) أولها استسلاماً وإن كانت أكثرها مناعة، يحميها ثلاثمائة مدفع. أليس ذلك عاراً؟

لم تدعني (لورنس) استمر في حديثي: الأفكار السود لم تكف عن نشر قتامها على وجهها الجميل. ضحكت مثل طفل وصرحت: حسناً. ذلك عار، أكثر من عار لو كنت قلعة فيها ثلاثمائة مدفع لم أستسلم أبداً. وبما أن الآنسة (لورنس) لم تكن قلعة ولا تمتلك ثلاثمائة مدفع... قطع مكسيمليان عند هذه الكلمات حديثه، وبعد وقفة قصيرة قال في صوت خافت ــ ماريا هل تنامين..؟ وأجابت ماريا: ــ أنا نائمة واستأنف مكسيمليان في ابتسامة: حسناً. إذن فأنا لا أخاف أن أزعجك إذا وصفت لك في دقة، كما يفعل الروائيون في أيامنا هذه، كل أثاث الغرفة التي كنت فيها..؟ ــ قل ما تشاء يا صديقي العزيز! فأنا نائمة. ــ الحق أنه كان سريراً رائعاً. أرجله مثل أرجل أسرة الامبراطورية منحوتة على شكل تماثيل النساء والتنانين، وسماؤه تتألق بمطرزات غنية ولاسيما بنسور من الذهب ينقر

بعضها بعضاً كأنها من طيور الترغلة: لعل ذلك كان رمز الحب في عهد الامبراطورية. الستائر من الحرير الأحمر وبما أن لهب الموقد ينيرها بوهج باهر فقد وجدتني مع (لورنس) من نصف نهار من النار، وخُيِّل إليّ أني الرب (بلوتون) يضم بين ذراعيه في لهب الجحيم الساطع (بروسبرين) النائمة.. كانت تنام فعلاً وقد راقبت في هذا الوضع رأسها الجميلة باحثاً في ملامحه عن تفسير لهذا العطف الذي أشعر به في أعماق روحي عليها. ماذا تعني هذه المرأة؟ ما المعنى الذي يتوارى تحت رموز هذه الأشكال الجميلة. هذا اللغز الجميل يستريح الآن بين ذراعي كأنه ملك لي، ومع ذلك فأنا لا أملك منه ولو كلمة.

ولكن أليس من الجنون أن أبحث عن معنى لغز لإنسان غريب ونحن لانستطيع أن نفسر لغز أرواحنا ذاتها؟ وماذا نعلم إذا كانت الأشياء التي ليست هي من ذواتنا توجد حقاً؟ يحدث غالباً أننا لانستطيع أن نميز الحقيقة الواقعية في أحلامنا. هذا الذي رأيته وسمعته تلك الليلة مثلاً هل كان نتاجاً من مخيلتي أو واقعاً حقيقياً؟ لا أدري أتذكر فقط أني في اللحظة التي غزا فيها مدّ الأفكار المضحكة ذهني أصابت أذني ضجة غريبة. إنها نشيد مجنون ولكنه جدّ أصم. يبدو أنه أليف في فكري، وميزت أخيراً نغمات المزمار المثلث والصندوق الكبير. هذه الموسيقى المزقزقة المدمدمة بدا لي أنها تأتي من بعيد. ومع ذلك فعندما رفعت عيني وجدت، قريباً مني، في وسط الغرفة منظراً أعرفه. إنه السيد (تور لوتوتو) القزم الذي يعزف على المزمار الثلاثي والسيدة الأم التي تقرع الصندوق الكبير، بينما كان الكلب العالم يشم الأرض حوله كأنه يريد أن يبحث فيها عن حروفه الخشبية ويجمعها. الكلب يبدو وكأنه لايتحرك إلا في عناء، وجلده ملطخ بالدم. والسيدة الأم تلبس دائماً ملابس الحداد، ولكن بطنها ليس كما كان مكوراً كبيراً في شكل مضحك، ولكنه يهبط على عكس ذلك هبوطاً يثير الاشمئزاز؛ وكذلك لم يكن وجهها أحمر، ولكنه أصفر. أما القزم الذي يلبس ثيابه المطرزة، وله ذؤابة مركيز فرنسي من العصر القديم، فيبدو أنه كبر قليلاً. وجعل يبدي حيله في الشعوذة ويعرض مفاخره القديمة، ولكنه كان يتكلم في صوت خافت، لم أستطع تبين كلمة من كلامه ولكني كنت أحزر بحركة شفاهه وفمه أنه كان يقلد أحياناً صياح الديك.

بينما كانت هذه الأشباح ــ المصغرة تتحرك أمام عيني كأنها ظلال صينية، في حماسة عجيبة شعرت أن الآنسة (لورنس) تنام على قلبي تتنفس في صعوبة تزداد

دائمًا. كانت رعشة باردة تهز أعضاءها كأنها تكابد آلاماً مبرحة لا تطاق. وأخيراً تملصت وهي لينة مثل ضفدعة من بين ذراعي وبدت فجأة في وسط الغرفة وشرعت ترقص بينما كانت السيدة الأم بطبلها، والقزم بمزماره يعزفان موسيقى ضئيلة مختنقة. رقصت تماماً كما كانت ترقص عند جسر واترلو وفي ميادين لندن. إنها نفس الحركات الغريبة ونفس الاندفاعات والقفزات العاطفية ونفس قلب الرأس الرشيق. ونفس الانحناءات نحو الأرض لكي تصغي إلى صوت خفي ثم الرجفة، والشحوب، والسكون، والانتباه مرة ثانية إلى ما ما يقال تحت الأرض، ثم فركت يديها كأنها غسلتهما. وأخيراً بدأت وهي تلقي علي نظرتها المنحرفة الوجيعة المتسعطفة... ولكني لم استطع قراءة هذه النظرة إلا في حركة ملامحها لا في عينيها المغمضتين. تبخرت الموسيقى في نغمات تنطفىء رويداً رويداً وشحبت الأم ذات الطبل والقزم شيئاً بعد شيء، وذابا كأنهما ضبابة واختفيا نهائياً، ولكن الآنسة (لورنس) ظلت منتصبة ترقص وعيناها مغمضتان. هذه الرقصة العمياء في الليل، في القاعة الصامتة أضفت علي هذه المخلوقة الفاتنة مظهر الشبح الذي أصبح يرهقني حتى كنت أرتجف أحياناً وأرتعش، وشعرت بالراحة عندما وضعت حداً لرقصتها وازلقت مرة أخرى بين ذراعي في الليونة نفسها التي تخلصت مني بها.

تفهمون أن هذا الحادث ليس فيه ما يرضيني، ولكن الإنسان يتعود على كل شيء. بل أنا أستطيع أن استخلص أن هذه الصفة الغريبة الغامضة أضفت على تلك المـرأة جاذبية إضافية مزجت بكل إحساساتي سروراً يبلغ حد الدهشة... وفي اختصار صرت بعد بضعة أسابيع لا أستغرب شيئـاً ولا يدهشنـي شيء عندما يرن في الليل صوت الطبل الخفيف والمزمار، وعندما تنهض عزيزتي لورنس في خفة وفجأة لترقص رقصتها بعينين مغمضتين. أما زوجها، الجنرال البونابرتي القديم فكان يتولى قيادة في أطراف باريس، وكانت خدمته لاتسمح له إلا بقضاء النهار في المدينة. ولا حاجة إلى القول إنه أصبح صديقي الحميم، وأنه ذرف دموعاً حارة عندما ودعتهما بعد ذلك لأمد طويل وعندئذ سافر مع زوجته إلى صقلية. ولم أرهما منذ ذلك العهد قط.

وعندما أنهى مكسيمليان قصته هذه، أخذ قبعته في سرعة ومضى.



الجزء الثاني





رايسبيلدر

رحلات هاينه في أوروبا

المكان: أوروبا؛ والزمان: القرن التاسع عشر. أوروبا القرن التاسع عشر التي انتهى إليها التاريخ الانساني وأسلم لها زمامه. هذه القارة العجيبة التي وحّدت البشرية ـ ولأول مرة في التاريخ ـ تحت قيادتها واستغلالها في زمنٍ كانت فيه الأشياء الأكثر رسوخاً وصلابة تخرج عن مساراتها المألوفة وتبدل من طبائعها: زمن احتضار لعالم كان لمعانه يخبو وزمن ولادة لعالم ما زلنا نعيش امتداداته.

هذا السفر الذي نقدمه في مجلدين يتجاوز كلياً التصور التقليدي لأدب الرحلات. إنه أكثر من مجرد وصف للطبيعة والمدن والناس وعلاقاتهم ومعتقداتهم وسجونهم ومعابدهم وأسواقهم وجامعاتهم ومتاحفهم... الخ. فالحس النقدي الجذري الذي يتمتع به هاينريش هاينه يرتفع بهذا الوصف إلى مرتبة الأعمال الأدبية الكبرى التي وإنْ كانت تستخدم الوصف للتعبير عن الواقع إلاّ أنها تحمل في طيّاتها الحلم الكبير للانسانية بتغيير هذا الواقع واعادة بنائه على أسس أكثر انسانية وعدالة وجمالاً.

ثمن ١٨ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

دار التنوير للطباعة والنشر ص . ب : ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر ص . ب : ٥٨٠٣ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان